

کتاب

تاریخ الجیوش

الفہ

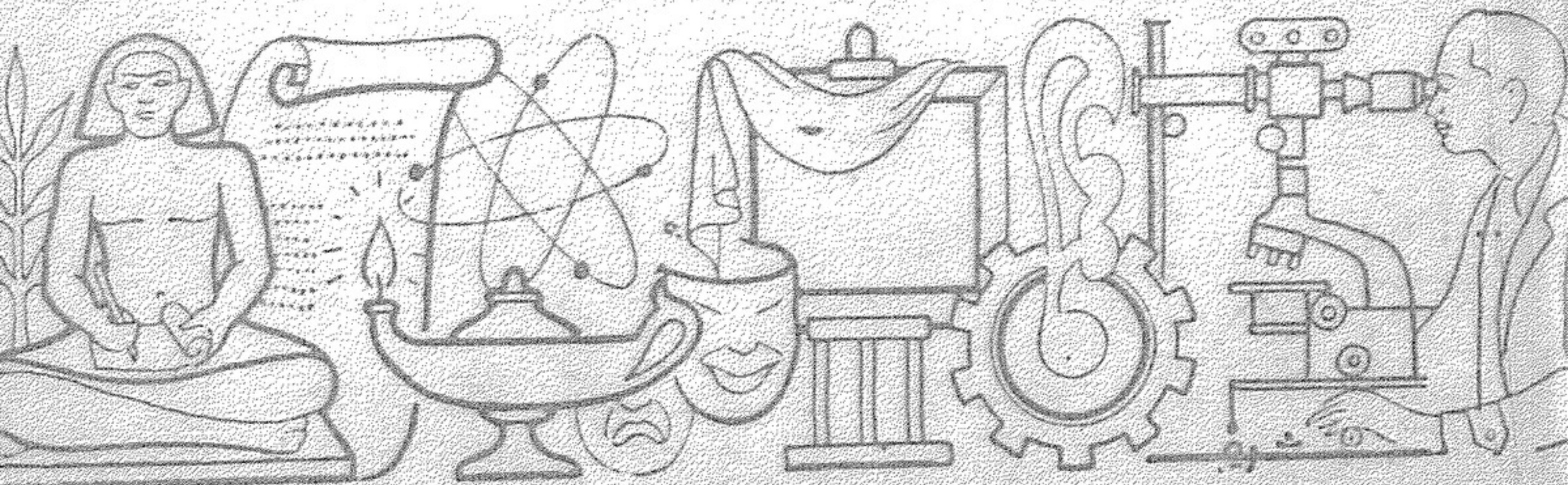
جورج کاسٹلن

ترجمہ

کمال دسوتی

قدم لہ وزورہ باضافات عن الجیوش العربیہ والاسلامیہ

القائم مقام الدكتور عبد الرحمن زکی



مقدمة الكتاب

الجيش اصطلاح يقصد به مجموعة الأفراد المسلحين المنظمين الذين يكلفون بأعمال القتال البرية ، ويتألف من الأفراد الذين يتدربون عسكرياً للدفاع عن الدولة . ويطلق هذا الإصطلاح على جميع الذين يحترفون مهنة الجندية ويتخذونها عملاً مستديماً وكذلك أفراد قوات الاحتياط الذين يقضون وقتاً في التدريب .

وقد تطورت في خلال العصور أشكال وتنظيمات الجيوش تبعاً لتغير النظم الاجتماعية والأحوال السياسية عند الشعوب فضلاً عن التقدم العلمى الناعى ، وتبعاً لكل هذه الأمور أخذت الجيوش أنماطاً مختلفة كثيرة على مر الأيام .

كانت المشاة في زمن من الأزمنة عماد الجيوش وفي زمن آخر استبدلوا بالفرسان المسلحين ونرى اليوم المقاتلين يمتطون العربات المدرعة أو الطائرات النفاثة أو يهبطون من أجواء السماء في عدتهم وسلاحهم . وبينما كانت الجيوش في بعض العصور تؤلف من الجند المحترفين أو المرتزقة المأجورين إذ نراهم في عصور أخرى من الهواة المتطوعين أو الثوار المغامرين من المتطرفين الذين يقاتلون في سبيل تحقيق المثل العليا .

لقد تنوعت نظم الجيوش مع تطور الأحوال الاجتماعية التي سادت الأمم ومع تقدم أساليب القتال والتسلح . ففي مصر القديمة كان المحاربون يؤلفون الطبقة الثانية من أفراد الشعب الذين جمعهم سبع طبقات . وكان عماد الجيش حتى قيام الإمبراطورية جنود المشاة يعاونهم حملة القسي والمقلاع ثم عرفت مصر حرالى ١٨٠٠ ق . م استعمال العربات الحربية وكانت اقتبسها

عن غزاتها المكسوس . . وعلى مر الزمن أصبح سلاح العربات الحربية في مصر أعظم ما عرف منها في العالم القديم .

واستخدمت آشور^(١) الجياد على مئياس كبير . وكان العسكريون من الأشراف يؤلفون الطبقة الرفيعة . كذلك استمدت فارس القديمة محاربها من طبقة النبلاء .

وتمر عجلة الزمن فترى الإغريق والفرس معاصريهم يفيدون من تجارب مصر وآشور في مجال تنظيم الجيوش ، ويمكن القول أن مصر وآشور وفارس والإغريق كانت أولى الشعوب التي أسست أنظمة الجيوش كما أنها هي التي أخرجت واجب القتال من نطاقه القبلي وأخضعت جميع الأصحاء القادرين على القتال للنظام المسلح وجعلت منهم العناصر المقاتلة في الأمة ويرى بعض المؤرخين أن معركة ماراثون ، (٤٠٠ ق . م) تعتبر بداية قيام الجيوش المنظمة .

وفي هذا الكتاب يعرض المؤلف أحوال جيوش المدن الإغريقية التي كان لكل منها جيش قائم . كما أنه يتحدث بإسهاب عن جيوش رومه . تلك التي شابهت جيوش الإغريق في بداية الموقف .. عمادها المواطن - الجندي .

وقد امتاز الجيش في أيام الجمهورية الرومانية بأشياء كثيرة . فقد كان المواطن - الجندي مسئولاً عن أسلحته وعتاده وليست الحكومة . وعلى ذلك الأساس أنشئت خمس طبقات من المشاة وكان على رأسهم جميعاً المشاة المدرعون وهم أكثرهم ثروة وجاهاً كذلك كان الفرسان . وكان أفراد الجيش الروماني يدرّبون منذ الصغر على الأعمال العسكرية ويلاحظ أن جيش الجمهورية قد تعلم وأفاد كثيراً من تجاربه في قتال قرطاجنة المرير .

(١) استخدمت سومر العربية الحربية حوالي عام ٣٠٠ ق . م وكانت تجربها الحير بدلا من الجياد .

ومر الجيش الروماني في أيام الجمهورية الأخيرة (١٤٦ ق.م ، ٢٩ ق.م) خلال حروب أهلية كثيرة بعضها ضد البرابرة، وبالتدريج أخذ بمبدأ الجيش المحترف ، وقد تولى إمرته قادة ممتازون مثل يوليوس قيصر وبومبي وغيرهما ممن تدين لهم رومه بأجسادها الشاحخة ، وعلى أثرها جاءت الإمبراطورية واكتفى حكامها بسياسة الدفاع والقضاء أولا بأول على الثورات التي كانت تنشب في الولايات . وعندما بدأت الإمبراطورية في التفكك تفتت الجيش الروماني إلى مجموعات وطنية . فيما عدا الجزء الشرقي منها فقد ظل يقاوم الأعداء الجدد إلى أن قضى العثمانيون على إمبراطورية بيزنطية (١٤٥٣) .

وسادت جيوش العصور الوسطى عدة نظم مختلفة . فكان لكل شعب أسلوبه المختار من النظم والتقاليد التي تتفق مع الإقطاع ، ولذلك اختلفت جيوش الفرنج والبيزنطيين والعرب والانجلوساكسون عن بعضها ولكل منها نظمها الخاصة .

قام العرب بسلسلة من الفتوح الموفقة في آسيا والشرق الوسيط وشمال إفريقيا وأوربا الغربية وكانت معركة تور (٧٣٢ م) أقصى ما وصلت إليه الفتوح الإسلامية ثم اتخذوا سياسة الدفاع في البلاد الأسبانية . كل هذا تم بفضل جيوش القبائل العربية والبربرية (بعد دخولها الإسلام) .

ومن الشعوب التي ظهرت على أثر العرب - المغول والترك - الذين امتازوا بحافل فرسانهم المخربة التي أوقعت الرعب في كل مكان وطأته أقدام خيولهم - وامتاز عصرهم باستخدام الخيل على مقياس كبير سواء أكان ذلك في الشرق أو في الغرب .

وفي خلال النصف الأخير من العصور الوسطى قامت بوظيفة الجيوش جماعات وعصابات استأجرها الملوك والأمراء وقد عرفت هذه بأسماء مختلفة في سويسرة وأسبانيا والأراضي المنخفضة وإيطاليا (في عصر النهضة) .

وكان لجوستافوس أدولفوس عاهل السويد ومن بعده كرومويل أثر بارز على ما أدخلناه من النظم الجديدة في الجيوش - تلك الترتيبات التي تتصل بالقطع العسكرية والقيادة .. كما أننا لا نستطيع أن نتجاهل تلك الحقبة التي مر الجيش خلالها في فرنسا في النصف الأخير من القرن السابع عشر .. وما كان أيضاً لفردريك الكبير من نشاط وعبقريّة عسكرية ، فتطور التكتيك وسيطر النظام بصرامة إلى جانب ما كان للأسلحة النارية من أثر كبير في نظم صفوف الجيش .

ولا يخفى ما كان للشعور الوطني وتطور الوعي الاجتماعي من آثار داوية في نظم جيوش فرنسا ، تلك الآثار التي انبثق منها تنظيم الأمة للقتال والجهاد ولقد صادف هذا النظام الثوري قبولاً عند الفرنسيين لانسجامه الواضح مع الظروف السياسية التي مروا خلالها . فاستفاد نابليون القورسيكي منه وأدخل عليه بعض التعديلات التي تتفق مع سياسة الانطلاق خارج الحدود الفرنسية ... إصلاحات تناولت معنويات الجند ومكافأاتهم وتدريبهم على ما استحدثه من التكتيك إلى جانب ما نجم عن تشعب أعمال القيادة . وفي خلال تلك الأعوام الجامعة بأحداثها برزت جيوش مضادة لنابليون .. هي جيوش التحرير التي ناضلته وقاومته .. وكان لتلك طابعها التي انسمت به . وكذلك قيام الجيوش الأمريكية أثناء الحرب الأهلية وجيوش ألمانيا وروسيا والوحدة الإيطالية

ويمكن القول أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان عصر الجيوش المحترفة ويتمثل هذا الطراز في الجيوش الإنجليزية والأمريكية والألمانية والإبانية .. وتتماز بطرزها الخاصة من حيث أساليب تجنيدها وشكلها العام أو حجمها وتنظيمها وقيام هيئات أركان الحرب بها .. ولحق بهذا كله تطور شامل في التدريب والتكتيك والتسليح الآلي .

كانت تلك هي حالة الجيوش الأوروبية عامة التي تقابلها في جبهات الحرب العالمية الأولى ، وأهم ما نلاحظه زيادة أثر النيران للأسلحة التي زودت بها الجيوش ولا سيما نيران المدفعية بفضل تحسن صناعة المفرقات . . ثم استخدامهما لسلاحين هامين هما الدبابة والغاز السام^(١) وصار واضحاً منذ ذلك النضال العالمي أن الحرب قد أصبحت تؤثر على كل مواطن بطريق مباشر أو غير مباشر . وبدأت الحكومات تدرس مشكلة القتال أو الدفاع وتوجه إليها عنايتها الكبرى بشكل لم يسبق مثله في أية حقبة من حقبات التاريخ ، واندجحت الصناعة في نطاق المجهود الحربي . وفي تلك الحرب العالمية برزت أيضاً أهمية معنويات الشعوب والعمل على رفعها إلى مستوى عال بجميع الوسائل السيكلوجية .

وفيما بين الحربين العالميتين تطور مبدأ اشتراك الأسلحة الثلاثة في البر والبحر والجو . . . حتى إذا نشبت الحرب العالمية الثانية كانت قوات كل أمة تعد بالملايين ويقدم لها العون ملايين آخرون خلف جبهات القتال . ورأينا شعوباً متحالفة في صف واحد تحارب شعوباً أخرى في صف مقابل وانتشرت المعارك في جميع القارات برأ وبحراً وجواً ، وأدخلت عناصر جديدة في فن التكتيك نتيجة لتطور التسليح . . كانت الحرب نضالاً جباراً بين إمكانيات المقاتلين شملت كل مالمدي الأمم من جامعات ومصانع ومناجم وحقول وقوى كهربائية وطاقة طبيعية وعلمية ، وقد ساعدت العلوم رجل الحرب بما أمدته من الاختراعات الجديدة كاللغام البرية والبحرية وأجهزة الكشف عنها ثم الصاروخيات والقنابل الموجهة وأخيراً الدبابة في شتى الأنواع والأثقال والراديو والتليفزيون . الخ

ارتقت في تلك الحرب العالمية الثانية أساليب قيادة الجيوش من

(١) كان أول استخدام الغاز السام في معركة إيبير ypres في ربيع عام ١٩١٥ .

التشكيلات الكبرى إلى الوحدات الصغرى وصار لازماً أن يعنى كل العناية بتدريب وتعليم الجندى العمل بنفسه فى الميدان وبوحى تفكيره إذا وزعت وحدته أو قتل رئيسه، أما أثر القنبلة الذرية والهيدروجينية وكذلك الأسلحة الذرية على الجيوش ونظمها وتدريبها فى حرب المستقبل فعليه عند الله . ولكن مما لا شك فيه أن قيادات الجيوش قد عملت لذلك حسابها حتى لا تفاجأ وسوف تظل القوات المسلحة (ولا سيما البرية) العامل الرئيسى فى القتال ومن المحال أن يعيش عالم مادى التفكير وأناى الطبيعة بدونها فى ذلك العالم .

• • •

وعلى أية حال فبالرغم من تطور الجيوش وما أدخلته عليها آلات التدمير الحديثة وتقدم فن الطيران ونظور وعى الشعوب فإن شيئاً واحداً لم يتغير على مر الزمن . . . ذلك هو الرجل الذى يتحمل أعباء القتال . . . هو القاسم المشترك فى نضال الشعوب فالرجال الذين تؤلف منهم صفوف المقاتلين هم الذين يصنعون جيشاً قادراً أو جيشاً هزيراً . . . لننظر إلى صفحات التاريخ لنفيد منها . . . إن جيش المسلمين لم يبلغ ما وصل إليه من أجماد بقوة السلاح بل لأنه كان جيشاً من الشجعان المقاتلين المسلحين بالعزيمة والإرادة والتضحية والإيمان .

إنه من الأفراد تتكون الشعوب ومن الشعوب الصالحة نجد الجيوش الممتازة على غيرها . وعندما تضمرط الأمة يضعف الجيش ويفشل فى واجبه ولا يسمع صدى لوقع أقدامه . إن حيوية الأمة وقوة إبداع أفرادها ونشاط إنتاجها مجتمعة هى التى تخلق الجيش الظافر . . . والفضل فى الجيش الظافر إنما يعود إلى نوع رجاله . . . فقط .

عبد الرحمن زكى

الفصل الأول

الجيش في القديم

إن أول ما بقى لنا من آثار وجود الإنسان الأسلحة: كل ما تقذفه الأيدي فالمعاول ، وأطراف السهام ، وآلات الصيد من غير شك ، تلك الآلات التي غالباً ما كان هدفها أفراد القبيلة المعادية . فنذ فجر ما قبل التاريخ يسيطر على مغامرة الإنسان القتال والحرب ، وهي مظهر من مظاهر صراعه لإيجاد التوازن بين نفسه والبيئة الحيوية المحيطة به : الصراع من أجل الاستيلاء على القوات ، وعلى مواقع الانشاء الملائمة ، وحيازة الأرض التي يحيا عليها . ففي المجتمع البدائي كانت الأسرة والعشيرة والقبيلة كل منها وحدة حربية . كما كانت علاقات المجموعة منها بالآخرى تقوم على القوة ، كان كل رجل صالح للجندي جندياً ، وكان المجتمع كله مختلطاً بالجيش .

إلا أن الحرب تفرض تفاوت الدرجات ، درجات الغالب والمغلوب ، القوى والضعيف . ومن ثم ينشأ النظام ، وتتعادل القوى ، ويتمثل ذلك في مختلف المجموعات وكثرة الرتب وأنواع السيطرة . وتضيق بهـذا أطر العشيرة ، وتبدو القبيلة غير كافية ، فنرى قبائل سومر^(١)، والأسرات المصرية والممالك اليونانية (التي تحدثت عنها الإلياذة) ، واتحاد الأقاليم السبعة لروما الأولى . . . وحدات جديدة خلقتها الحرب ، ومرحلة أولى في التطور من نظام العشيرة إلى الامبراطوريات الكبيرة .

(١) السومريون أمة استوطنت بلاد ما بين النهرين من قديم الزمان وأنشأت حضارة عظيمة في الجهة الجنوبية من نهر الفرات وهناك رأى يقول بأن هذه الحضارة يرجع تاريخها إلى ما قبل الحضارة المصرية القديمة . (المراجع)

ومنذ هذه المرحلة الأولى يقوم التخصص ، فينزع المجتمع السلاح لكي ينشأ الجيش . ويحاول الرئيس أن يضمن تركيز السلطة في يده ، وينجح في ذلك بسبب متفاوتة . فإذا اضطُر إلى أن يتقاسم معه السلطة رؤساء العشائر القديمة في اليونان (الذين يسميهم هوميروس الجينوس Guenos) أو الشعب نفسه في روما الملكية ، فهذا هو نظام المدينة *la Cité* . فيه تظل العشائر مسلحة ، وفي حالة الحرب يكون المواطنون جميعاً جنوداً — فهذا هو الجيش الوطني .

أما في الحالة المقابلة لهذه : فالرئيس هو الذي يفرض بقوته سلطانه وله جيشه الخاص به ، والذي يتكون غالباً من أجنبى ماجورين ، فيكون الجيش أداة قوته . وهذا جيش الامبراطوريات المأجور أو المرتزق .

١ - دراسة خارجية : أنماط الجيش :

عرف العصر القديم نوعين من الجيش في أمكنة وأزمنة جد مختلفة :

فأولاً : جيش المدينة *L'Armée de la Cité*

يعرض عالم الإغريق في مدنه نماذج عديدة للجيش الوطنية . فاليونان القديمة - كما حدثتنا الإلياذة - مجموعة عمالك صغيرة منضمة بعضها إلى بعض برباط إتحادى غامض بعض الشيء . وعلى رأسها يوجد الملك الذي هو الرئيس الدينى والحربى . إلا أنه في هذه التجمعات ، لازالت الجماعات محتفظة بكامل أهميتها ، ومازال رؤساؤها أعوان الملك ومستشاريه .

كما أن الجيش لا يبعدو أنضام رجال هذه الجماعات المتجاورة في صورة وحدات الأسر والقبائل . فعلى كل رب أسرة أن يقدم الرجال الذين يرى

أنهم صالحون أو يبدون له صالحين . وهكذا كان المجتمع نصفه غير مسلح . لأن كل الرجال ليسوا في حالة تعبئة . وهذا هو السبب الذي من أجله سوف تهزم اليونان القديمة أمام الدوريين *les Doriens* ، والحق أن شعوب اليونان في الشمال قد أبقوا على سلامة تنظيمهم العائلي ، فكان كل الرجال جنوداً كما وهبهم الرمي فوق ذلك تفوقاً فنياً كبيراً .

وقد احتفظت أسبرطة في العصر القديم بهذا الطابع الدوري الأصيل فيها كما كانت النموذج الكامل ، للمدينة العسكرية ، *Cité - Caserne* . لذا عرف أفلاطون الشعب الإسبرطي بقوله : « إنه جيش ، إنه حامية مدينة ليست إلا معسكراً . أن الأقلية فيها مغمورة وسط الشعوب الوطنية . والدوريون من أهل أسبرطة — لكي يبقوا على قوتهم — قد احتفظوا دائماً بتنظيمهم العسكري القوي الذي ضمن لهم النصر في القرن العاشر . والإسبرطي طول حياته جندي خاضع لأدق نظام . ولما كان تحت الطلب من سن العشرين إلى الستين ، فإنه يقيم بالمعسكر حتى الثلاثين ، وياً كل في (الميز) حتى الستين .

« وعندما يولد ، يخضع للجنة فحص حقيقية هي التي تقرر مصيره ، ولها وحدها الحق في أن تحي من سوف يستطيع فيما بعد أن يكون جندياً ، والتربية في أسبرطة عسكرية صارمة ، وهي تروض على المعاناة ، وتحمل البرد ، والجوع . والتربية البدنية متقدمة جداً ، إلا أن الثقافة العقلية قاصرة على طائفة من أشعار الحروب . وفي وقت السلم يظل المواطن مجنحاً . وعليه أن يسكن المدينة حتى يستطيع أن يستجيب لأول دقة للطبول . وهو يلبس دائماً الزي الرسمي ذي السترة الأرجوانية التي تخفي بقع الدم . وفي وجبة المساء التي يتناولها جماعياً ، يتواجد على المائدة مع الخمسة عشر زميلاً الذين سيقاسمهم الخيمة وقت الحرب .

ففي أسبرطة إذن ، المعادلة : جندي = مواطن ، صحيحة . وللقيام على

بقاء هذه الآلاف المؤلفة من العسكريين ، يعمل في دأب جمهور من الأجانب غير الوطنيين ، يتكون من الشعوب المغلوبة تحول أهلها إلى رقيق .

وعندما يشرق فجر التاريخ على الغالبية من الشعوب الأخرى ، إذا بنا نجد أنفسنا إزاء تطور أكثر تقدماً . فإن أثينا في عهد بيركليس تحتفظ بالخدمة العسكرية الإجبارية . ويقسم المواطن حين يبلغ الرشد يمين الولاء للوطن : « إننى لن ألحق العار بهذه الأسلحة المقدسة ، ولن أتخلى عن زميلى فى المعركة وسأقاتل دفاعاً عن آلهتى وبلادى ، وحيداً أو مع الآخرين ، ولن أخلف الوطن وبه نقص ، بل أموت عنه أكثر قوة وأشد بأساً .

إنه تحت الطلب من الثانية عشرة إلى الستين . وهو يؤدى بوصفه مجنداً Neotatos سنتين من الخدمة العاملة ثم يقيد بين المحاربين المقيدين Hoplites du Catalogue من سن العشرين إلى التاسعة والأربعين ، وأخيراً يصبح من المحاربين القدماء Presbytatos من الخمسين إلى الستين . ومن النادر فى حالة الحرب أن تكون التعبئة عامة . فقد كان يكفى دائماً تقريباً استدعاء عدد بعينه من طبقات المحاربين المقيدين بالإضافة إلى المجندين . أما أثناء السلم فالمجندون وخدمهم هم الذين يؤدون الخدمة العسكرية (العاملة) وهيئة المقيدين هي التي تكون جيش تحت الطلب . فالمدينة تعتمد دائماً إذن على أبنائها فى الدفاع عنها أما المجتمع فقد أصبح مدنياً . ولم يعد الجيش ليختلط بجماعة المواطنين إلا عندما يكون الوطن فى خطر . ففى مقابل المدينة المعسكر ، كان ثمة المدينة المشتغلة بالفنون والآداب Cité Mère des Arts et Lettres التي يحمىها جيشها الوطنى .

هذا النوع من الجيوش المكون من المدنيين سوف يوجد أيضاً بدرجات مختلفة فى أقدم ممالك ما بين النهرين ، وشعوب الغال المستقلة ، وفى روما الملكية ؛ حيث رؤساء القبائل Patres هم الرؤساء العسكريون

يقودون رجالهم إلى الحرب . فهما تكن درجة مدنية المجتمع وانفصاله عن الهيئة العسكرية ؛ فإن الطابع الأساسي لهذه المجتمعات القديمة إنما يتمثل في المعادلة : الجيش = المدينة (أو المملكة) في حالة تسليح .

ثانيا : جيش الامبراطورية :

إن نموذج جيش الامبراطوريات هو الجيش المرتزق . إلا أنه بين النوعين الرئيسيين من الجيوش يقدم العالم القديم أنواعاً أخرى هي بمثابة مرحلة انتقالية تسمح بالوقوف على طريقة الانتقال من أحدهما إلى الآخر . يجب أن نذكر أولاً أن المدن اليونانية القديمة قد عرفت الجنود المرتزقة فمنذ حرب البلوبونيز ، استخدمت أثينا رماة السهام من أهل كريت ، ومصوبى (المقلع) من أهل رودس أو أكارنينا ، وحملة الدروع من أهل تراقية . فلما أصبحت لها امبراطورية أهابت بحلفائها ، وبدلاً من المساهمة بالأسلحة التي كانوا يفضلون استبدالها بالضريبة (الجزية) نشأت عندهم فكرة جنود تدفع هي رواتبهم . وأخيراً فإن أثينا قد لجأت - ولكن في أسطولها فقط - إلى استخدام العبيد .

واسبرطة ذاتها عندما كانت فريسة للداء المميت ، ونعني به نقص الرجال وانقراضهم ، أهابت بالعبيد والجيران منذ القرن الخامس . وفي بلاتيا (٣٧١) Platéas (٤٧٩ ق . م) كان ثمة واحد منهم لكل مواطن . وفي لاكونيا (٣٧١) اثنان أو ثلاثة . ليس هذا فحسب ، بل إنه عندما كانت تحدث أزمة في عدد الجيش ، كان من الضروري تسليح العبيد المولودين لأعداء الاسبرطيين ، كما حدث بعد حرب جزيرة اسفاكترى Sphacterie (٤٢٥) .

وفي القرن الثاني لا يكون من المواطنين في جيوش البلوبونيز إلا الرؤساء والقادة فحسب ، فقد خرج أجيسيلاس Agésilas إلى آسيا بثلاثين أسبرطيا لآلني عبد وستة آلاف من الحلفاء . وهكذا انتهت المدن اليونانية إلى تحوير جيوشها بإدخال عنصر المرتزقة إما لضرورة استخدام الفنين أو الاضطرار إلى الإكثار من المواقع الحربية المنيعه تبعا لسياسة بيركليس وليزاندر الامبراطورية في التوسع والغزو .

هذا النوع المختلط من الجيوش معروف في الشرق القديم ، فالاسرائيليون في عهد داود (١٠١٠ - ٩٤٥ ق . م) قد أبقوا على تنظيم أنفسهم في قبائل بما ورثوه عن الحياة القبلية البدائية . وكان جيشهم يتكون من عنصرين : مجموعة المحاربين من مختلف القبائل الذين ينتظمون من تلقاء أنفسهم في فرق تكون الطلبة . بينما يكون لدى الملك جيش دائم من الحرس (هم المسمون أبطال داود) ومن الجنود المرتزقة من الكنعانيين والفلسطينيين .

أما في بابل ، فحتى عهد حمورابي (٢٠٠٣ - ١٩٦١ ق . م) كان يوجد جيش دائم يتكون خصوصاً من العبيد والمرتزقة من الجنود ، ومنهم يتكون حرس الملك الخاص ورجال الشرطة . أما المدنيون من الرجال الأحرار فقد كانوا يحبرون أيضا على الخدمة العسكرية بطريق السخرة كلما دعت الحال . ومنذ عهد حمورابي بدأت نواة الجيش تنشأ ، متكونة من بين الجنود من الرجال الأحرار Amelou الذين كانت تربطهم بالملك عقود شخصية . وسيتبين لنا فيما بعد أن الانتقال يكون من أحد هذين النوعين من الجيش إلى الآخر .

ومصر بدورها قد مرت بتطور شبيه بهذا . ففي عهد ملوك طينة وخلال امبراطورية منف القديمة (٢٨٩٥ - ٢٣٦٠ ق . م) نجد إلى جانب

الجنود الوطنيين عناصر من جنود مرتزقة (١). والأولون لا يطلبون للتعبة إلا في حالة الحروب الكبيرة .

نمة إذن المطلوبون للتجنيد من كل قبيلة ، والذين يتحدد عددهم تبعاً لظروف الأراضي ، وحراس المعابد الذين يخضعون لرجال الدين ، وحرس القصور والمدائن التابعين للأمرأ والحكام . أما الجنود المرتزقة فعلى العكس يتكون منهم العنصر الدائم في الجيش : حرس فرعون الخاص ، والمشاة من رماة السهام الليبيين والنوبيين (٢) . وكما في بابل - ولكن أسبق منها بخمس قرون - كان الجيش على وشك أن يمزق الروابط التي تربطه ببقية الشعب ليصبح ملكاً للملك . إلا أن مما يجدر ذكره مع هذا أنه ما من مرة أصبح فيها الجيش أداة قوة إلا زال بزوال القوة التي استخدمته .

وفيما بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى نشاهد في مصر عوداً إلى نظام الأقطاع تشتت فيه السلطات العسكرية بين رؤساء القبائل (٣) ومعاركهم

(١) كان لدى جانب فرق الجيش المجنسة من المصريين وحدات مرتزقة . وكان يقودها كلها القائد العام للجيش . ولم يكن الجيش مؤلفاً من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم ، بل إن هناك في الواقع جيشاً حكومياً مؤلفاً من وحدات حربية تحت قيادة ضباطه المحترفين الذين تفرغوا للأعمال العسكرية ، ولم يكن لهم أى عمل مدنى آخر . وكان مظهر الجيش في السلاح والملبس واحداً في كل فرقة . ويؤيد ذلك الرسوم التي عثر عليها في معبد « سهورع » حيث الجنود يخطون خطوات منتظمة ومجهزون بعناد وسلاح خربي واحد وقابضون على أسلحتهم بأسلوب واحد . (المراجع)

(٢) كان الجنود المرتزقة من الزنوج (النوبيين) ومن المحتمل من الليبيين أيضاً ، وقد اشترك هؤلاء في ساحة القتال ليخضع بهم يبي الأول - البدو - تحت إمرة أوني . وكان للمرتزقة إدارة حربية وقيادة . وقد ترك لنا أوني قائمة بأسماء الأشخاص الهامة الذين جاء كل منهم على رأس جنوده مرتبة حسب مكانة كل منهم .

(٣) ذكر الأستاذ سليم حسن أن الجيش في عهد الأسرة السادسة لم يعد مكوناً من وحدات حربية بقيادة ضباط فنيين (محترفين) بل أصبح جيشاً إقطاعياً محضاً . وقلبك لم تعد الوحدة الحربية هي الفرقة (عبر) بل أصبح الجيش مقسماً إلى فصائل مجموعة حسب =

التي لا تنتهى ، من قصر إلى قصر ، بما جعل للضرورات واللوازم الحربية
المقام الأول ، وصبغ شعب الفلاحين الوادع الهادى بالصبغة الحربية .
ولا شك أن أثر شعوب الشمال لم يكن غريباً على هذا الروح العسكرى
للمجتمع المصرى .

إنما يجب أن تتطلب الصورة الكاملة للجيش المرتزق فى عهود
الامبراطوريات الكبرى فى مصر وحاضرتها طيبة ، وآشور ، وفارس ،
وامبراطورية الاسكندر . فى هذه البلاد كان الجيش منفصلاً تمام الانفصال
عن المجتمع المدنى . وكان نظام الامبراطورية قائماً على القوة . والحاكم
الذى فرض نفسه بفتوحه وانتصاراته ، يحكم بالإرهاب كلوك آشور ،
أو بقوة الدين كالفرعنة وأبيرة أخمينيه (Achéménès) فى الفرس التى
انتهت بموت داريوس (٦٨٠ - ٣٣٠ ق . م) . فعلى الشعب المتعلق بالأرض
التي يفلحها يضغط نير الحاكم الذى يثقل كاهله بالضرائب والأعباء .

أما جيش الامبراطورية الوسطى فى مصر فهو جيش دائم ، وفى هذا
يختلف أساساً عن جيش المدينة الذى هو مؤقت تماماً . فإلى جانب حرس
فرعون الخصوصيين ، هناك مرافقو الرئيس *Compagnons du chef*
ومعاونوه من النوبيين (ويسمون مازوى *Mazoï*) . أما الجزء الأكبر من
فرق الجيش فيتكون من المجندين (الزامو *Zamou*) . وهم إنما يجندهم
ضباط الملك بمعدل جندى فى كل مائة رجل . هل نستطيع أن نتحدث
إذن عن جيش وطنى ؟ لا ، فإن هؤلاء المجندين وقد أصبحوا جنوداً

تعداد الأقليم الذى جندت فيه وعلى رأسها أمير المقاطعة ونائب الحصن أو الكاهن الكبير
الذى كان يحكم الإقليم من الوجهة الدينية . أما جيش المرتزقة فقد بقى تحت قيادة رؤسائه
من قادة الجنود المرتزقة الذين عرفناهم منذ الأسرة الخامسة . على أن الجيش وإن كان قد
أخذ صبغة إقطاعية محضة فإنه مع ذلك كان تحت إمرة الملك مباشرة . (المراجع)

لا يعودون يختلطون بجمهور المدنيين . والنصوص الهيروغليفية تضع العسكريين ، هؤلاء الذين يعيشون من الجيش (أنخو إن مشاو) في مقابل المدنيين ، أولئك الذين يعيشون في المدينة (أنخو إن نوت) . ونجد حينئذ أن طبقة من العسكريين تكون على إثر المزايا التي يمنحها فرعون لرفاقه في السلاح ولجنوده .

ونفس هذه الخصائص بالضبط نجدها في جيش آشور . فهو يشمل أيضا المدنيين الخاضعين للخدمة العسكرية (الإيكو I'ikou) والذين يهبهم الملك مزايا وإقطاعات . وفي كلا الحالين ، ثمة مجهود منظم من جانب السلطة العليا لجعل الجيش هيئة مستقلة .

ولما غرا كسرى (١) بلاد اليونان ، فكر المعاصرون في القيام لهذا الغزو كتلة واحدة فحدثنا إشيل Eschyle عن آسيا وقد فرغت من جنس الذكور ، كما تحدث هيرودوت عن هذا ، القطيع الانساني الجبار ، وعدد الدول الستة والأربعين التي كان يتكون منها الجيش ، حيث قدمت كل مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية ما لديها من رجال . هنا أيضا لا سبيل إلى أن نتحدث عن جيش وطني . فالنواة الدائمة التي يتكون منها الجيش إنما هي حرس الملك المعظم ، الخاص ، والمكون من الميديين والفرس . وحول هذه النواة تأتي لتتراص جيوش الأقاليم المختلفة ، التي يجندها حكام المقاطعات (المرزبان Satrape) وجنود من المرتزقة ينظمهم ضباط من البلاد تخرجوا في مدرسة القصر الحربية المخصصة لأبناء الأشراف .

وفي جيش الاسكندر من جيش الملك العظيم ، وجوه شبه قوية ،

(١) ملك الفرس (٤٨٥ — ٤٦٥ ق . م) وهو ابن داريوس الأول ، أخضع مصر وعزا بلاد أطيافا وخرب أثينا ولكنه هزم في سلامين وعاد أدراجه إلى آسيا ماربا . (المترجم)

إلا أنه قد تطور أثناء الفتوحات التي قام بها . وفي هذا يقول جلوتز Glotz :
 « إن جيش الفرات لم يعد يشبه جيش الهند إلا كما أشبه جيش أركول
 جيش مسكوبا ، . ففي البدء كان أساس الفرق قوامه المقدونيون أنفسهم ،
 إلا أن ضم الجنود المأخوذ من البلاد المغلوبة سوف يفقد « جيش الهند
 العظيم ، كل طابع قومي ، بينما يتحول المقدونيون أنفسهم إلى مأمورين
 يخدمون مولاهم فحسب .

بهذا يبدو إذن أن جيش الامبراطوريات بعيد عن القومية . حقا إن
 الوطنيين لا يزالون يكونون جزءا منه ، ولكن بنسبة قليلة . كما أن استمرار
 المهمة المنوطة به والمزايا التي يمنحها الرئيس لرجاله من شأنهما أن يجعلاه
 عنصرا منفصلا عن المجتمع المدني . فالجيش الدائم الذي يتكون في غالبية
 من الأجانب هو « أداة قوية ، في يد الملك الذي يجرى عليه الرزق ، إنه
 يبيع الملك خدماته . فهو جيش مرتزق .

الجيش المركب عند الرومان :

أما حالة روما فهي طريقة بصفة خاصة ليس فقط لأنها فريدة في نوعها
 بل لوفرة الوثائق التي تسمح لنا بأن نتتبع عن كثب هذا التطور الذي طرأ
 على الجيش من جيش المدينة إلى جيش الإمبراطورية . فلم يكن إلا على سبيل
 الحدس والتخمين ما ذكرنا من بعض مراحل التطور في جيش مصر وما بين
 النهرين . أما تاريخ روما فهو الذي يقدم هذه الحلقات المفقودة .

فجيش الملكية إنما يتكون في أساسه من بين القبائل gentes التي يكون
 كافة رجالها الصالحين للتجنيد جنودا ، ويقودهم إلى الحرب رب الأسرة
 Paterfamilias وهكذا نرى أنه في سنة ٥٠٤ ق . م يخرج أنيوس
 كلوزوس Attius Clausus في حملة قوامها خمسة آلاف رجل في من الجندي

ولاشك أنه كان من بين هؤلاء الرجال متطوعون ، بل - ومنذ هذا التاريخ فيما يبدو - مرتزة . فحتى القرن الخامس لم تكن الدولة الرومانية من القوة بحيث تبقى محافظة على استعمال قوتها . وكانت حملة الثلاثمائة وستة من الفايين Fabii ضد قبيلة فينس Veientes (وعددهم ٤٠٧) نهاية عهد من التاريخ .

ومع هذا فإن إعادة تقسيم المدينة إلى قبائل وعشائر مثوية Centuries قد قضى على النظام القبلي القديم . فأصبحت الحرب مشروعاً للدولة يشترك فيه كافة المواطنين . واضطرت الحروب الرهيبة التي شنت على السمنيين Samnites ويروس Pyrrhus إلى استدعاء كل الرجال القادرين على حمل السلاح - على أن يتناوبوا الخدمة مناصفة ، فيسرح كل سنة عشر كاتب من بين العشرين قبيلة .

لم يكن التطوع إلا رصيذاً مدخراً ، ولكن الجيش الروماني في القرن الخامس ق . م . هو في أساسه جيش قومي . ومع هذا فليس إلا في سنة ٢٧٥ حين باع القنصل كوريوس دنتاتوس Curius Dentatus لأول مرة أملاك المواطنين الذين لمادعوا إلى التجنيد لم يستجيبوا للنداء . ولا يصبح مبدأ الخدمة العسكرية الإجبارية مطلقاً إلا منذ أن استبدل القسم الفردي jusjurandum أثناء حرب قرطاجنة الثانية (١) بالقسم الجماعي لجملة المحاربين Conjuratio.

(١) قامت بين قرطاجنة وروما حروب ثلاثة كبيرة طاحنة انتهت بالقضاء على قرطاجنة وكان منشؤها اتجاه أنظار الرومان إلى صقلية التي كان قد سبق أهل قرطاجنة بالاستيلاء عليها - واستمرت الحرب الأولى من ٢٦٤ إلى ٢٤١ ق.م . وكان ميدانها صقلية وانتهت بانتصار الرومان وإخضاع الجزيرة لروما . أما الحرب الثانية فقد قام بها البطل هانيبال من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق.م التي بعد أن أحرز انتصارات كثيرة على الرومان في إيطاليا والغال والألب انقطعت عنه الإمدادات فضعف أمام القائد الروماني فايوس Fabius ثم شبيون Scipion حتى هزم في واقعة زاما (٢٠٢ ق . م) وقبل للصالح مع الرومان معاهدة ذليلة .

وكانت الحرب الثالثة قصيرة وحاسمة (١٤٩ - ١٤٦) وانتهت بالقضاء على قرطاجنة (الترجم)

إلا أن الغزو قد غير تماماً طبيعة هذا الجيش . فإن الرومان لما سادوا إيطاليا منذ القرن الثالث ق.م . قد طلبوا إلى المدن المتحالفة معهم أن يمدوهم بالرجال . هؤلاء هم الحلفاء Socii في مقابل الفرق الوطنية أو الكتائب . فلا ينتهي القرن الثالث حتى يقدر « بوليبيوس » الفرق الرومانية بنسبة ٤٣٪ و فرق الحلفاء بـ ٥٧٪ .

ومنذ هذا الوقت أصبح الرومان أقلية في داخل الجيش الإيطالي ، وفضلا عن هذا فقد عادوا إلى الاستعانة بالجنود المرتزقة . وفي القرن الثاني يساهم الشرق برمادة السهام من أهل كريت ومصوبى المقلع من أهل أخايا Achaie^(١) كما يأتي من الغرب فرسان إسبانيا ، فلما تم هذا التطور كان الانطلاق في حروب القرن الأول المدنية ، والحملات المتصلة التي شنها ماريوس Marius وسلا Sulla وپومبيوس Pompee وقيصر César ، واضطرا ركل من هؤلاء إلى ألا ينزع الجيش سلاحه قد جعل للجيش طابع الدوام والاستمرار . إلا أن هؤلاء الرجال الذين يسيطر القائد بعظمته على أفئدتهم يرتبطون به ويصبحون جنوده . ومن هنا نشأت الدكتاتورية العسكرية لقيصر .

ومنذ ذلك الحين أصبحت الامبراطورية ممكنة ، يقوم عليها جيش دائم من المتطوعين يتعاقدون لعشرين سنة ، وحاول أغسطس أن يحتفظ للكتيبة بطابعها الروماني ، ومع هذا فقد كانت الكتائب في الشرق غالبا ماتجنند في

(١) القسم الشمالى في بيلوبونوس وكان يطلق عليه لإيجاليا أى المنطقة الساحلية يحده شمالا خليج كورنثه وبحر إيونيا وجنويا إيليس وأركاديا .
لأحدى نواحي تيساليا .

ولاية رومانية

أحد الأجناس الهلينية كان يسكن في تيساليا ثم هاجر إلى بيلوبونوس ودانت لهم كل البلدان ماعدا أركاديا والمنطقة التي عرفت فيما بعد باسم Achaia ويطلقه هو « يروس » على جميع الأغريق (المراجع)

الميدان . يضاف إلى هذا أن الفرق الإضافية يزداد عددها ويتضخم بما ينضم إليها من رجال الحلفاء وحرس الأمباطور الخاص وحرس الحكام (البريتوري) Cohortes Pretorienne - وهذا عنصر جديد من عناصر الأمباطورية . والجملة إذن ثلثمائة وخمسون ألف رجل كلهم مأجورون ما بين الحارس البريتوري الذي يتقاضى ٥٠٠ ديناراً في السنة إلى جندي الفرق الإضافية الذي ينزل راتبه إلى ٧٥ ديناراً . وهذا هو الجيش المرتزق الذي يخلع رداء القومية قليلاً قليلاً لأن الإيطاليين ينصرفون عن حرفة السلاح ، ولأن الجيش الأمباطوري في روما - كما في مصر القديمة وفي الشرق - لم يعد أداة للقوة ، غير أنه هنا في خدمة السلام الروماني .

٢ - دراسة داخلية : تنظيم الجيش ومهمته :

إن أنماط الجيوش القديمة تترجم بنظامها عن الأصل الذي نشأت عنه والمهام التي عهد بها إليها .

جيوش المرائي :

والأرقام التي لدينا عنها محدودة نظراً لأن الطريقة ذاتها التي كان يتم بها التجنيد غير محددة ، فاسيطرة إذ كانت تنقرض بكارثة ، نقص الرجال ، رأت جيوشها دائماً محدودة العدد وتتناقص شيئاً فشيئاً . ويقدر هيرودوت الأسبرطيين الصالحين للقرعة العسكرية في سنة ٤٨٠ ق.م بثمانية آلاف رجل ، أصبحوا في سنة ٣٧١ لايزيدون على ألفين ، وفي ٢٤٢ لا يكادون يبلغون سبعمائة ، رغم اجتلاب الأجانب أكثر فأكثر . وفي القرن الخامس كان الجيش يحتوي على سبع كتائب كل منها ستمائة وأربعون رجلاً يعني أربعة آلاف وأربعمائة وثمانون جندياً يضاف إليهم المرتزقة .

ويبدو أن أثينا في سنة ٤٣١ كان لديها جيش عامل قوامه أربعة عشر ألف رجل يضاف إليهم جيش وطني من ١٤٠٠ تحت التجنيد ، ٢٥٠٠ من المحاربين

القدماء و ٩٥٠٠ من المستوطنين الغرباء . والمجموع حوالى ٢٧,٥٠٠ جندى تقريباً . ونجد لدى المدن الأخرى غير أثينا أرقاماً مشابهة ، فلم تزد قيمة جيش المدينة عن ذلك قط .

وتكوين هذه الجيوش بسيط جداً . فالمشاة تسيطر عليها بشكل واضح . وفى أسبرطة كانت كلمة « مواطن » تكاد تكون مرادفة لكلمة : جندى المشاة المسلح hoplite . هذا الجندى الراجل يغطيه الدرع والخوذة المعدنية ، ويحميه المجن الكافى لوقاية الجسم كله ، والمسلح بالسيف المستقيم والرمح ، هو الذى أكسب الجيوش الإسبرطية شهرتها . ووحدة الجيش الرئيسية هى الكتيبة (اللوخوس lochos) المكونة من ٦٤٠ رجلاً . وخلال القرن الخامس بظهر اللواء (المورا Mora) الذى يضم كتيبتين إحداهما من الوطنيين والأخرى من الأجانب . وإلى جانب هذه النواة المتينة للجيش المكونة من جنود الفرق العاديين توجد فصيلة الجنود الممتازين هم الصفوة أو الطليعة : الحرس الملكى الذى قوامه ثلثمائة جندى يختارون من بين الشباب الأسبرطى الباسل لتكون منهم أيضاً فرقة المشاة الثقيلة .

إلا أنه يوجد فوق هذا جنود إضافيون ، من الرقيق والمرتزة والخلفاء تحت قيادة الضباط الإسبرطيين ، ومنهم تكون خصوصاً المشاة الخفيفة ، كما أنهم يزودون بأسلحة مخصصة أهمها القوس والمقلع .

وفى أثينا نجد جيشاً مماثلاً لجيش أسبرطة : فالجيش « العامل » يتكون فى نصفه من « مشاة ثقيلة من الراجلين » . الراجلين المقيدون بالقائمة (من العشرين إلى التاسعة والأربعين) ، والمزودين بسلاح ثقيل (فعداتهم هى الدرع ، والخوذة ، ووقاء الساق ، والمجن الذى يصل وزنه ٣٥ كيلو جراماً) ومع هذا فثمة المشاة الخفيفة ، ويمثلها خصوصاً الفقراء Thètes والمرتزة

سلاحهم سهام كريت ، ومقاليع رودس وأكارينيا ، ودروع تراقية الصغيرة من الخشب المطرز بالجلد . . . الخ . ولقد جاء تنظيم هذه الفرق متأخراً . ففي سنة ٤٢١ لم تزيد على ١٦٠٠ رجل . ولكن عددها زاد بعد ذلك .

ولم يكن للفرسان في اليونان القديمة إلا دور ثانوى . ومع هذا فحتى القرن السادس كانت العجلات الحربية - الموروثة من عهد هوميروس - تلعب دوراً مهماً . ومنذ ذلك التاريخ ترجل الملوك والنبلاء الذين كانوا يمتطون هذه العجلات - بعد أن لم يعودوا يثقون في أعدائهم - وحاربوا مترجلين . ومثل ذلك فعل الفرسان . فقل دور الفروسية بقدر ما تحطمت الأرستقراطية وفقدت قوتها .

ثم إن تجهيز الخيل والعناية بها يكلف كثيراً . وتفسر التغيرات الاقتصادية والاجتماعية ليونان فيما بين القرنين الثامن والسادس انحدار الفروسية . وأراد تيمستوكلس أن يحمل مواطنيه على ، المقعد والمجداف ، وأن ينزل بالمدينة كلها إلى البحر . فكان تجهيز الأسطول الذى ألقى عبؤه منذ ذلك الحين على عاتق الأغنياء - كان ثمة الأمر خصوصاً بتجهيز فرقة من ثلاث سفن على نفقة الغنى الخاصة بصفة إجبارية . . . كل هذا كان على حساب الفروسية التى لم تعد تزيد في القرن السادس على ٩٦ فارساً يقاتلون مترجلين !

إنما كان رد فعل هذا الإهمال للفروسية إثر الحروب التى قامت بين اليونان والفرس ومعركة بلاتيا التى لم يكن لدى اليونان فيها رجل واحد يستطيع أن تواجه به الخمسة آلاف فارس الذين جاء بهم ماردنيوس (١) Mardonius . فنذ سنة ٤٧٦ كونت أثينا لنفسها سلاح فرسان حقيقى من ثلثمائة من الخيالة

(١) قتل هذا القائد الفارس مع هذا في معركة بلاتيا هذه سنة ٤٧٦ ق . م (المترجم)

أضيف إليها فيما بعد مائتان من رماة السهام المرتزقة . فكان الفرسان الأثينيون المسلحون بالسهام والمزاريق (الرماح) ، الممتطون صهوة الجياد دون ركاب أو سرج (إذا استعيض عن هذه بغطاء مثبت بحزام من الجلد) ، أشبه في عظمة مظهرهم بأهل بيوشيا Beotians الذين كان فرسانهم ذوي شهرة عظيمة .

أما اسبرطة فيبدو على العكس أنها قد تهربت تماما من الفروسية . إذ لم يبلغ فرسانها أكثر من ثلاثمائة رجل . وكانت تهيب أثناء الحرب مع هذا خصوصا بفرسان بيوشيا ، وبنسبة ضئيلة من عداهم .

وجيش المدينة المحدود في أرقامه لا يمكن أن تكون أهدافه المحدودة هي الأخرى . فإن أكبر الحروب في تاريخ اليونان — إذا استثنيا حروب الإسكندر — هي الحروب الميدية . ولكن أول تفوق في السلاح إنما يرجع إلى معركة ماراثون وحدها (٤٩٠) حيث لم يتمكن الأعداء من مجرد النزول إلى البر فكل مائتين من القتلى في جانب الأثينيين يقابلهم ستة آلاف في جانب الفرس . هذه هي تقاليد أثينا ، وتلك هي ميزانيتها في القتال التي جعلت لها المقام الأول بين المدن الحربية في العالم القديم .

وفي سنة ٤٨٠ دفعت بلاتيا إلى صفوف القتال بجنود من اليونان كلها عددهم أربعون ألف مقاتل في مقابل مائة وعشرين ألفا من الفرس . ومع هذا فليس ذلك إلا خليطاً بامتزاجاً ، وانتصاراً للخطئة (التكتيك) سببه ضعف الموقع الاستراتيجي . فقد غلبهم اليونان بفصل جنودهم المتفوقين في السلاح ولكن قائدهم الأعلى پوزانياس Pausanias الاسبرطي كان قد أظهر عجزه عن أن يحصل على أرقام تماثل السابقة .

والمعيار الحقيقي للإمكانات الحربية للمدن المختلفة إنما يظهر في حرب البلوبونيز وإن كانت مهارة توسيديد Thucydide نحى أحيانا طابعها الحقيقي

فهي حروب داخلية قوامها نصب الكمين والتشابك بالأيدي دون ما معركة حقيقية. لقد أصبح كليون Cleon ، بطلا وطنيا ، لأنه على رأس ثمانمائة مقاتل وأربعمائة من رماة السهام قد أحرق بجزيرة اسفاكترى الصغيرة (وطولها أربع كيلومترات وبها أربعمائة وعشرون اسبرطيا) وعاد معه ٢٩٢ أسيراً. كما أن حملة صقلية التي تبدو لمعاصريها شيئاً غير عادي ، إنما كان قوامها ١٤٣ سفينة تنقل خمسة آلاف مقاتل وثلاثين فارساً . هذه هي العملية الحربية الوحيدة ذات التفوق الكبير ، والتي انتهت بكارثة .

مبوش المرتزقة

من المستحيل أن نعطي لجيوش الامبراطوريات في الشرق بيانات محددة الأرقام ، فإن مصر في عهد ملوك طيبة قد كان لها - كما روى هيرودوتس - ١٠ ألف مقاتل تتكون منهم طبقة وراثية ، ولكن النصوص الهيروغليفية غير دقيقة في جملتها تماماً ، وما هو ذا رمسيس الثالث يعلن أنه : قد أنشأ طبقات عديدة من المجندين ، وكثيراً من المشاة ، ومئات الألوف من راكبي العجلات الحربية ، وجلب الجنود المرتزقة بلا عدد ، وفي الظهيرة عشرات الآلاف . .

وفي آشور ، كان تعداد جيش سالماناسار الثالث (Salmanasar) (٨٥٨ - ٨٢٤) الذي استولى على دمشق مائة وعشرين ألف رجل ، وفي الفرس جيش كسرى Xerxes الذي غزا بلاد اليونان يقدر - كما ذكر هيرودوت - بمليونين وستمائة واحد وأربعين ألفاً ومائة وعشرة من المحاربين (ويالها من دقة !) أنقصهم أفلاطون إلى ثلثمائة ألف من المشاة وستين ألفاً من الفرسان .

ولما دخل الاسكندر آسيا كان معه ٣٢ ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من

الفرسان ، عدا جيشه الكبير (جيش الهند) الذي بلغ تعدادده كحد أقصى ١٢٠ ألف رجل في جملته .

وجيش الامبراطورية الرومانية لا تقل أرقامه عظمة عن هذه . فقد بلغ في عهد أغسطس ٣٥٠ ألف رجل في الحملة . وزاد تراجان هذه الأرقام فبلغ عدد الكتائب في عهده الثلاثين ، وهي ذروة التنظيم الحربي لروما القديمة . فإن الحد الأقصى لتعداد جنودها يدور حول الأربعمئة ألف . ولم يكن ذلك بكاف لصد هجمات البربر . ومنذ عهد هارديان ، بدأت سياسة الأباطرة تتركز في خطط الدفاع ، فاستندت الفرق القليلة جدا إلى تحصينات وخطوط دفاع Limes هي في ذلك العصر أشبه بخط ماجينو الفرنسي إبان الحرب العالمية الثانية .

وكما تفوق جيوش المرتزقة في أرقامها بكثير جيوش المدائن ، فهي تختلف عنها كذلك في تركيبها . ففي بلاد الشرق : مصر وما بين النهرين ، نجد عناصر ثلاثة رئيسية : المشاة الثقيلة ، والمشاة الخفيفة ، والعجلات . وثمة فرق متخصصة في حفر الخنادق تحت الجدران بما يحمل رجالها من دبلط ، ومعاول .

أما جيش الفرس وجيش الاسكندر والجيش الروماني فيتمثل فيها عنصران فقط : المشاة والفرسان . ويجب أن نميز في المشاة بين مشاة الظليعة ، المكونة من المحاربين من الميديين والفرس أو الجحافل المقدونية والكتائب الرومانية ، وبين المشاة الخفيفة التي تقدمها البلاد الخاضعة للامبراطورية ، كالفرق المتنوعة في جيش كسرى ، المجندة من ستة وأربعين بلدا مختلفة كلها في لغتها وفي سلاحها (القوس ، والعصى الغليظة ، والمقلع ، والمزاريق ... إلخ) . وجنود الشرق في جيش الاسكندر (من الفرس

والهنود . . . إلخ) ورجال الحلفاء في مقاطعات أغسطس (توميديا ، وموريتانيا ، وتراقية) التي منها كان يحى رماة السهام ومصوبو المقلاع .

والجيش المرتزق هو في أساسه أداة للغزو ، فالفراعنة الأقوياء هؤلاء الذين كانوا يعيدون النظام إلى مصر بعد فترات الفوضى الاقطاعية الدورية كأمنحتب الرابع وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني وشيشنق الأول يستأنفون الغزو بمجرد أن يعيدوا تنظيم الجيش . والنوبة في الجنوب ، وكنعان في الشمال هما الهدفان اللذان طالما شن الغارة عليهما خلال آلاف السنين ملوك مصر المتعاقبون . كذلك لم يتعد الأمر غزوات محدودة بقصد الاستيلاء على وادى النيل . أما ملوك آشور فلا بد لأحدهم في هذا السهل الذي يحفه من كل الجهات سكان الجبال من أن يغلب أو يموت ، فكان هذا الفرع ، الآشورى سلاح دفاع أولى منه سلاح هجوم . كذلك حتى عهد هادريان ظلت الامبراطورية الرومانية هي الغالبة .

وجدير بالذكر أن الجيوش المرتزقة هذه غالباً ما تكون غير كافية في حالة الدفاع ، فإن ضآلة عددها الكبير - رغم أهميتها البالغة - عن أن تغطي حدوداً واسعة من الأرض يجعلها تتجمع في المواقع الحساسة فحسب ، تاركة الداخل غير مسلح تقريباً . فحسب العدو أن يجد منفذاً في صفوف دفاعها ليتسلل دون مقاومة إلى قلب الامبراطورية . وقد شهدت مصر من هذا النوع غارات الهكسوس ، كما وقعت بابل هكزا في يد الفرس فالإسكندر ، وكما اهتزت روما في عهد أغسطس إزاء عصيان دلماشيا وپانونيا . فكل هذه الامبراطوريات تندحر أمام جيوش أكثر عدداً أو أحسن عدداً .

الدور السياسى والاجتماعى للجيش القديم :

إن مكان الجيش فى المجتمع وعلاقاته بالسلطات المدنية ليست هى هى بعينها بالنسبة لجيش المدينة والجيش المرتزق . ذلك أن الجندى فى جيش المدينة إنما هو مواطن مسلح ، ولكنه فى هذه الحالة - المؤقتة تماماً - يبقى مدنياً ويندمج فى الحياة السياسية للمدينة . فهو يشترك فى اجتماعات الجمعية الوطنية ويشارك فى التصويت على قوانينها وفى انتخاب حكامها . وليس للشباب الاثنى أن يكون عضواً فى الجمعية الوطنية إلا بعد انتهاء خدمته العسكرية بستين . إلا أنه متى تم أداء هذا الواجب الوطنى ، وسواء جند له أو لم يجند ، فهو يصبح مدنياً . فليس للجندى إذن حالة قانونية خاصة به . والمعادلة : الجيش = المدينة ، صحيحة إلى حد أن تكوين الجيش إنما يحدده تعداد المدينة .

والحق أننا نجد فى جيش أثينا الطبقات الانتخابية التى نجدها فى المدينة تحت حكم كلثينيز^(١) . فقد كان كبار الأغنياء pentacosiomédimnes يقدمون بعض الفرسان . ولكن أغلبهم كانوا من مجهزى السفن الحربية ذات الطوابق الثلاثة من البحارة Trière ، أما الطبقة التالية Hippels

(١) كلثينيز Clisthenes حد بركليس . طرد هيباس Hippias من أثينا سنة ٥١٠ ق . م بعد مقتل أخى هذا (هماركوس Hipparcus) سنة ٥١٢ . وقام بأهم إصلاح دستورى منذ سواون ؛ وذلك بتوسيعه الأقسام السياسية لأثينا وجعلها تضم عشر قائل بدلا من أربعة . وحقق الديمقراطية بجعل المواطن ينتمى إلى الحى بدلا من الانتماء للعشيرة مما كان يعتبر أساسا للتنعم بالحقوق المدنية والسياسية ، معترفا بذلك بصفة المواطن للكثيرين من المستوطنين لأن الانتماء إلى الحى قد حل محل الانتماء للعشيرة .

وأعاد كلثينيز تنظيم الجيش على هذا الأساس العشرى للقبائل . فتكونت هيئة القيادة من عشرة وأصبح الانتخاب بأفرعة نخبها للمساواة بين الطبقات - التى لم تزال رغم هذا لها قوتها وسيطرتها (المرحوم)

فكانوا يقومون بالفروسية . وأما طبقة المشاة والمستوطنين الأغنياء Zeugites فكان منهم المحاربون المسلحون وأخيراً فإن طبقة الفقراء جداً Les thètes كانوا يشتغلون في المشاة الخفيفة وفي الأسطول (١) .

ونجد للكتيبة الرومانية الأولى نفس هذه الخصائص . فإن تنظيمها الذي جرت التقاليد بنسبته إلى مرفيوس تليوس Servius Tullius إنما يقوم على أساس الطبقات الانتخابية الخمس للمواطنين . إذ تقدم كل من هذه الطبقات عدداً بعينه من الفرق المثوية Censitaires والأغنياء . ميزة الخدمة في سلاح الفرسان (٢) .

(١) كانت طبقات الأثنيين في عهد الملكية ولأرستقراطية أربعاً : البلاء وكبار الملاك ثم صغار الملاك فالصناع والتجار وأخيراً العمال والسكن التطورات الاجتماعية والسياسية قد حصرتها بعد ذلك في ثلاث لم تكن الفواصل بينها قوية وإن قامت على أساس الثروة أيضاً فأصبح كافة الملاك ومن يستطيعون الفروسية أو يملكون الخيل طبقة الفرسان Hippias . وكان المواطنون ميسورو الحال الذين يستطيعون أن يجهزوا أنفسهم بالسلاح ويخدموا في فرق المشاة الثقيلة طبقة ثانية Zeugitae . أما الفقراء من العمال والذين لا يملكون شيئاً Thètes فمنهم تكون المشاة الخفيفة ونخارة الأسطول . وقد كانت الحقوق السياسية وتولى الوظائف العامة قاصرة دائماً على الطبقتين الأولين . (المترجم)

(٢) في تقسيم هذا الملاك للرومان إلى طبقات اجتماعية تلمس كذلك الدافع الحربي ومدى قدرة كل طبقة على خدمة أحد أسلحة الجيش كل حسب مواردها المالية . فتم الفرسان . وعدد ١٨ وحدة مثوية وهم طبقة أولى . أما المشاة فينقسمون خمس طبقات تتدرج فيما يملك أفراد كل منها من الثروة العقارية مقدرة بالأس . كما تختلف في عدد وحداتها من الثمانين إلى العشرين . فالذين لا يقل دخلهم عن مائة ألف آس هم الطليعة من الصفوف بعد الفرسان يليها طبقات أربع أخرى تتدرج دخل جنودها من ٧٥ ألف آس إلى ٥٠ ألف آس وخمسة وعشرين فائتي عشر ألفاً وخمسمائة آس - ثم الفقراء والذين لا يملكون إذا دعت الضرورة لاستخدامهم .

هذا الترتيب العسكري ذاته كان هو المعمول به في حالة التقدم للتصويت في الانتخاب فالفرسان أولاً ثم رجال الطبقة الأولى من المشاة ، فالطبقات التالية إذا كان قد بقي مجال لأخذ أصواتها . (المترجم)

ولكن جندى الامبراطورية - على عكس جندى المدينة - غالباً ما يكون جندياً محترفاً . فهو يتعاقد لمدة من الزمن تكون طويلة عادة ، كما يتمتع بحالة قانونية خاصة . والرئيس حقا في حاجة إليه ، فهو يغدق عليه المزايا . لذا عرفت مصر في عهد طيبة ، طبقة عسكرية ، قوية . وذهب فرعون جنوده . إقطاعات من أرضه كما كان يضمن لهم أرزاقهم ، ويورث أبناءهم مناصبهم ، ويعفيهم من الضرائب ويتلقى بنفسه شكاياتهم .

وفي بابل منذ عهد حمورابي كان الجندي يربطه بالملك اتفاق - فهو يسمى redoum أو hairoum أى الصائد أو الآخذ . لأن الملك يهبه في صورة . منافع مرتبة مدى الحياة ، أرضاً ذات منزل وعجول وخراف .. في مقابل التزامه الشخصي بالخدمة العسكرية . هذه المنحة هي الايلكو Ilkon الذى يصبح فيما بعد قابلاً لأن ينتقل إلى الخلف .

واستطاع أغسطس أخيراً أن يضع بطريقة محددة العهد العسكرى *Conditio militiae* الذى يبين التزامات الطرفين ، فيرتبط الجندي بأن يخدم مدة معينة ، وأن يخضع للنظام العسكرى والعزوبة . وهو في مقابل هذا يتلقى المعلوم *stipendium* (كما كانت الحال من قبل في جيوش العالم القديم وفي أثينا) ومنحة مالية عند تسريحه ، وأرضاً يتسلكها ملكية تامة في إحدى المستعمرات ، وأخيراً - في حالة ما إذا لم يكن مواطناً - الارتباط بقانون المدينة .

فجندي الإمبراطورية يربطه بالرئيس إذن ارتباط شخصي بينما جندي المدينة لا يعرف إلا الارتباط بصالح الوطن .

وفي القيادة أيضاً توجد فروق بمائلة . ذلك أن رؤساء المدينة يكونون في نفس الوقت رؤساء الجيش المدنى ، فمثلاً في أثينا القواد الحرييون هم تيمستوكليس Themistocles وأرستيدس Aristides وسيمونيس Cimones وإفياليس Ephialtes وخصوصاً بيركليس Pericles الذى أعيد انتخابه خمس

عشرة مرة متوالية ، أما في روما فهم القناصل الحكام السنويون وأحياناً جنرال صغير كشيشرون . أما من دون هؤلاء القادة الأعلون من الضباط فهم في أثينا ينتخبون ، ولكن في روما تدخل الوظائف العسكرية في عداد أعمال الشرف Cursus honorum التي ينخرط فيها كل رجل يريد أن يشغل وظيفة عامة ، والضباط - كما هي الحال بالنسبة للجنود - ليس لهم وضع قانوني خاص في جيش المدينة . فالسلطة الحربية مختلطة بالسلطة المدنية ، والجمعية الوطنية السياسية (البولي Boule أو الجيروزيا Gerousia أو السناتو senat) هي المسيطرة في وقت الحرب كما في وقت السلم .

أما الإمبراطوريات - فعلى العكس - تفصل بوضوح بين المجالين . فمصر تحت حكم طيبة لها نبلاؤها العسكريون الذين يتوارثون النبالة إلى جانب الإقطاعيين الحقيقيين ، ثم إن انتشار طريقة السلب والاغتصاب من جانب زعماء المرتزقة للمزايا الكبيرة سيؤدي إلى انهيار الإمبراطورية ؛ وتجزؤ البلاد . وفي بلاد ما بين النهرين وفي فارس نجد بالمثل نبالة عسكرية أهم مبرر لوجودها هو احترام الجيوش . والإمبراطورية الرومانية وحدها هي التي احتفظت عن المدن الأولى بمبدأ المزج بين الساطتين العسكرية والمدنية . فصغار الضباط أشبه بالجنود من المحترفين . وليس إلا في عهد الإمبراطورية السفلى ، وحين يكون قد زال كل أثر للجمهورية ؛ حيث نجد القواد العسكريين هم خاصة أصدقاء الأباطرة .

انحلال الجيش القديم :

إن المجتمعات القديمة كلها إنما هي مثال للتطور من المدينة إلى الإمبراطورية ، تطورا يكون داخلياً ، عندما تكون المدينة هي ذاتها عامل التغير الذي طرأ عليها - أي بصفة عامة عندما تكون غالبية ؛ مثل قبائل مصر القديمة ، وسومر ،

وروما على وجه الخصوص ، ويكون التطور « خارجياً » عندما تبرز قوات المدينة بقوة الإمبراطورية الغازية . وهذه حالة المدن اليونانية التي أخضعها الإسكندر .

في الحالة الثانية يكون الاعتبار الأول لدى الغالب بطبيعة الحال أن يجرّد المدينة من سلاحها ، تلك المدينة التي لا يقوم جيشها بعد إلا بوصفه « شرطة » ، يكلف بأعمال البوليس المحلي . فأتينا ، رغم إصلاح ليكرغ Lycourgue الذي أنشأ سنة ٣٣٥ الخدمة العسكرية العاملة الإجبارية ، قد بقيت إقطاعية لكاسندر Cassandre (١) في عهد ديمتريوس دي فالير Démétrios de phalère وليس لها إلا جيش محلي لم يلبث أن ذاب في جيوش أنتيجونوس Antigonos

إنما يجب إذن أن نتبع في الإمبراطوريات انحلال الجيش القديم . فمن القديم منذ آلاف السنين نجد في مصر والشرق وفي روما طرقاً تتجه اتجاهها واحداً . فإن « طبقة العسكريين » التي أشرنا إلى أصلها تنعزل ، وتثبت على الأرض بما لها فيها من منافع . وباستقطاع الأرض هكذا تنسى الخدمة التي تدين بها للرئيس ، فلا تبقى تحارب إلا لحسابها الخاص .

من ثم يستدعي الإمبراطور إذن أجانب (من البرابرة) ولكنه بدلا من أن يوزعهم على جيوشه ، التي منذ ذلك الحين لا يكون لها وجود ، يعهد إليهم بالعمل كتلة واحدة ، قبائل بأسرها تحت قيادة رؤساء من جنسهم ، وهكذا يصبح تحت رحمتهم ، ولا يلبث أن يجيء اليوم الذي يخلعه فيه الزعيم الأجنبي عن عرشه بعد أن يصبح العوبة في أيديهم ؛ بينما على الحدود التي

(١) أحد ملوك مقدونية (٣٥٤ - ٢٩٧) أخضع اليونان بعد أن انتصر في ميفالوبوليس Megalopolis (٢١٨ ق . م) وتزوج أخت الإسكندر الأكبر (نيسالونيس) وأهلك أسرته جميعاً وظل ملكا لمقدونيا واليونان بعد معركة إيسوس Ipsus (٣٠١) . (المترجم)

يحرسها أسوأ الحراسة مرتزة آخرون من هؤلاء الأجانب ، وغالباً من نفس الجنس ، جيش آخر يضغط ويتسلل . فتموت الامبراطورية في نفس الوقت الذي يموت فيه جيشها .

هكذا هاجمت إمبراطورية منف المصرية القديمة عناصر سورية . قتلت الوحدةَ والمركزية فوضى إقطاعية استمرت قرنين (٢٢٦٠ - ٢١٦٠) . فالأمراء هم قادة الجيش ، ورجال الدين الأعلاون ، وسادة الأرض ، والقضاة والحكام . وهم يعيشون في قصورهم يتسلون بالتدريبات العسكرية . ولأول مرة في الحضارة المصرية تخصص ساحة كبيرة لاستعراضات الجنود . ثم هاهي الإمبراطورية الوسطى تندحر أمام قوة أشد قسوة ؛ أمام غزوات الهكسوس الفظيعة (حوالى ١٦٦٠ ق. م) ولكن الإمبراطورية الحديثة - على العكس - قد شهدت انحلالاً بطيئاً منذ رمسيس الثالث . فإن طبقة العسكريين تستبد كلما قويت شوكتها بالوراثة ، وتحتكر مع الملك ورجال الدين ملكية الأرض . ومن هنا بالذات تلقى السلاح فخرى رمسيس الثالث مضطراً إذن إلى الاستعانة بالليبيين - الذين كان مع هذا قد دحرم - ليكونوا حراساً لبلاده . وأعلن فرعون قائلاً : لقد أقت رؤساءهم باسمي في حصونى ، . ومرة أخرى تتجزأ مصر ، ولا يقوى الملوك الليبيون والآثيوبيون أن يفرضوا سلطانهم على إقطاعية الجند ، فيأتى الآشورى ليضع حداً للتجديد الدورى لهذا التاريخ الطويل (٦٧١ م) .

وفي روما نجد أيضاً مثلاً كاملاً لهذا التطور . فقد كان الجيش السناد الحقيقى للإمبراطور . لقد أصبح أغسطس بانتصاراته السيد الأعلى ، ومنذ كلود Claude كان الجنود هم الذين يضعون أو يخلعون الأباطرة . إلا أن الجيش يخطئ بضعفه في العدد . فقد انتهى أمره إلى خمسين ألف رجل في الغرب كله . هذا كل ما استطاع الإمبراطور أن يجده في سنة ٢٥٧ لكى

يواجه جموع الفرنجة والألمان في بلاد الغال وهو يخطئ بالاقتراع الذي يستبعد العبيد كما يستبعد الأغنياء ولا ينصب من الناحية العملية إلا على المزارعين الأحرار Colons عبيد الأرض الذين يقدمهم للتجنيد سادتهم من كبار الملاك - لما هو مفروض على هؤلاء من تقديم عدد بعينه من الرجال . إن الخدمة العسكرية تعتبر إذن عاراً حقيقياً ، وتصبح قيمة الفرق العسكرية لاشئ . وبقدر ما لجثوا - لتجنب الهرب من الخدمة الإجبارية - إلى جعل حالة الجندي وراثية يتوارث فيها ابن الجندي مركز أبيه ؛ أصبح الجيش طائفة : بل من أحقر الطوائف ومنذ ذلك الحين لا تعود له قيمة إلا بالبرابرة يزدادون عدداً ، ولا يبقى في الجيش الروماني إلا روماني واحد ؛ هو الإمبراطور ، فهم يتسلطون على كافة الرتب والدرجات ، وذات يوم في سنة ٤٧٦ - وبالتحديد ٤ سبتمبر - جرد أودواكر Odoacre رئيس الجيش (وهو أجنبي من جزيرة أسكروس اليونانية) روميلوس أوغسطول Romulus Augustule من سترته الأرجوانية . وبهذا كان الجيش قد أجهز على الإمبراطورية .

الفصل الثاني

المجتمع المسلح

العصر الإقطاعي الأول (من القرن الخامس إلى الثاني عشر)

نمّة تاريخان - في المجال السياسي - يحد بهما العصر الوسيط لانستطيع الأحداث الاجتماعية أن تتكامل معهما . فإن مارك بلوخ Marc Bloch - وهو بصدد وصف المجتمع في العصور الوسطى - يميز عصرى إقطاع يجعل الفاصل بينهما النصف الثاني من القرن الحادى عشر . ولسكتنا - فيما يتعلق بالجيش - نستطيع أن نستمر حتى سنة ١١٥٠ .

فالحق أنه في هذا التاريخ تظهر القوانين الأولى التي تحظر على الطبقات الدنيا حمل السلاح . فيتخلى التاجر عن سيفه . وهو إيدان يده . عالم لم يعد السلم فيه شيئاً استثنائياً .

١ - التذبذب التاريخي

(١) من القرن الخامس إلى العاشر :

جندى الدولة أو المحارب الحر

إن شعوب البرابرة التي سكنت رومانيا في القرن الخامس هي جيوش مكلفة نظرياً من قبل ملك روما بحماية الامبراطورية بوصفهم حلفاء . هذه الجيوش إنما يقوم بنفقتها الإمبراطور ، الذي يلقى بين يدي رئيسها أتولف Athaulf أو جنسريك Genserik بالجزية ، أي المبلغ الإجمالى - المحدد

بمقتضى معاهدة - لمجموع الرواتب التي يجب دفعها للجند . يضاف إلى هذا حق إنزال الجنود بالمنازل . فكل ساكن يجب أن ينزل عن جزء من مسكنه (الثلث عموماً) بمقتضى تقديم أوراق السكن .

ولدى هذه الشعوب - كما هو ظاهر - كل رجل صالح للجنديّة يجب أن يكون محارباً . إلا أن القتال شرف يختص به الرجل الحر . نجد ذلك في بلاد الغال وملك الفرنجة وفي إيطاليا اللمباردية حيث الأرماني *Arimanni* - وهم الرجال الأحرار - محاربون من الطراز الأول . كذلك في أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين - على الأقل حتى القرن الثامن ؛ وفي بلاد الإنجليز السكسون حتى القرن السابع .

هذا المبدأ الجرمانى فى الخدمة العسكرية الإجبارية لم يلبث أن أخذت به الشعوب القديمة عندما امتدت إليها سيطرة زعماء البرابرة . فنذ عهد أبناء كلوفيس ، كان على أهل الغال والرومانين الأحرار أن يحملوا السلاح . فيصور لنا جريجوار دى تور *G. de Tours* الحرب بين قبائل مانسو وثورنجه - وغزو الأنجويين لسانتونيخ . إذ كانت الجيوش الفرنسية الأولى (منذ أسيرة ميروفيج *Mérovee*) تتكون فى أساسها من الرومانين وسكان الغال الذين كانوا يغتالون بعضهم بعضاً لصالح الحكام البرابرة . وهو انقلاب حربى عجيب لهؤلاء الناس الذين - منذ قرنين سابقين - قد فروا جميعاً هاربين من حرقة السلاح فى خدمة الأباطرة الرومان .

فباستثناء إيطاليا فى عهد القوط الشرقيين ، وإفريقيا القندالية التى احتفظ فيها تيودوريك وجنسريك للألمان الغزاة بوظائف عسكرية قليلة جداً - باستثناء هاتين ، عرفت معظم ممالك البرابرة خلال فترة من التاريخ مثل هذه الظاهرة .

إلا أن تطوراً في الاتجاه المضاد قد ظهر مبكراً جداً . فإنه في البلاد الأنجلوسكسونية - ابتداء من القرن الثامن - قدر أنه للقيام بالتجهيز الحربي قياماً صحيحاً لابد من امتلاك خمس وحدات من الأراضي الزراعية ، وفي أسبانيا أجبر ملك القوط الغربيين وامبا Wamba الملاك العقاريين على أن يسلح كل منهم عشر ما لديه من عبيد ، مما يدل على أن الرجال الأحرار - قانوناً أو بصفة غير قانونية - قد كفوا عن القتال . وفي بلاد الغال ظلت خدمة السلاح كمبدأ فرضاً على الجميع حتى القرن التاسع ، إلا أن الخدمة العسكرية للفرنجة لم تشمل في الواقع إلا الأغنياء .

لم إذن هذا التحول؟ السبب الأساسي أن فترة هذين القرنين (من السابع إلى التاسع) قد شهدت التراجع في ميدان القتال بين المشاة والفروسية . وطالما نظر إلى هذه الثورة الشاملة في فن الحرب على أنها نتيجة لغزوات العرب . فقد كاد شارل مارتل Ch. Martel يحول جنود مشاته من الفرنجة إلى فرسان لكي يناهض خيالة المسلمين . وفي سنة ٨٥٥ آخر ييبان Pepin نداء الجندية شهرين عن مواعده المحدد له دائماً - وهو مارس - شهر إله الحرب (فأصبحت ساحة مارس ساحة مايو) وذلك حتى يتم إعداد العلف اللازم لجيش كله من الفرسان . فالظاهرة إذن حقيقية ، ولكنها ترمز إلى نهاية تطور بدأ منذ قرون كثيرة .

إنها سلسلة اختراعات فنية ؛ يستوى في مجالها البارود وحشو المدافع أو القنبلة الذرية التي هي في أصل هذا التحول . لقد جهل العالم القديم دائماً (حدوة) الخيل ، والسرّج ، والركاب ؛ هذه التحسينات الثلاثة - التي سوف تهب الدابة قدماً راسخاً ، والفارس ثباتاً أعظم - قد عرفها عالم البحر المتوسط الشرقي منذ القرن الرابع . والقوط الشرقيون في أوكرانيا والبرابرة سكان

القوقاز هم الذين وقفوا على أسرار صقالية بحر الخزر أو شعوب آسيا الوسطى من القبائل الرحل، ونقلوها بدورهم إلى شعوب الغرب. فنذ القرن السابع زاد استعمال الخيل في جيوش الغرب أكثر فأكثر.

واستعمال الخيل يوضع مشكلة خطيرة. ذلك أن امتلاك إحدى دواب الحرب ودوام تجهيزها التجهيز الكامل يكلف غالبا. وليس أمام الرئيس الذي يعنيه أن يكون له جيش من الفرسان إلا إحدى اثنتين: فهو إما أن يدعو الأغنياء، أو أن يهب الآخرين الوسائل التي يواجهون بها هذه النفقات. ولكن لما كانت موارده ليست بالتي لاتنفد، فقد كان عليه أن يختار.

إلا أنه إذا رجعنا إلى ماضي جرمانيا، وإلى التقاليد الرومانية القديمة، لوجدنا جماعات من الناس غايتها موازنة جهود الرئيس. هؤلاء هم المحاربون الأحرار *buccetarii* الذين عرفتهم القرون الأخيرة لروما، والرفاق *Gisind* الذين وصفهم ناسيت *Tacite* بأنهم يلحقون بالعظيم ويتبعونه في المعركة ويتلقون منه الهدايا والفتن وحسن الرعاية. هذان النظامان القديمان (المحاربون الأحرار والرفاق) يتجددان في صورة «عصبة شرف *truste*» لملوك الفرنجة الميروفيغ مما كان سبب قوة كلوڤيس.

فالفرسان الأول سيكونون من بين هؤلاء؛ يضاف إليهم الأغنياء القادرون على التجهيز على نفقتهم، وغالبا ما يقتضون هم أيضا مقابلا لخدمتهم. ومن ثم لن يكون جيش الفرسان قط كبير العدد. ومنذ ذلك الحين لن تكون المسألة مسألة تجنيد كافة الرجال الأحرار؛ فالجندي الآن هو رجل، سيده وزعيمه، يرتبط معه إما برباط من «العصبة» أو بما

ينتظر منه من عطاء . وهذا هو الفَصَل Vassal (١) الذي يعلن نفسه محارباً محترفاً ، أو جندياً حراً .

وما يحدث في الغال - حيث تقوم قوة ملوك الميروفيج على ما لهم من الأتباع Les fidèles - نجد مثله في أسبانيا في القرن السابع ، وفي إيطاليا للمباردية في نفس العصر . وهو نظام يحمل في طياته حتفه ، فإن الملوك يجرون أنفسهم إلى الخراب بما يدفعون من الأراضي نظير إخلاص أتباعهم الدائم التذبذب ، كما أن التباس الخدمة العامة ، و الخدمة الخاصة ، سيؤدي سريعاً إلى النهاية المحزنة لهذه الأسر المالكة .

إلا أن الملوك من المجلس الجديد، ابتداء من بيبان لو بريف Pépin le Bref (٧٥١ - ٧٦٨) يطمحون إلى تجديد التقاليد الرومانية . ألم يعلن شارلمان نفسه إمبراطور الغرب ؟ وفي المجال العسكري كانت رغبتهم تنحصر في إعادة حشد القوة العامة التي ساهموا هم مع الزعماء ، في تحطيمها . فلا تلبث تقاليد الخدمة العسكرية الإلجبارية ، لكل رجل حر أن تتأكد من جديد في أوامر شارلمان . إلا أن الحملات الحربية تكلف الكثير وتستمر على الأكثر ثلاثة شهور (من مايو - الوقت الذي يكثر فيه العلف - إلى بداية

(١) نظام التبعية الإقطاعية Vassalité أحد المقومات الرئيسية لعصر الأقطاع ، ومن الخصائص التي انتقلت إليها ومعناها إلى الأقطار المجاورة أيام الحروب الصليبية . ذكر الدكتور زيادة قول النويري (نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٦١) أن كلمة الفصل Vassal في المصباح الصليبي - ومعناها التابع الإقطاعي - قد استمر استعمالها في البلاد الساحلية التي ارتفعت من أيدي الفرنجة جرياً على عاداتهم كما قل الصليبيون نظام الحسبة عن المسلمين في مراقبة الأسواق والقضاء في مجلس الحكم . واستعمل بناء على ذلك كلمة فصل المفرد وأفعال الجمع قائلين : إن المجتمع الإقطاعي في عصر تمامه أشبه في بنائه شكلاً هرمياً رأسه الملك أو الإمبراطور ، وتحت ذلك طبقة كبار الأفعال ؛ يليهم صغارهم ، ثم يلي هؤلاء من هم أصغر منهم وهم جريا .

(انظر الإقطاع والعصور الوسطى تأليف كويلاند وترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة صفحة (و - المقدمة) و ص ١٦ .

أغسطس - فترة الحصاد ثم جنى الكروم) فلم يكن يدعى للقتال إلا من يمتلكون أربع وحدات من الأرض (مساحتها من ١٠ إلى ١٥ هكتارا) وفوق هذا لم يكن الرجال يعبثون إلا من المناطق المجاورة لميدان القتال - فكانت الخدمة العسكرية في نفس الوقت بكتائب مثوية كما كانت محلية . أما التعبئة العامة Lautweri فكان يمكن أن تحدث في حالة الغزو . والواقع أنها لم تحدث أبدا .

على أن ملوك أسرة شلمان قد خدعوا في ظنهم إمكان الرجوع إلى النظام الروماني . فإن شبكة الروابط الشخصية هي من القوة ، والنظام هو من النشبت بالتقاليد والعادات ، بحيث أن الذين سيخلفون يبيان سيفكرون - كما فكر من قبل ملوك القوط الغربيين في أسبانيا - في أن يستفيدوا في أواخر عهد الدولة بدرجات الخضوع والامتثال - كل لما فوقه - التي سبق أن أقاموها . وهذا أمر صدر في سنة ٨١٠ يقول : « ليزاول كل رئيس على من دونه تأثيرا قلبيا حتى يطيع هؤلاء . أكثر فأكثر - وبقلب راض - أوامر ومبادئ الامبراطور ، . والزعيم Le Grand - الذي كان قد أصبح يسمى الشريف Seigneur - يأتي إذن إلى المعركة على رأس أتباعه ، وهو الذي يصدر إليهم الأوامر ، ولكنه مسئول أيضاً عن خضوعهم لنداء الامبراطور . ولكي يزيد هذا في جيشه ، يكثر من العطاءات التي تضاعف له الرجال . لذلك يمكن القول أن جنود أسرة شلمان جنود أحرار .

وقد سار انحلال هذه الأسرة جنباً إلى جنب مع زوال الخدمة الإجبارية فإن ، الزعماء ، يظهرون رجالهم المسلحون قد عرقوا سريعا كيف يوجهون ضرباتهم للضعاف من خلفاء شلمان . وستختفي الخدمة الإجبارية لبضع قرون في الغرب . ولكنها لن تعدم أن تترك ذكرى باقية هي : الضريبة ،

فهى إن نسيت منذ عهد أسرة ميروفيج ، سوف تبعث من جديد فى صورة « بدلية heerban ، أى الأناوة المفروضة على هؤلاء الذين يهربون من خدمة السلاح . وسوف تستحيل إلى ضريبة عامة فى عهد فيليب أغسطس .

(ب) من القرن العاشر إلى الثانى عشر مجتمع مسلح : الإقطاع

تأرجحت الأحوال العسكرية إذن حتى القرن العاشر بين نوعين من الجنود : جندى الدولة de l'Etat والجندى الحر privé . إلا أنه منذ الانتصار الثانى كان هذا الانتصار بداية إحدى مراحل تاريخ الانسان ونعنى به عالم الإقطاع .

وبئة هذا العصر تجعل المحارب فى المقام الأول . فأى عصر فولاذى كهذا القرن العاشر الملىء كله بققعة السلاح ، فيه عاشت أوروبا فريسة حروب داخلية وغزوات فى حالة حرب دائمة .

كانت الحروب الداخلية معارك بين الزعماء Les Grands يشغل وطاتها ويطل أمدتها الالتزام بالشار Vendetta . فالحق أن الانتقام الخاص قد اكتسح العصور الوسطى صادرا عن نظام (الفيد Faide) الإقطاعى وهو انتقام الأقارب ، كما جاء فى القانون الجرمانى القديم . فقد تغنى مؤرخو نورمانديا فى القرن الثانى عشر - بلهجة أشعار الملاحم - بهذه « العداوة الخالدة » التى كانت مستعرة بين الجيروا Girois وقبيلة تافاس Les Talvas . ونحن ندرك فى يسر تعكير الصفو الذى لا بد أن يجلبه فى مجتمع كهذا كله مسلح ، الالتزام الأدبى ، بالشار .

وعدا هذا التعكير تزيد الطين بلة غزوات البرابرة الأخيرة ، غزوات

الهنغاريين والنورمانديين والعرب . فمن الشرق والشمال والجنوب ، تدفقت هذه الغزوات تجاه أوربا ، تاركة من خلفها في كل مكان الخراب والدمار .

في هذا الجو من العراك والقتال تتجمد القلوب وتتحجر . فتعجب الحرب لما تثيره من انفعالات قوية ، وما تتطلبه من عنف جسائي . وما أكثر الأغاني من هذا النوع التي تمجد الحرب . كما أن الحرب بالنسبة للشريف أيضا ضرورة اقتصادية . فالقتال معناه الأخذ بنصيب من أسلاب الزعماء المتحاربين ، فضلا عما في ذلك من التأكد من القدرة على امتشاق الحسام ، وما فيه في نفس الوقت من القضاء على حياة الحصون القائمة المملة . إن شن الحرب في نظر رجل القرن العاشر هو الحياة الحقة ، ومن كل هذا ستنشأ حروب الإقطاع - وهي أيضا حروب خاصة .

في هذه البوتقة التي تغلي تنصهر الأطر القديمة ، وينشأ مجتمع جديد تسيطر عليه فكرة المحارب . إلا أن المحارب الممتاز الآن هو ممتطي الجواد . ونظام الرتب العسكرية الذي ينشأ فيه الدليل على تميز الفارس . لقد رأينا بدايات هذا التحول ، إلا أن نهاية التطور هي القرن العاشر . فالفرنجة يقاتلون ركبانا منذ القرن الثامن . ويقول المؤرخ : إنه في معركة سنتال Sintal الفاشلة سنة ٧٨٢ فرت فرق شارلمان التي سحقها السكسونيون بكل ما تستطيع الخيل من سرعة . ولقد اضطر السكسونيون وأهل نورنجه - الذين ظلوا مشاة حتى مطلع القرن العاشر - إلى أن يغيروا طريقهم في الحرب لكي يقفوا في وجه الهنغاريين . كما كان النصر النهائي الذي أحرزه أطن Olton على شواطئ ليخ Lech في ١٠ أغسطس سنة ٩٥٥ خاتمة معركة فرسان فقط .

بل إن النورمانديين أنفسهم - وهم ملاحون من الطراز الأول - قد تحولوا إلى فرسان لكي ينتزعوا الغلبة على العدو . وفي سنة ٨٦٤ حينما تركت كتائبهم سفنها في شارنته ، اندفعت إلى الداخل حتى كليرمون في أوفرني Auvergne واستولت على المكان . وفي نفس الوقت ، ولكي يقاتلوا قبائل بحر الخزر وقبائل بتشينج Pelchenègues وبولوفتس Polovtses الرحل في مراعى الاستبس ، اضطر أمراء فاريج Varègues مؤسسو روسيا الأوكرانية (وعاصمتها كييف Kiev) أن يرفعوا مشاتهم على ظهور الجياد .

في القرن العاشر تتحقق المعادلة : مقاتل = فارس ، حتى إنه في لاتينية هذا العصر كلمة محارب Miles ليس معناها جندي ، بل فارس . والمحارب الراكب يجب أن يكون قادرا - إلى جانب امتلاك دابته - على أن يجهز نفسه كلية . هذا العبء لم يكن يقوى عليه إلا أغنياء الملاك الذين أصبحوا كلهم « أشراف » ، ذلك العصر ، أو الأفصال الذين كانوا يتلقون من سيدهم الأرض اللازمة لتغطية نفقاتهم . فتصبح المعادلة إذن ثلاثية : مقاتل = فارس Cavalier = المنعم عليه Chevalier - والمنعم عليه هو « الفصل » ، الذي يدين بالخدمة العسكرية - هذه الخدمة التي لم تعد تتصور إلا فروسية .

ومن ناحية أخرى فإنه في هذا القرن الذي أصبحت فيه الحرب شيئا عاديا ، نجد أن هذا الفصل المنعم عليه يمثل القوة بأجلى معانيها . إذ ترتبط فكرة التفوق بهذه الحالة الاجتماعية ، فتنشأ المعارك كثر تركيها : مقاتل = فارس = منعم عليه = أحد النبلاء . فالمقطع أرضا نظير قيامه بالتزامه الخدمة العسكرية كفارس لن يلبث أن يشتهر بالنبالة والشرف .

بل إن طريقة هذا التطور ذاتها تصور ما حفلة الكسوة Adoubement

التي هي بمثابة تعميم المحارب ورسامته والتي مازالت مثقلة بالسحر ، كالضرب باليد الذي ينشئ الصلة بين الكاسي والمكتسي . هؤلاء إذن هم خلف أولئك الجرمان أو الفرنجة والرومان الذين كان كلهم من الناحية النظرية جنوداً - وقد قنعوا بأن تتكون منهم جماعة مقفلة من المدربين ؛ هم الذين يدعون وحدهم إلى حمل السلاح . إن الفرومية تبدو بهذا وكأنها آخر مرحلة من مراحل التطور التي استبدلت تدريجياً ببجدي الدولة المحاربين المحترفين .

ونظام الأفضال Vassalité هذا الذي هو أساس المجتمع الجديد هو ارتباط شخصي بين رجل ورجل - فهو يبدو بطبيعته راجعاً إلى الزمالة الجرمانية Compagnonnage . إلا أنه عند انحلال دولة الفرنجة بعد حكم الميروفنج تزد القيمة النسبية للمحارب ، ويبقى لفظ « فصل » الذي كثيراً ما تدنس بطابع الدناءة في أصوله - ليدل على الصورة التي لاتدانيها صورة في تبعية الرجل للرجل ؛ تلك التبعية subordination التي قوامها أن يخدم بأحسن الأسلحة وأرقاها السيد الذي أعطاه « كله شرف » ، أن يكون في خدمته .

فالفصالة ذات أساس حربي . والقوانين اللاتينية في القرن التاسع تذكر في غير تمييز كلمات vassus و vassalus و miles . والنصوص الفرنسية ذاتها منذ أول ظهورها ستترجم الكلمات الثلاث بلفظ المنعم عليه أو المقطع أرضاً نظير تعهده بالخدمة العسكرية Chevalier . والعلاقة بين « الفصل » و « المولى » suzerain تنشأ من الاعتراف بالأيادي هذا الاعتراف الذي يستتبع واجبات محددة . ففي البدء عندما كانت الفصالة لاتزال مطبوعة بطابعها كعمل حر كان التابع يقسم الميّن على أن « يخدم » المولى في كل ما يعهد به إليه من مهام . إلا

أنه كلما ارتفعت مرتبة « الفصل » ، في درجات السلم الاجتماعي لا يستطيع بعد أن يعترف بما يمكن أن يكون في نظره عبودية .

فلاستعانة بالأفصال إذن سوف يجرى قصرها على عدد بعينه من الواجبات: المعونة المالية لافتداء المولى إذا أخذ ولتسليح ابنه الأكبر بالانعام عليه أو تزويج ابنته الكبرى . عدا مساعدة ولي النعم في مجالس بلاطه التي كانت في نفس الوقت محاكم ومجالس سياسية . وأولا وقبل كل شيء - المعونة الحربية . وعلى الفصل أن يقوم بنفسه بالخدمة كفارس ، وبكامل معداته الحربية . وفوق هذا يجب أن يقوم بالحراسة في قصر المولى خلال وقت معين .

وفي مقابل هذا للفصل على ولي النعم الحماية والعطاء . خصوصاً العطاء الجزيل الذي يتمثل في أرض يحوزها بما يسمح بتغطية نفقات خدمته والتي تسمى الإقطاعية ، هذه إذن هي - كبداً - مكافأة المنعم عليه ، وهي أيضاً صميم النظام الإقطاعي .

إلا أن توسع نظام الإقطاع سوف يؤدي إلى تطور شامل . فالأرض أقل سيولة بكثير من النقود . وقد هلك ملوك أسرة شارلمان لما وزعوا أراضيهم كي يجعلوا منها إقطاعات ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى الأفصال المنعم عليهم . وهذا ما فعله الكثيرون غيرهم من أرباب النعم ، فهم لكي يزدوا من قواتهم المؤقتة يخربون بيوتهم ويحطمون مستقبلهم . ومن ناحية أخرى ، ففي قرون كهذه حيث الاقتصاد الطبيعي هو السائد ، الأرض هي المصدر الوحيد تقريباً للثروات والقوة ، ولن يكون للفصل من رغبة إلا أن ينقل إقطاعيته إلى ورثته . إلا أنه بتوارث الإقطاعية يتزايد استقلال « الفصل » ، وتقوده ، وإذا ما أصبح نبيلاً ، بل وأحياناً نبيلاً قوياً جداً ، فإنه تكون له - حتى إذا صرفنا النظر عن البلانتيجنية Les Plantagenets أفصال ملوك

فرنسا من الطبقة الثالثة (الكابتيان Les Capetians) - نقول : تكون له حريات يواجه بها التزامات موقفه ، وأخصها بالذكر استبداله بالقيام بالخدمة العسكرية دفع مبلغ من النقود ! أليست مسألة الاستبدال هذه شيئاً لا مفر منه إذا كانت الأرض مقطعة لهيئة من الهيئات الديرية ؟

وهكذا في حوالي القرن الثاني عشر تتكاثر ، ضريبة المعسكر ، أو ، ثمن خدمة الميدان ، Taille de l'ost التي ليست إلا ثمن الافتداء من الإلتزامات الحربية . وهذه نقطة البداية في تطور سوف يجعل من ، الفصل ، محترفاً أو مرتزقاً وسوف تستفيد الملكية المطلقة من هذا الوضع ، إذ أنها سوف ترى فيه ظرفاً مناسباً لإرجاع مبدأ الخدمة العسكرية العامة - عند تعقد العلاقات بين الرجل والرجل .

٢ - جيوش الدور الأول من العصر الوسيط

إن التطور الذي أنبأنا على بحثه ليس صحيحاً بالنسبة لجميع البلاد ، كما أنه لا يحمل حتى في مجموع البلاد ذاتها التي عرفت طابع التعاصر الزمني . ففي جميع فترات الدور الأول من العصر الوسيط قد وجدت جنباً إلى جنب ، الجيوش الوطنية ، للشعوب المسلحة من الفرنجة والهنغارين والنورمانديين ، و جيوش إمبراطوريات ، شارلمان ، والعرب ، والبيزنطيين ، وهي الجيوش الإقطاعية بالمعنى الصحيح .

(١) الجيوش الوطنية :

إن كل رجل حر لدى الفرنجة فهو جندي . ونواة الجيش إنما تتمثل في العصابات ، التي تتجمع حول ، الزعماء . . وقوة جيش ملك مثل تورناي

Tournai هي التي جعلت منه ملك الفرنجة ، كلوفيس . يضاف إلى هؤلاء المحاربون الألمان ، هذا بينما الدفاع عن الحدود الشرقية ضد السلاف يتولاه السكسون وقبائل ثورنجه .

وقلب الجيش إنما يتكون من المشاة - وآخر المشاة الممتازين هم رجال الدور الأول من العصر الوسيط . وسلاحهم السيف والحراب angon ذات الطرف المنحني على شكل كاشة ، وبلطة الفرنجة التي كان يمكن استعمالها سلاح رمي . والزعماء وحدهم هم الذين يحملون الرماح . أما أسلحة الدفاع فمختصرة : الخوذة نادرة . والجزء الأكبر من الجسم مكشوف ، يحميه المجن فقط . والفرسان عددهم قليل وغالباً ما كان الزعماء وحدهم هم الذين يقاتلون راكبين .

وقد بقي « تكتيك » الفرنجة أولاً . فالجيش ينتظم في صفوف عميقة تحمل على العدو « بخطوة سريعة » ، رامية العدد بالمزاريق وبلط الفرنجة المستديرة أو الحربة ثم تتحول المعركة إلى سلسلة من الاشتباكات الفردية . والأرقام دائماً متواضعة ، لأنهم إنما كانوا يهيئون بالرجال من المناطق المجاورة لميدان العملية الحربية المستقبل . ويأتي الرجال يقودهم الكونت الذي قام في كل بلد بتعبئة رجاله . وفي النصف الثاني من القرن السادس ، نرى الدوق يستند إلى عدة كونتات Comtes . ولقد كانت أقوى جيوش المورفيج بلاشك هي الجيوش التي قامت بحملات إيطاليا ، ولا يبدو أنها قد تجاوزت عشرة آلاف رجل لأنه كان من الصعب في ذلك العهد تنظيم إمداد كتل بشرية كبيرة .

ولقد كانت قيمة الآلة الحربية المخترعة حينئذ يبدو أنها نافهة . لجيوش الفرنجة كانت غير منتظمة ، كما كانت كثيرة السلب مثيرة للخوف والرعب

فقد لقن جريجوار دى تور زعماء هذا الرد على الملك كونتران Contran الذى كان ينهى عليهم فشل حملة سبتمانيا (٥٨٦) : « لا أحد يخشى الملك ، ولا أحد يحترم الدوق أو الكونت ، وإذا أراد أحد أن يوجه اللوم أو يعاقب لمصلحة الملك ، فالتمرد والخصيان فى الحال ، وبداية الانتفاض ، والانقلاب على الرؤساء بنوازع تهديدية يضطرون معها إلى الفرار لينجوا من شرهم . أما الهنغاريون فيمثلون نموذج « الشعب المسلح » بالذات . فعلى ظهور الجياد تنقضى حياة كافة الرجال الأحرار . كما ظن بقبائل الهون (الهياطلة Huns) قديماً أنهم « كأنما ولدوا على صهواتها » . فهم إنما تكونهم الحرب بحكم نوع الحياة ذاتها التى يحيونها . ولما كانوا فرساناً محنكين ، فهم يستعملون تكتيك الكر والفر الأسوى الخالد . وسلاحهم الرئيسى القوس . ولكى يتجنبوا مواجهة الجيوش المنظمة - التى غلبوها مع هذا مرات عديدة - كانوا ينفذون بسرعة إلى داخل البلاد مندفعين فى وادى الرون بفاريا وسهل البو بعد أن تتدفق خلال سلسلة جبال الألب .

كانوا ينقضون إذن على القرى والأديرة ، فيسلبون ويحرقون ويأخذون أسرى يختارونهم بعناية من بين الشباب والأطفال ينما يعملون فى بقية الشعب حد الحسام . ومع هذا فانهم - إذا إقتضى الأمر - كانوا تحت ضربات السياط من جانب زعمائهم - يجابهون المعارك ، حيث يبدون مقاتلين يخشى بأسهم . ولما كانت لهم جاسوسيتهم التى تحسن إرشادهم ، فقد كانوا يحاولون أن يباغتوا جيش العدو ، ويسحقوه تحت وابل من سهامهم ثم يفرون بأسرع ما تستطيع جيادهم . لقد كانوا يعرفون كيف يقومون بهجوم جانبي ، وكانوا ذوى بأس فى تتبع العدو ، وموهوبين جداً فى الانسحاب من المواقف الدقيقة ، قادرين على عبور الأنهار فى مراكب من الجلود أو الخشب . وقلما كانوا يهاجمون الحصون ، لأنهم فى بداية غزواتهم قد أخفقوا أمام كيف ولم يستولوا قط على مدينة هامة فيما عدا بافيا .

ولقد كان انتظامهم من الناحية الاجتماعية في عشائر فقبايل وقرى أساس
نظم الجيش . ومنذ أن أقاموا في شمال البحر الأسود ، اختار زعماء القرى
« سيداً عظيماً ، grand seigneur (لقب أعطاه له مؤرخو الشرق والغرب)
هو المعروف باسم أرباد Arpad الذي فرضت أسرته نفوذها في النصف الثاني
من القرن العاشر . وفي سنة ١٠٠١ أصبح الأربادى فايك Vaik (الذى
عمدوه باسم اتيين Etienne) أول ملك لهنگاريا .

وأرقام الجيش الهنگارى غير معروفة . وتكثر المصادر اللاتينية من عدد
العدو الذى كانوا ينزلون في قلبه الرعب ، ففي معركة ليخ Lech (١٠ أغسطس
سنة ١٩٥٥) التى هى مع هذا نهاية غزواتهم الكبرى ؛ لابد أنهم لم يزيدوا على
خمسة آلاف ، وجدير بالذكر مع هذا أن عصاباتهم كانت تتضخم أحيانا بما
ينضم إليها من عناصر أجنبية . ففي سنة ٩١٥ انضم التشيك بقيادة الدوق
بوليسلاف Boleslav إلى الهنگاريين وعبروا جبال فشتل Fichtelgebirge حيث
نشروا الرعب في ثورنجه وصواب وسكسونيا .

ولم يعرف النورمانديون أول الأدر إلا على أنهم رجال البحر . وكانت
سفنهم مراكب غير بيضاوية يبلغ طولها أكثر من عشرين متراً ، يمكن
تحريكها بالمجداف أو الشراع وتحمل في المتوسط من أربعين إلى ستين مقاتلاً .
وكان عليها أن تستعمل سرعتها في غير عناء إلى حوالى عشر عقد . وكان معدل
غوصها في الماء الذى لا يكاد يصل إلى متر واحد يسمح لها باجتياز الأنهار ،
ولاشك أن كل الرجال الذين كانت تحملهم هذه المراكب ملاحون محنكون
ومع ذلك فلانعدام الملاحين من الأعداء كلية في الغرب ؛ كانت المعارك
لا تقع إلا على البر .

ففى كل ربيع يتركون أراضي الضباب من بلادهم في الشمال - وفيما بعد

أو كارهم الساحلية- تحت قيادة زعماء يختارونهم بحرية تامة . ولم تكن أرقامهم قط كبيرة جداً . ففي سنة ٨٤٥ صعدوا نهر السين بمائة وعشرين سفينة ، وفي ٨٦١ بمائتين . فإذا أدخلنا في حسابنا الأشخاص اللازمين لحراسة الأسطول ، كنا بإزاء جيوش من ستة آلاف إلى عشرة آلاف على أكثر تقدير ، وهو ما يفسر فشلهم أمام باريس ذلك الحين ، المدينة الصغيرة التي لم تتجاوز الجزيرة Cite والتي لم تزد مساحتها حينئذ على ٩ هكتارات . ومع هذا فلتفوقهم على الهنغارين في البحرية كانوا يعرفون كيف يهاجمون القلاع والحصون ، فكلونيا ، وروين Rouen ، ونانت ، وأورليان ، وبوردو ، ولندن ، ويورك ، حتى قبل نهاية القرن التاسع ، قد سقطت أمام القوة الهائلة أو أسقطت على حين غرة .

وكان غرض غاراتهم انزوي ، وخطتهم في ذلك (تكتيكهم) هي خطة الوعول والضياء: أن يهاجموا دون أن يهاجموا ، ويتربوا فريستهم بصبر ، ثم يندفعوا على حين غفلة ويقضوا عليها بضربة واحدة . وهكذا كانوا يختارون بعناية دائماً نقطة البدء التي يتخذونها قاعدة يقيمون عليها معسكرهم الحصين ، وفي البدء كانوا يقاتلون راجلين فحسب ، ومحتمين لاشك احتواء القنفذ ، على عادة قدماء الجرمان ، لكي يقاوموا فرسان الفرنجة ، ثم استعملوا الحصان في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع ، للتنقل أولاً ، ثم للقتال بعد ذلك .

هذا التكتيك الذي يلائم نوع سلاحهم (السيف المستقيم والبلطة الطويلة) هو الذي أكسبهم جدارتهم الحربية ، إلا أن بأسهم كان شديداً أيضاً لأنهم محاربون بإيمان وبأخلاقية سامية . هؤلاء النورمانديون الذين دوخوا شعوب أوروبا الزراعية كانوا مغامرين قد تركوا ديارهم وراء النار وهجرة الضنك . لقد كانت الحرب بالنسبة لهم أكل العيش ، لهذا رأيناهم

يصبحون مرتزقة ، وفي مطلع القرن التاسع استخدم ملك انجلترا إيثلرد Aethelred الدانيمركيين لكي يجمع بهم إخوانهم في الجند ، فلما خاب أمه فيهم وظهر عدم ولائهم قتلهم جميعاً في يوم سان بريس (١٣ نوفمبر ١٠٠٢).

(ب) جيوش الامبراطوريات

بها تقوم حلقة الاتصال بين العالم القديم والعصر الوسيط . وطابع هذه الجيوش معروف لدينا : ففي المجتمع الذي يقوى فيه الشعور بالدولة ، يقع عبء الخدمة العسكرية الإجبارية على الجميع ، أما حيث تتسع الإمبراطوريات وتظهر ضرورة التسليح أو بالأحرى رغبة الرئيس في أن تكون تحت يده أداة القوة - التي هي الجيش - فإن الإجبار على الخدمة هذا يقتصر على جزء فقط من الرعايا .

إن ملوك أسرة شارلمان - وقد زهدوا في المشاة - قد وضعوا القواعد الدقيقة لاختيار الفرسان ، فالفرس والسائس الذي يتبعه (والذي كان هو أيضاً راکباً) وتسليحهما الكامل ... كل ذلك لم يكن يطالب به إلا الذين يملكون اثنتي عشرة قطعة من الأرض (من ١٢٠ إلى ١٨٠ هكتاراً) أما الآخرون فحسبهم دفع معونة يقدمونها للكونت ، وكان لابد من نصاب أربع إلى خمس قطع من الأرض (٤٠ إلى ٦٠ هكتاراً) لكي يقبل من المرء أن يخدم بنفسه في الفرسان . في مثل هذه الظروف ، وإذا قدرنا استحالة جمع الرجال البعيدين جداً عن مسرح العملية الحربية ، لا عجب أن نجد الإحصاءات التي تقررت ضعيفة جداً . فقد قدر فرديناند لوت F. Lot أن مجموع إمبراطورية شارلمان لا يمكن أنها كانت تقوم في الواقع إلا على أقل قليلاً من خمسة آلاف فارس ثقيل ، وتفكك الإمبراطورية بعد شارلمان هو الذي يفسر عجز الفرنجة عن مواجهة الجيوش النورماندية ، إذ كانت في

معظم الأوقات أول من هذا العدد بكثير . ألسنا نرى أنه في معركة بريسارت
Brissarthe (في سبتمبر ٨٦٦) قد هزم مركز نوستريا Neustrie روبر
ليفوز R.Le Fort وكونتا پوانو Poitou و مين Maine أمام جيش من أربع مائة
فارس نورماندى ؟

والنسلح قوامه الرمح الطويل الذى يمكن استخدامه سلاح رمى . والسيف
الطويل جداً المعلق فى غمده ابتغاء الوقاية ، والمجن المثلث الشكل والخوذة
المشهورة باسم heaume المخروطية الشكل والتي لاحواف لها ، ودرعهم المشهور
أيضا باسم broigne والذي هو سترة مقواة بحلقات وقطع من المعدن ، أو
- فى الأيام الأخيرة - العباءة المقواة بهذه القطع ، أما المشاة - الذين لا يقومون
بحرب منتظمة - فليس لهم من سلاح إلا الرمح والقوس .

والجيش الذى هكذا تكوينه قيمته عادية ، وكثيراً ما كان الناس يعفون
أنفسهم من الاستجابة لنداء الامبراطور مفضلين عليها دفع الغرامة (البديلة
Pherban) حتى لا يقاتلوا ، لقد حارب شارلمان طول حياته ، فشن الغارات
فى بلاد السكسون والسلاف والمغرب وبريطانيا ، وحاصر بعض القلاع
ولكن لا معركة أبداً تقريباً ، والحقيقة أنه قضى ثلاثين سنة حتى أخضع
بلاد السكسون على صغرها - علماً بأن (جيوش الفرنجة لم تكن تقدر بكثير
وأن قائدها لم يكن فيه من كبار القوادىء) كما يقول لوت .

وظهر الإسلام (١) فى القرن السابع كأول قوة حربية فى ذلك العصر ،
انحنت أمامها امبراطورية الروم Byzance التى كان قد دعمها هرقل . وجيش
العرب هو قبل كل شيء جيش فرسان - ومع هذا وخلافاً للفكرة الشائعة ،

(١) أنظر فى الجيوش الاسلامية التمليق المنعق بهذا الفصل .

ليس العرب متفوقين في فن الركوب . حقا إنهم عرفوا حدود الخيل، والسرّج العالي ، والركاب ، إلا أنهم لا يحسنون كبح جماحها ، ولهذا يكثر استعمال المهماز . وسلاحهم بسيط : الرمح ، والقوس ، والمجن المستدير ، والخوذة ، والزرّد .

وفي البدء كان الجيش يتكون في أساسه من قبائل البدو - وهما السلب والمغامرة ، وقد أكمل فيما بعد على أيام دولة العباسيين نقص العدد الظاهر في هذه الجيوش برجال من الأكراد والترك ، وهي عناصر مرتزقة أغدق عليها أمراء العرب العطاء ، وكذلك فإن المشاة تظاهرها الخيالة كانت تتكون من أثيوبيين مسلحين بالقسي فحسب وقد وضعوا أنفسهم في خدمة الخليفة ، ورغم هذا المدد لم تكن الجيوش العربية قط كبيرة العدد جداً ففى ، ١٠ ديسمبر ٦٣٩ قام عمرو بغزو مصر بأقل من أربعة آلاف رجل .

وعلى أثر ذلك ، وحين توقف الغزو ، لم يصبح العرب إلا أقلية ضئيلة العدد وسط الشعوب التي أخضعوها ، فلما بقي الخليفة عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) على سياسة التألف قرر أن يترك الإدارات القائمة في هذه البلاد كما هي ، وأن يقتصر على الإبقاء عليها في ظل الاحتلال العسكري ، فكانت الأقاليم تحكم بقواد استطاعوا أن ينشئوا حقاً مدناً حصينة يستطيعون أن يتحسبوا بها تفرق القوات كالكوفة والبصرة في العراق ثم القسطنطينية في مصر .

هذا الجيش الذي تحول إلى جيش إمبراطورى - إنما نعرفه في القرنين التاسع والعاشر من المراجع البيزنطية ، فهو لاء يصفون لنا الفرق العربية التي نجد فيها الخيل جنباً إلى جنب مع جمال النقل تعلوها البنود والأعلام . وخلال المعركة يثير العرب هذه الحيوانات بقرع الطبول ودقات الدفوف

ثم يلتزمون في مربع طويل ويهجمون على العدو - بعد أن يكون المشاة
الاثيوبيون قد أرسلوا وإبلا من سهامهم .

والمحاربون العرب جنود أشداء لا يخشون البرد أو المطر ، إلا أنه كان
يحركهم أولاً وقبل كل شيء الإيمان بالدين . ألم يبشر محمد (صلى الله عليه وسلم)
بالجنة كل مؤمن يستشهد في سبيل الله ؟ أليس هو النبي الذي جعل
الجهاد في سبيل الله ، فرضاً على كل مسلم ؟ فالعقيدة الدينية - التي لها في
النفوس المقام الأول - أولى من القوة الحربية - هي التي تفسر الفتوحات
الخارقة للعادة التي قام بها المسلمون .

وفي بيزنطة إنما نجد التراث الروماني ، فتنظيم الجيش الجديد على يد
الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) يفسر إلى حد كبير ما أصاب هرقل
(٦١٠ - ٦٤١) من نجاح ، ففي عهد هذا الرئيس تلمع الأسلحة الرومانية
للمرة الأخيرة .

ومن الناحية النظرية يظل الالتزام بالخدمة العسكرية فرضاً على كل مواطن
حتى سن الأربعين ، أما في الواقع ، فإن المشتغلين من المتطوعين فيهم ما يكفي
وزيادة لأن الجندي يتقاضى راتباً من الذهب - وهو ما لم يكن معروفاً في الغرب
حتى ذلك الحين ، وفوق هذا فهو يطعم ويكسى ، والتسلح وحده هو الذي يجب
عليه أن يقوم به : الراجل من المشاة رجاء ، والراكب من الفرسان
جواده .

ويشمل الجيش عناصر ثلاثة : الفرق العادية (asthene) وهم الأغلبية
ويكونون المشاة الخفيفة ، والفرق الممتازة ، خصوصاً المتطوعون
(Buccellaires) والجنود الأحرار من المشاة الثقيلة أو الفرسان ، ثم جنود
الحلفاء (ethnikoi) الذين تقدمهم الشعوب التابعة والذين منهم تكون الفرق

المتخصصة (رماة سهام... الخ) والذين يظنون منتظمين تحت قيادة رئيسهم الوطني.

وقوة الجيش إنما تقوم في فرسانه ، وقد أخذوا عن الآسيويين منذ القرن الرابع حدود الخيل ، والسرّج العالي والركاب . فبعباؤه الطويلة التي تتدلى حتى أخمص قدميه ، وخوذته المعدنية وغطاءى الركبة والساق وقفازيه يبشر الفارس البيزنطى فى القرن السادس بفارس الاقطاع فى القرن الثالث عشر . وهو يحمل من أسلحة الدفاع القوس والرمح . أما المشاة النقال فمعهم الدرع والمجن الطويل يحتمون بهما ، والسيف القصير وخصوصاً القوس كأسلحة هجوم . وليس للمشاة الخفاف إلا القوس والمقلع .

وإلى جانب هذا توجد المدفعية - نواة عصب الجيش - التي سوف تصبح بعد بضع سنين ذات شهرة واسعة عن طريق استعمالها النار اليونانية feu gregeois التي اخترعها السورى كالينيكوس Callinikos . وقد أسماها البيزنطيون النار البحرية ، pur tha-lassion إذ يقذف المنجنيق أرضاً أنبوبة مخروطية الشكل ، تحتوى خليطاً من الفط والكبريت والراتنج كقيلة بأن تشتعل حتى فى الماء . هذا عدا فرق المهندسين يتبعهم الحمارون بالبلط وملاحو النقل على المراكب ، وقسم الامداد المنظم جداً ، وسلسلة تجهيزات حقيقية toulidon ووحدة خدمات صحية ، وأخيراً فرقة إرشاد . كل هذا سوف يجعل لهذا الجيش طابعاً من التنظيم الراقى .

وكانت درجات الجيش ورتبه رشيدة كذلك . فوحدة الإدارة والتكتيك هي الطاقم tagma للفرسان والعد arithmos للمشاة فى حدود ثلاثمائة رجل ومائتين وخمسين رجلاً على الترتيب . والرئيس يسمى الارخون L'arkhon أو التريبون tribun . وثلاثة أطقم يكونون الموارة moira . وثلاثة من

هذا يكونون الميروس meros . وثلاثة من الميروس تؤلف جيشاً قوياً Stratos من تسعة إلى عشرة آلاف رجل يرأسه القائد Stratège . فالجيش الكامل فرساناً ومشاة يضم إذن ١٨ ألف رجل . وكان للامبراطورية من هذا النوع جيشان : واحد في أوروبا والآخر في آسيا ، تضاف إليها قوات الاحتلال في إفريقيا وإيطاليا . هذه هي الإحصاءات النظرية التي تمثل الحد الأقصى . والواقع أن القائد بليزارىوس (Belisaire) قد أعاد غزو إفريقيا بخمسة عشر ألف رجل منهم تسعة آلاف من الفرسان . ولم يستطع أحد ملوك أوروبا ، فيما قبل القرن السادس عشر أن يتقدم إلى الميدان بمثل هذا العدد من الفرسان .

٣ - جيوش الإقطاع :

رأينا فيما مضى كيف نشأت هذه الجيوش . وعلينا أن نتناولها الآن في القرن العاشر أو الحادى عشر لى تبين نظامها وأرقامها وخططها الحربية . فجيوش الإقطاع هى فى أساسها جيوش خيالة ، إذ أن الدور الأول - الذى يفوق كل ما عداه تقريباً - سيظل يقوم به باستمرار حتى منتصف القرن الرابع عشر المحارب على حصان (الفارس) .

ومع هذا فالمشاة باقية ، لكنها لا تقوم إلا بدور ثانوى ، دور مظاهره الفرسان . وسوف يحرم عليها القيام بأية عمليات أثناء المعركة حتى القرن الخامس عشر . وفضلاً عن هذا فأى احتقار لهؤلاء الراجلين أشد من احتقار المتطين صهوة الجياد ، المزينين رؤوسهم بالخوذات الجميلة المزودة بوقاء الأنف ، والمغطاة جسومهم بالدثار (العباءة الطويلة تتدلى إلى أسفل الركبة) سلاحهم السيف الطويل المستقيم والرمح الثقيل (الذى يبلغ طوله مترين ونصفاً أو ثلاثة أمتار) والذى يشد إلى الركاب بحركة فيها كثير من العظمة ؟

وكل فارس يتبعه سائس أو اثنان على ظهر الخيل الاحتياطي . لمساعدته على الركوب نظراً إلى ثقل عتاده الكبير ، وليكونوا عوناً له أثناء المعركة .

فبالنظر إلى هؤلاء الرجال النبلاء ، ، كانت قيمة المشاة *Les pedones* قليلة ، ومع هذا فقد وجدوا دائماً . وهم فلاحون عظام من أراضي الشريف ، ثم فيما بعد أهل المدن *les bourgeois* من الأقاليم . وتسليحهم بدائي يثير الضحك : الرمح والبلطة ، والمقلع والمنجل . ومكاثهم الحرية - كما أظهر كفاحهم ضد النورماندين - تافهة ؛ حتى أنه ابتداء من القرن الثاني عشر تصبح الخدمة الإجبارية هؤلاء المجندين محدودة بيوم الجمع للجهاد ، فلا يستخدم هؤلاء الجنود القرويون إلا في عمليات البوليس المحلي ، وهذا هو أصل الفرق المحلية التي سوف تكف عن الوجود منذ ما بعد حكم لويس الثاني عشر . إن المشاة لتختفي حتى حرب المائة عام .

والرتب العسكرية تختلط حينئذ بمراتب المجتمع الإقطاعي . فالزعيم *Suzerain* يأتي إلى الجيش محاطاً برجاله ، ، هؤلاء يلتفون حول رايته ، وهو يأمرهم . إلا أن انتشار نظام الأوصال ، يؤدي إلى درجات من الخضوع بعضها فوق بعض مما يثير بدوره مشكلة خطيرة . فباستثناء الدرجتين المتطرفتين من السلم ، الملك وهو الزعيم الأعلى ؛ ثم الجندي العادي *vassus vassalorum* الذي ليس تحت إمرته محارب آخر أدنى منه ، كل الدرجات الوسطى في نفس الوقت زعماء وأوصال ؛ سادة وأتباع . والقسم يمين الإقطاع يلزمهم بأن يكونوا عوناً لزعمائهم بكل ماله من قوة ، . فهل كان يصحب كل منهم إذن إلى « ساحة » سيده الشريف كل ماله من رجال ؟ لا مطلقاً ، وإلا لكان العبء ثقيلاً جداً . ويأتي العرف هنا ليصح القانون - وهو عرف ليس مع هذا مكتوباً : إن كلا من الزعماء لا يأتي منه إلا بعدد محدود من تابعيه يسرى تحديده ذات

مرة على جميع المرات ويذكر مارك بلوخ M. Bloch مثال أسقف باييه Bayeux في آخر القرن الحادى عشر الذى كان يدين له بعض الزعماء المنعم عليهم بخدمة الحرب - أما هو فلم يكن يدين لرئيسه المباشر - الأشراف - دوق نورماندى - إلا بعشرين رجلا مسلحين ، وأخيرا فإنه إذا طلب الدوق معونته للملك - الذى يعد الدوق نفسه من أفضاله - فلن يقدم الأسقف إلا عشرة رجال . فنحن هنا يازاء تضاؤل فى الخدمة الإجبارية يزيد كلما ارتفعنا ، وهذا هو السبب الأكبر لقلّة أرقام جيوش الإقطاع .

فالحق أن هذه الجيوش لم تكن قط كبيرة العدد . واقدر تفاوتت الأرقام فى الحروب الخاصة تفاوتا لا حد له ، ولكنها ظلت دائما ضعيفة ، ولا تتجاوز حدود المئات . وأكبر الجيوش تكويننا من رجال الإقطاع وخدم - إذا استثنينا الفرق التى كان يعبثها الملك للدفاع عن حقوق الملكية - هو جيش الحرب الصليبية الأولى . وقد ثار الجدل طويلا حول أرقام هذه الأخيرة . فوصل لوت F. Lot إلى نتائج متواضعة بالنسبة لتقديرات المؤرخين الآخرين المبالغ فيها كثيرا . ففي معركة أنطاكية وعسقلان تراوح عدد الفرسان المقاتلين بين خمسمائة وألف ومائتين - أما عدد المشاة فيصل إلى تسعة آلاف . وفى القسطنطينية كان يمكن أن يصل عدد الجيوش الأربعة فى الحرب الصليبية الأولى على الأكثر إلى ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ فارس وعشرة آلاف راجل .

وكيف كان يمكن تجاوز هذه الأرقام حيثئذ ، ودوق نورمانديا الذى هو أغنى وأقوى رؤساء الحرب الصليبية لا يملك فى بلاده أكثر من ستمائة فارس ؟ ثم إن المال قد شح ، لأن أحدا من ملوك الغرب لم يساهم فى نفقات الحرب الصليبية . وهكذا رهن روبرت كورت هيز R - Courte - Heuse إقطاعيته فى نورمانديا نظير عشرة آلاف مارك ، بينما باع جودفروى دى بويون G. de Bouillon أملاكه الكنيسة رنس Reims .

كذلك فإن جنود الفرنجة الذين وكل إليهم أمر الدفاع عن ملك بيت المقدس وإمارات المقاطعات قد بدوا من الضعف بصورة تدعو للعجب . ففي سنة ١١٦٧ عندما هاجم شيركوه مصر ، اقتفى الملك أموري أثره بثلاثمائة وأربعة وسبعين فارساً عدا الفرسان من الوطنيين ، وفي معركة موبجيزار Mongisard (٢٥ نوفمبر سنة ١١٧٧ التي تعد أكبر انتصارات الفرنجة) كان تحت يد الملك الأبرص الصغير بودوان Boudoin خمسمائة فارس يشد أزهم ثمانون من فرسان المعبد (الداوية) . فضعف الأرقام إنما هو السبب الأساسي في فشل الفرنجة في الشرق .

وتكتيك جيوش الإقطاع يسير جداً . والحرب الصليبية الأولى تقدم لنا منه أمثلة معروفة . فالمجاهدون عموماً يسعون دائماً إلى الهجوم ، وفعل الفرسان لا بد أن يكون سريعاً ، والمعارك إذن قصيرة . ومعركة مرج الصفر (١) هي وحدها التي استمرت من الساعة التاسعة صباحاً حتى حلول الليل . فالجنود ينتظمون صفوفاً بأمر من ساداتهم الأشراف ، ويختار قائد أعلى لكل معركة . إلا أن خطة العملية إنما يرسمها مجلس الأمراء .

والجيش مقسم إلى عدد بعينه من الفرق : من خمس إلى تسع حسب مختلف المعارك . وعدد رجال هذه الأقسام الفرعية مختلف أيضاً ، فهو ١١٦ رجلاً في معركة انطاكية و ١٣٣ في عسقلان و ١٤٠ في الرملة (١١٠٥) . فهي تتجمع في ثلاث كتل متدرجة كالسلم وتتقدم كل منها في صفين وتتابع هجمات الفرسان بنظام كلما وجه إليها الأمر من القيادة — أمر ، خافت ،

(١) مرج الصفر معركة دارت بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون والتتار قرب دمشق (١٢٤٣ م) هزم فيها التتار للمرة الرابعة. وصدتهم الجيوش المصرية عن وادي النيل (المراجع)

نوعاً - ثم ينتهى الهجوم بسلسلة من معارك الجماعات الصغيرة فضلاً عن المعارك الفردية .

وإذا كانت الكتلتان الأوليان تقومان بالهجوم على جهة القتال ، فإن الكتلة الثالثة كانت تبقى تحت أمر الرئيس الأعلى ليستخدما في القيام بحركة التطويق ولتصد هجمات العدو المقابلة أو تقتفى أثره . وتقوم المشاة عموماً بدور سلبي : فهي لا تتحرك ، بل تلتزم صفوفاً أمام الفرسان ، وحسبها أن تخطر العدو بوابل من سهامها في بداية المعركة . وفي حالة فشل الفرسان ، تفتح المشاة صفوفها ثم تقوى جبهتها ، وإذا تكبح جماع العدو بقذائفها فهي تسمح للراكين (الفرسان) أن يصلحوا من شأنهم قبل أن يعاودوا الكرة . ومع هذا فإنه يجدر بالذكر الإشارة إلى تقدم بعينه للمشاة في ميدان الشرق الأدنى هذا : فهي تقوم أكثر فأكثر بدور الظهير في عمليات الفرسان .

وفي الغرب - كما في سوريا - ظلت المعركة المنظمة استثناء حتى القرن الثاني عشر . وإنما يقوم جوهر حروب الإقطاع في عمليات حصار القلاع أو الحصون . ففي فوضى العصور الأخيرة للامبراطورية السفلى ، قد أحاطت المدن Cités نفسها بمتاريس ليست مع هذا كافية لصد هجمات البرابرة ، وبعد كلوفيس سقطت الأسوار الرومانية أنقاضاً . وما أحرز النورمانديون من نجاح إنما يرجع في جانب منه إلى هذا الوضع للأمور . ثم إن الأسوار تبنى من جديد منذ عهد شارل لوشوف Charles le Chauve فكافة مدائن القرن العاشر لها متاريس . إلا أن هذه المدائن قليلة العدد - ومتباعدة وصغيرة .

وكل اقطاعية شريف في حاجة إلى قلعة خاصة ، والأصل أن تكون مخبأ في حالة خطر الغزو ، ثم أصبحت بالتالي تجسباً لقوة الشريف . وكانت

الحصون أول الأمر من خشب ، فلما صارت هكذا صالحة لاثام النيران استبدلت بالحصون الخشبية هذه منذ القرن الحادى عشر مباني من الصخر . وفى فلسطين كما فى فرنسا كان دورها عظيما . فحصون الأورونت Oronte هى حصون الفرنجة على الشاطئ . كما أن قلعة جايار Chateau Gaillard أعلى الأنداليز Andelys هى مفتاح نورمانديا . إذ لا خطر فى ترك الأرض الخلاء للعدو ما دام المرء مسيطرا على القلاع والحصون .

فن الحصار هو إذن أحد الأسرار الكبرى فى حرب الإقطاع . وفى فن الحصار هذا اتسعت حيلة رجال هذه القرون وزاد علمهم وجرأتهم . وخطواته معروفة تماما : ضرب الحصار blocus ورمى القذائف بالمنحنيق أو آلة الرمي والهدم trebuchet وحفر الخنادق وما يقابلها تحت الجدران ، وقفز الأسوار . والتواريخ غاصة بهذه القصص المتشابهة دائما فى خطوطها العريضة والمختلفة كثيرا فى تفاصيلها ، الزاهية الألوان ، الغنية بمغامرات الحروب .

وثمة فى غمار هذه القرون حدث بارز فى المجال العسكرى : السيطرة التى لا تنكر للخيل . هذا الاحتكار تقريبا للفروسية هو الطابع الظاهر المشترك فى جيوش الدور الأول من العصر الوسيط على كثرتها واختلافها . وكما هو الحال فى العصر القديم تتغير صورة الجيش بتغير السلطة السياسية . وفيما بين محورى الحرب الخاصة وخدمة الدولة ، تتردد الخدمة الإجبارية ، مما يتخذ معه تطور الجيش خلال هذه السبعة القرون هيئة التركب من حركة تذبذبه بينهما . كما يشود طابع آخر إزاء انعدام سلطة الدولة ، هو التجمع حول القوى الحقيقية : قوة الزعماء .

الجيش الاسلامى

العرب كالأقوام الرحالة محاربون . فالحرب عندهم جزء من النظام العادى فى معيشتهم . وقد اكتسبوا من حماسهم الدينية مزيداً موفوراً من روح القتال .

وفى بداية عهد الرسول ، كان كل من أسلم من العرب يدخل فى صفوف الجند الإسلامى . فعدد الجيش يومئذ هو عدد المسلمين بأسرهم .

والمهاجرون هم أول جنود المسلمين ، تقول بعض المصادر أن عددهم بلغ لما أسلم عمر بن الخطاب الأربعين فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالأنصار وصاروا جميعاً جنداً واحداً بقيادة النبي . وفى السنة الأولى للهجرة لم يزيدوا على بضعة عشرات يقيمون فى المدينة . ثم ازدادوا فكان عددهم فى معركة بدر الكبرى (٣١٣) رجلاً من المهاجرين والأنصار (١) ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو والكندى . وفى معركة أحد كان الجند سبعاً مائة وفيهم مائة دارع (٢) ثم ازدادوا بمن اعتنق الإسلام من القبائل العربية . واشترك فى حملة مؤنة ثلاثة آلاف مقاتل عربى وبلغ عددهم فى معركة تبوك آخر الغزوات فى صدر الإسلام ثلاثين ألفاً ومعهم عشرة آلاف فارس . وقد عادت الحملة دون قتال .

ولقد كان معظم رجال وحدات الجيش المحارب من أهل الحديبية والطائف وغيرهما من القبائل العربية .

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٢٢ — يذكر أن عدد المقاتلين كان ٣٠٥ رجلاً وخمسة أفراس

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٧ . وفى السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٢٢ أنه كان مرمها

بجيش سبعون جيراً .

وفي أيام الخلفاء الراشدين تزايد عدد الجيش بمن انضم إليه من قبائل الحجاز واليمن ونجد واليمامة ، وأصبحت قيادة الجيوش من وظائف الخليفة أسوة بما كان يفعله النبي محمد . وكانت العادة في عصر الخلفاء الراشدين أن من تخلف عن تأدية الواجب الذي يكلف به بشهر به في الناس ويعاقب أشد العقاب .

وقد بلغ عدد الجيش في زمن عمر بن الخطاب زهاء مائة وخمسين ألفاً من المقاتلين نظموا في وحدات ، وجعل على كل منها أميراً من شجعان العرب وعلية القوم ومن ذوى التجربة والكفاءة وإصالة الرأي في الأمور الحربية . وأنشأ لهم ديواناً^(١) ينظر في أمر تسجيل أسماء الجند وأعطياتهم وتموينهم . ولم يكن الرسول في حاجة لتشكيل ديوان الجند . فقد كان الجند إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم . وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم حسب ما يراه الرسول^(٢) وتضاعف عدد الجيش تبعا لتوسع الفتوح الإسلامية على أيام عمر وعثمان وامتدت الزخوف في عهد عثمان وشملت أرمينية وبلاد القفقاس وفارس وخراسان وطبرستان وبلاد إفريقيا .

وفي أيام الأمويين بلغ عدد الجيش العربي في معسكر البصرة والكوفة فقط . . . ١٤٠,٠٠٠ مقاتل . أما في معسكر القسطنطين فقد بلغ عدد المرابطين أربعين ألف مقاتل . وكان جند الشام نحو ذلك . هذا إلى جانب القوات المعسكرة في واسط والموصل والقيروان وغير الذين عهد إليهم حماية الثغور (الحدود) . ونستدل من بعض الجيوش التي جهزها الأمويون في أوائل دولتهم أن عدد

(١) عثمان بن ثابت : الجندية في الدولة العباسية ص ٨١ — ٨٥

(٢) القنطري : الآداب السلطانية . ص ٥٨

الجند كان كبيراً. فإن يزيد بن المهلب عندما حمل على جرجان وطبرستان جرد إليهما ١٢٠.٠٠٠ من الجند المرتزقة أى من أدرجت أسماؤهم ورواتبهم في ديوان الجند وذلك سوى الاتباع والمتطوعين الذين يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله .

ومن الصعب أن نقدر عدد الجيوش الإسلامية في أوائل الدولة العباسية. ولكن المعروف أنها كانت كبيرة العدد. يدل على هذا أن حملة هارون الرشيد على هرقلة (١) سنة ١٩٠ هـ (٨٠٥ / ٨٠٦ م) بلغ عدد جنودها ١٣٥.٠٠٠ من المرتزقة يضاف إليهم عدد كبير من الاتباع والمتطوعين . بينما كان تحت قيادة داود بن عيسى أحد القادة العباسيين في أرض الروم سبعون ألفاً من المقاتلين . وبلغ عدد الجند العباسيين بإمرة الخليفة المعتصم في معركة عمورية مائتي ألف مقاتل .

نظام الخدمة العسكرية

رأينا ما كان عليه نظام المقاتلين في عهد النبي . وفي خلافة أبي بكر استمر التطوع النظام الذي يسود المقاتلين . وكان المتطوعون لا يكفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً ويقنعون بما يصيبون من الغنائم. ذلك لأن المقاتلة لهم أربعة أخماس الغنيمة . واعد كانت الغنائم في العراق والشام مما يغري المخلفين بالحق بزملائهم .

وكان أبو بكر أول من اتخذ بيت المال ، . وكان من إرادته يشتري

(١) مدينة آسيا الصغرى كانت قاعدة مملكة الروم في عهد الفتوح الإسلامية الأولى فتحها مسلمة بن عبد الملك عام ٨٩ هـ (٧٠٧ / ٧٠٨ م) واسمها الآن اركلي ،

الإبل والخيول والسلاح فيجعله في سبيل الله . ويمكن القول بأن هذا المال كان أول ميزانية لديوان الجند . وأول من ولي بيت المال أبو عبيدة ابن الجراح .

وكان عمر بن الخطاب أول من أسس ديوان الجند في المدينة عام ١٥ هـ ، أسسه ليجعل المسلمين كلهم جندا يدافعون عن الإسلام . وكان يسمى الديوان فقط (١) وكان الجند في عهده ينقسمون إلى قسمين ؛

١ - الجند النظامي : وهؤلاء الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم .

٢ - المتطوعة : وهؤلاء الذين يشتركون في الجيش وقت الحرب فقط وبسرحون في السلم .

وقد حرم على الجند النظامي مزاولة الزرع وغيره بينما كان المتطوعة أحراراً في المهن التي يزاولونها (٢) . ولم يغفل ديوان الجند عن نساء وأولاد المقاتلين وهم في الحملات العسكرية . فكان الجندي في ساحة القتال لا يفكر بأمر إعاشة الأفراد المسئول عنهم . إذ أن الرواتب والأقوات تدر عليهم كل شهر بطريقة منظمة .

وكان العطاء يتفاوت حسب أسبقية الدخول في الإسلام . وأول من سوى بين الجنود في العطاء علي بن أبي طالب .

(١) الديوان هو دفتر أو مجتمع الصحف يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وكان يعمل أسماء المهاجرين والأنصار ومقدار أعطياتهم . ويتنظيم الجندية الإسلامية كان يدرج اسم الجندي واسم أبيه مع نسبه وسننه ووقده ولوته وملاحه وسائر ما يميز به عن غيره لتلافتهم الأسماء ويذكر اسم التقدم أو النقيب الذي سيعمل تحت إمرته .

(٢) نهران بن ثابت : الجندية في الدولة العباسية : ص ٨٩

وبعد سنوات نظم القبول للجندية وجعل لها شروط أهمها :

١ - البلوغ .

٢ - الإسلام .

٣ - السلامة .

٤ - الإقدام .

وهذه الشروط الأربعة متفق عليها . أما الشرط الخامس فمختلف عليه وهو الحرية أي أن لا يكون المقاتل « مملوكا ، تابعا لسيد » .

نظام المارك العربية الأولى

كانت المارك كلها تبدأ على عادة العرب بالمبارزة . فيخرج بين الصفوف نفر من أي من الجمعين يطلبون أناسا للمبارزة . ويخرج لهم من الجمع الآخر عدد مساو لهم . وقد لا يرضون بهم فيطلبون بدلهم كما حدث يوم بدر عندما خرج من صفوف قريش عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد فخرج إليهم فتية من أهل المدينة فلما عرفهم عتبة قال : « مالنا بكم من حاجة إنما تريد قومنا ، ثم نادى منادهم : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا ، فخرج إليهم حمزة ابن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث .

وفي كل من غزوات النبي نجد المسلمين يصطفون مع الصباح ويتهيئون للقتال : وكان النبي يقف بين المسلمين يعدل من صفوفهم . فإذا اشتد القتال بقى النبي وسط المعركة معرضاً المؤمنين على القتال صائحاً بهم أن الجنة لمن أحسن البلاء منهم . وحين يشتد القتال ويندفع المسلمون بتحريض النبي نحو الموت لا يبالون به كان النبي يقول « شدوا » . فيقتحم المسلمون خطوط المشركين .

الجيش على مر الحضارة الإسلامية

وقد قسم الخلفاء الأوائل الجيش إلى قلب وجناحين ومقدمة ومؤخرة . وظلت القبيلة العنصر الهام الذي تؤلف منه وحدات القتال . وكانت الخيالة في الجناحين يستخدمون الرماح بينما كان يسلح المشاة بالقسي والمهائم والسيوف واستعملوا الدروع فيما بعد .

وقد أفاد خلفاء بني أمية كثيراً من نظم الحرب عند الروم والفرس . فجعلوا من خدمة الجيش حرفة وعملوا على توحيد صفوفه . ويمكن القول أنه في أيام الخلافة العباسية تأثر الجيش بمؤثرات فارسية وتركية وابتعد عن الروح العربية البحتة ودعم صفوفه بالجند (المرتزقة) الأجانب من الشعوب غير العربية التي اعتنقت الإسلام وصار الجيش « العربي » شيئاً بالجيش الروماني البريتوري . وفيما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر اضطحلت قوة الجيش المركزية وأصبح لكل ولاية إسلامية جيش خاص بالأمير .

وفي مصر كان للفاطميين قوات عسكرية منظمة - عناصرها القبائل الإفريقية التي وفدت مع القائد جوهر - قائد المعز لدين الله - صارت لها الكلمة الأولى في الشرق الوسيط الإسلامي ، لكنها ضعفت أخيراً أمام التغفل الصليبي في سوريا . وذهبت قوتها في الرياح عندما تدخل صلاح الدين الأيوبي الكردي الأصل . فحاذت دولة الفواطم وشيد مكانها دولة لأسرته حاضرتها القاهرة .

وقد كان عماد جيش صلاح الدين روح الجهاد الفاتكة أكثر من التنظيم الجيد . وامتاز هذا الجيش الإسلامي على الجيش الصليبي بتكتيكات الحصار

وباسلحتها الثقيلة كالدبابات والعراضات والمجانيق وبوسائل المواصلات السريعة (الحمام الزاجل) .

وقد أدى استخدام سلاطين هذه الأسرة العسكرية للماليك بين صفوف قواتهم الرئيسية إلى زيادة نفوذ هؤلاء وبالتدريج أصبحت لهم الكلمة العليا وتمت لهم السيادة فعلاً وأسسوا في مصر والشام دولة كبرى ظلت حوالى ثلاثة قرون . وكانوا يعتمدون على أسلوب الإقطاع في جيوشهم^(١) وقد ذاب هذا النظام أمام ما أدخله العثمانيون من تجديدات مستحدثة في تنظيم وتدريب وتسليح جيوشهم الفنية في أوائل القرن السادس عشر .

كان هذا في الشرق الإسلامى . أما في الغرب (أسبانيا) فقد كان النظام العربى العسكرى السائد منذ فتح تلك البلاد وزاد البربر ذلك النظام سطوة بفضل قوة شكيמתهم وروحهم العسكرية . ولكن مع مر الأعوام فقد المسلمون روح الوحدة والتآلف وانقسموا فرقاً وشيعاً . فتدهورت دولتهم وتجزأت إمارات صغيرة وسرعان ما فقدت صلابتها أمام عناد الأسبان الأصليين الذين لم يتخلوا أبداً عن استعادة الوطن لأيديهم . ومع ذلك فقد برع المسلمون في أسبانيا في بناء القلاع والحصون على قمم الجبال والتلال لحماية الوديان والمضائق وأجادوا حروب الحصار واستخدموا البارود في القرن الرابع عشر ولكنهم فقدوا الروح الهجومية وتمسكوا بمذهب الدفاع إلى أن طردهم الأسبان نهائياً من البلاد في القرن السادس عشر^(٢) .

[عبد الرحمن زكى]

A. N. Poliak : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and (١)
De Lebanon 1250 - 1900. London 1930.

Quincy Wright : A Study of War, vol 1. page 590 (٢)

الفصل الثالث

الجيش الملكية

من القرنين الثالث عشر إلى الثامن عشر

الجيش بالنسبة للملوك أداة قوة من الطراز الأول ، ومنذ أن استقرت عزوش الملكيات ، والملوك يحتفظون لأنفسهم بحق استخدام هذه القوة . ففي كثير من البلاد نرى إذن أن الجيش ونفوذ الملك يتطوران جنباً إلى جنب وتقدم أحدهما يساند جهود الآخر وبالعكس ، وإن الاستمرار الطويل للملوك أسرة كاييت les capetiens في فرنسا ليسمح لنا بأن نتبع خلال ثمانية من القرون هذا التطور . ولما كانت مثل هذه الملكية قد وجدت - مع فروق قليلة الأهمية - في الكثير من الدول القديمة ، فحسبنا أن نضيف إلى دراسة حالة فرنسا بعض نقاط خاصة ببلاد أو عصور معينة .

١ - تطور الملكية في فرنسا

بدايات الجيش الملكي

القرنان الحادي عشر والثاني عشر :

لما تولى هيج كاييت Hugues Capet عرش فرنسا (٩٨٧) لم يكن إلا «زعماً اختاره أنصاره ، وإن كان من الناحية النظرية ملكاً - مادام مفروضاً أنه هو الذي خلف أسرة شارلمان ، فهو لم يكن في الحقيقة إلا ولي النعم

الأسمى suzerain suprême في نظام التبعية La mouvance الفرنسي ،
وليس الرئيس بحق إلا في إقطاعياته الخاصة .

فالملك من أسرة كاييت لا يستمد من صفته الملكية هذه أية قوة عسكرية .
إذ أن مبدأ أن كل رجل من الفرانجة ملزم بخدمة السلاح ظل معترفاً به دائماً
ولكنه في الواقع لم يكن مطبقاً قط فيما بين سنتي ٩٨٧ و ١١٨٠ ؛ لأن الملكية
لم تكن خلال هذه الفترة في حرب مع أحد من جيرانها . ثم إن ضعف
هذه الأسرة كان بحيث لا يمكن أن يستطيع الملك من ملوكها أن يبسط نفوذه
على كافة رعاياه إلا عن طريق الزعماء .

فسلطات الملك العسكرية إذن لها أصل مزدوج : صفته كشریف في
مقاطعته هو ، ورياسته لمراتب التبعية الإقطاعية في فرنسا كلها . فهو في
مقاطعته يستطيع أن يدعو أفضاله وتابعيه حتى الفلاحين أنفسهم ، إلا أن
هذا المجال ضئيل جداً . ففي سنة ٩٨٧ لا نجد إلا عصبة ضيقة من سنليس
Senlis إلى أورليان Orleans ولكنها في سنة ١١٨٠ تمتد حتى بوج Bourges
وتغطي مساحة ثلاث مراكز أقاليم . يضاف إلى هؤلاء أيضاً جنود بعض
الأساقفة الأغنياء (رانس Reims وشالون سيمارن Chalons sur Marne
ولانجر Langres ولامون Laon وبوفيه Beauvais) الذين من حقهم أن
يكونوا لهم جنودا ، ولكن مجموع قواتهم تبقى تحت أمر الملك .

أما خارج أملاكه هو ، فليس إلا مقاطعات لا يستطيع الملك أن يعي-
منها إلا عدداً بعيده من الفرسان Chevaliers يحدده بين الولاء الإقطاعي
أو تحده العتاليد والعرف ؛ فهو مائتان في نورمانديا ، وستون في دوقية
بورجوني Bourgogne وستون من كونت شامباني ، وأربعون من بريتاني ،
و ٤٢ من الفلاندر . . . الخ أي ما يساوي في مجموعها أقل من ألف رجل
مسلحين إذا سلطنا أتهم جميعاً سوف يستجيبون للنداء .

وجهة القول أن الملك يعتمد بصفة أساسية على صغار أتباعه من الأفاضل لكي يمدوه بالمنعم عليهم من الفرسان . أما المشاة الذين يحملهم من أراضيهم وخدمهم لا يستخدمون إلا كرسيد احتياطي ، فالجيش - كالمملكة ذاتها في ذلك العصر - يتسم بطابع إقطاعي ملحوظ .

الجيش الملكي في القرن الثالث عشر

وحرب المائة عام

ما زال الجيش حتى عهد فيليب أوجست يحتفظ بأصله المزدوج . وقد عثر على وثيقة بتاريخ ١٢٠٤ « *La prise des sergents* » مهايا الشاوبشية وفيها عدد الرجال المعبين من أراضيهم . هؤلاء الشاوبشية هم عمال الملك في أراضيهم وهم يخدمون من الكفور والقرى والأديرة ، وبلغ عددهم ٨٠٥٤ ومدة خدمتهم ثلاثة أشهر . وفي وسع الملك إذا أراد أن يطلب أن تدفع له هذه الجهات بدل هؤلاء الرجال مبلغاً من المال بمعدل ثلاثة جنيهات باريوية عن كل «شاويش» . مما يبدو معه بوضوح قلة قيمة هؤلاء المجندين . هذه المبالغ كان الملك يستعين بها في استخدام المرتزقة والمأجورين والخبراء بالطرق المغامرين من كل ملة وجنس ، وقطاع الطرق الذين كانوا يكونون العصابات . وما كان أقلهم في هذه العهود لا يكادون يبلغون ثلاثمائة !

وهكذا كان تحت يد فيليب أغسطس جيش شبه دائم قوامه ٢٥٧ فارساً من المنعم عليهم ، ٢٦٧ شاويشا يركبون الخيل ، ١٣٣ من حاملي القسي *arbalétriers* المشاة ، وألفا شاويش مشاة أيضاً ، وثلاثمائة من قطاع الطرق المأجورين ، هذا هو الجيش الملكي ، وفي حالة الحرب يضاف إليه رجال المقاطعات ، وقد بلغوا سنة ١٢١٦ بقضهم وقضيضهم ثمانمائة من الفرسان .

وتنظيم الجيش بسيط جداً ، فالملك قائد أعلى يعاون نائب أحكامه *sénéchal* الذي يدير العمليات ، وقائد الخيالة الملكية *Connétable* وهو على رأس جيش الخاصة الملكية ، ولواءان . ونواة الجيش إنما تتكون من الفرسان منتظمين خلف بنودهم ، كل بند *banniere* قوامه أربعة أو ستة فرسان وسائسهم ، كما أن البنود ، تلتظم في فرق *batailles* تشبه عندنا الفصائل ، وعلى رأس كل منها شريف عظيم . والبنود والفرق تشكيلات تستحدث في بداية كل حملة عسكرية ، ففي معركة كاسل *Cassel* ، كان جيش ملك فرنسا منتظماً في إحدى عشرة فرقة تشمل ١٩٢ بنداً .

وتضم المشاة حاملو الرماح *Piquiers* وحاملو القسي *arbalétriers* وينتظم الرماحون في فرق تسمى *connetablies* ويرأسها قائد يسمونه *chevetaine* أما حاملو القسي فهم تحت إمرة رئيس لهم هو أيضاً رئيس المدفعية - تلك التي لا تزال تستخدم أساساً لأجل الحصار . فإنه منذ القرن التاسع والمدفعية تستعمل آلة الرمي (*trebuchet*) على طريقة المقلع بدلاً من مدفعية المنجنيق (المقذاف) في العصر القديم التي أزالها تماماً لأنها أكثر كفاية وأقل عناء . والدور الحاسم في المعركة إنما هو من اختصاص الفرسان - الذي هو سلاح الهجوم ، أما المشاة فمقتضى عليهم بالثبات المطلق ، بل لقد لوحظ أكثر من هذا أنه أثناء القرن الثالث عشر ضوعف سلاح الفارس الدفاعي أيضاً ، مما استتبع زوال الفروسية الخفيفة من الشاويشية الراكبين ، وأدى - في القرن التالي - إلى أن يسيطر على معركة القتال تماماً الفارس الثقيل .

تغيرات القرنين الخامس عشر والسادس عشر

أدى طول القتال أثناء حرب المائة عام إلى تعميم نظام رواتب الجند ، وقد ظهرت عادة دفع مرتبات الجنود هذه في إنجلترا في منتصف القرن الثاني عشر

بما أتاح للملك أن يستبقى رجاله أكثر من مدة الأربعين يوماً - الأجل الذي حدده النظام الإقطاعي في التزاماته ، والذي لم يكن يكفي انتقال فرسانه على القارة ، واضطر ملك فرنسا إلى الأخذ بهذا التقليد أثناء الحرب الصليبية الثانية أو الثالثة (١١٤٦ و ١١٨٨) ثم طبقها باستمرار في كافة الحروب . فليس شارل السابع إذن - كما ظن طويلاً - هو الذي حول مجندى الإقطاع contingents إلى جنود مأجورين soldats .

وقد أتاح التطبيق النظامي لمبدأ الأجور مع هذا لهذا الملك أن يقوم بإصلاح جوهرى ، ففي إبريل سنة ١٤٤٥ أصدر أمراً بإعادة تنظيم الفرسان وإنشاء ما يسمى فيما بعد ، فرق الأسلحة النارية compagnies d'ordonnance ، وفي ٢٨ إبريل ١٤٤٨ أصلحت المشاة بدورها عن طريق إنشاء «رماة الفرنجة» francs archers . فالأمر الأول يقضى بتسريح عدد بعينه من « فرق » المرتزقة بينما تبقى الأخرى قائمة في خدمة الملك ، أولاً لمدة سنة ثم يتجدد قيامها بالخدمة سنة بعد أخرى ، مما يؤدي عموماً إلى أن يصرف لرجال الفرق تعويض عن بطالتهم في فترة ما بين الحملتين ، ومعنى ذلك أن يلشأ عن غير قصد جيش حقيقى دائم .

هذه الفرق المسماة بفرق الأسلحة كان عددها خمسة عشر ، تشمل كل منها مائة جماعة مطاردة Lances ، وكل جماعة منها قوامها ستة رجال راكبين . وكان « رجل السلاح » منهم المغطى بعدته الكاملة يقاتل برمح وقوسين - أما حامل الخنجر coutiltier فهو مكلف بأن يجهز بخنجره على الفرسان الذين يتسمرون في الأرض تحت وطأة عدتهم الثقيلة ، كما كان في الجماعة خادم الأسلحة valet d'armes وخادم خاص ، كلاهما غير راكبين ، ويساعدان الفارس (رجل السلاح) على ارتداء ملابسه والخروج للقاء العدو .

أما «رماة الفرنجة» فيكونون المشاة، وهي جيش محلي يجند من القرى بواقع «رام» عن كل خمسين نسمة في عهد لويس الحادى عشر، وكان الملك ينقدم أربع فرنكات في الشهر، وقد وصل شارل السابع بهذه الطريقة إلى تجهيز ثمانية آلاف رجل، وهذا المثل في التجنيد الأول من نوعه.

فاستحدثت «رماة الفرنجة» هذا علامة تحول عظيم آخر في المجال الحربي في القرن الخامس عشر، هو «تجديد المشاة»، وهنا أيضاً ليست المسألة إحياء مفاجئاً يرجع إلى السويسريين، بل هو تطور مهد له الصراع الطويل بين فرنسا وإنجلترا، ثم وصل به إلى غايته النهائية سكان جبال الألب.

لقد كانت واقعة كورتراى Courtrai سنة ١٣٠٢ انتصاراً للمشاة من رجال الفلاندرز على «زهرة فرسان الفرنجة»، وعلى العكس من هذا فإن فرسان فيليب دى فالوا Ph.de Valois بعد ذلك بست وعشرين سنة - كما روى كاسل Cassel - قد أعملوا في جحافل الفلاندرز بجزرة رهيبة. هذه المشاة التي تلقى بنفسها على العدو في غير نظام مصيرها الهزيمة، ولم يعمل حسن الإدارة بعد على تفوقها، وأول ما طرأ عليها من تغيير هو ما حدث أثناء الصراع ضد إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٣ - ١٣٠٧)، فقد أحل هذا محل القوس العادى arbalète القوس الطويل long bow الذى يهدف إلى نفس البعد ولكن أسرع بثلاث مرات، ومنذ ذلك اليوم والقسى الطويلة archerie هي العنصر الرئيسى في الجيش الإنجليزى، ولكى يستغل هذا التجديد إلى النهاية، أزل إدوارد فرسانه إلى الأرض، فراء وابل السهام الذى يضرب العدو، يتقدم الفرسان الاتجليز بمعداتهم الخفيفة - راجلين - لى يقضوا على العدو.

وظهر تكتيك «الفرسان المترجلين» هذا في فرنسا لأول مرة في معركة

توجان سيرسين Nogent sur Seine (١٣٥٩). وسوف يسود القرن الخامس عشر كله. إلا أنه سوف يبدو سخيًا عندما يتبين ضعف القدرة على الحركة من جانب الفرسان المزودين بسلاح ثقيل. فيعود الفرسان إلى سابق وضعهم الحقيقي في القرن السادس عشر. ويكون الهجوم إما خيباً (جلباً) (a'trot) أو رجاً (au galop) وما ذلك إلا لأن السويسريين قد أظهروا حسن استعمال مشاتهم، فإن هؤلاء الجلبين الذين لا خيل عتدم - وبالتالي لا فروسية - قد عرفوا كيف يستعيدون في نضالهم ضد ملوك النمسا Maison d'Autriche خطة الجحافل القديمة، إذ يهجم مشاتهم المسلحون فقط بالرمح ذي الثلاثة الأمتار والنصف طولاً في شكل مربع من ستة عشر صفًا طويلاً وتعمل هذه الكتلة المتحركة فعل الكرة النافذة إلى صفوف العدو، وقد كان من أثر نجاحهم أن صاروا مطلوبين من ملوك البلاد المجاورة، وفي المقام الأول من جانب ملك فرنسا.

وهكذا نرى أن فرق الأسلحة، من ناحية، والمشاة المرتزة من السويسريين من ناحية أخرى، ثم جنود البر، الألمان lansquenets سوف يتكون منهم جيش بكامله على نفقة الملك، بينما تؤدي تفاحة قيمة رماة الفرنجة إلى اختفائهم ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر. أما نداء القرعة العسكرية ban فلم يعد غير ذكرى.

هذا الجيش الذي هو مرتزق كله هو الذي سيقوم بحملات إيطاليا والمعارك الكبرى في القرن السادس عشر. ففي موقعة أجنادل Agnadell (١٥٠٩) يخرج لويس الثاني عشر على رأس عشرة آلاف من الفرنجة وعشرين ألفاً من الأجانب معظمهم من السويسريين وجنود البر الألمان.

وأخيراً فإن القرن الخامس عشر يشهد أيضاً تحولاً رئيسياً، هو تقدم.

المدفعية . إذ أن مدفعية البارود التي كانت قد نشأت في ظروف غامضة في بداية القرن الرابع عشر - ربما في الفلاندرز (حيث استدل عليها لأول مرة سنة ١٣١٤) - قد ظلت أساساً سلاح حصار حتى القرن الخامس عشر . وظهورها على الميدان في واقعة كريسى Crécy (١٣٤٦) قد أحدث الجلبة أكثر مما أحدث الضرر . وكان شارل الخامس أول ملوك فرنسا اهتماماً بالمدفعية ؛ فجاء في الأمر الذي أصدره في ١٩ يوليو ١٤٦٧ أن « خير المدن هي تلك المزودة بالمدافع » . وفي عهد شارل السابع ؛ ظهرت أهمية السلاح الجديد بإنشاء رتبة « القائد الأعلى للمدفعية » . وكانت حتى ذلك الحين تتبع قائد الرماة ، ويعهد بها إلى Bureau وإخوته . فإلى هذا السلاح تدين فرنسا بجزء من انتصاراتها على إيطاليا . كما أن مدفعية شارل الثامن قد أثارت الإعجاب والفرح بين أهل الغال (فيما وراء جبال الألب) . وعندما يتولى لويس الثاني عشر وفرنسوا الأول تخف القطع وتلتزم فوهاتنا وتحدد سعتها بعيار ستة .

وفي القرن السادس عشر يحدث تقدم الأسلحة النارية في الفرق تنويعاً أكبر . فالبندقية ذات السونكى ، ومدفع اليد الرفيع الطويل ، والمدفع الحقيقي الصغير السهل الحمل والذي يسند إلى القنذلين ؛ لا تظهر إلا في آخر حكم لويس الثاني عشر . أما البندقية ذات الزناد والمدفع الذي يشتعل بالفتيل فلا نلمحها في فرنسا إلا حوالى ١٥٦٧ . وهكذا نرى إذن مولد نوع جديد من الجنود . ويحل حامل البندقية محل حامل القوس . ومنذ ذلك اليوم تتكون المشاة من عنصرين : حاملي البنادق وحاملي الرماح . كما تنقسم الفرسان بدورها إلى (الجندرية) المزودين بمعداتهم الكاملة ، وفرسان خفاف على خيل خفيفة ، ثم حملة البنادق الراكبين .

سيطرة طابع الملكية على الجيش

لوتليه Le Tellier

كان الجيش الفرنسي ، عند موت الملك لويس الثالث عشر (١٦٤٣) ضعيفا . وكان ريشليو يفخر في سنة ١٦٤٠ بأن لديه خمسة عشر ألفاً من المشاة وثلاثين ألف فارس . ولكن الملك لم يكن يشاركه هذا التفاؤل ؛ ولو أن جيش إيطاليا لم يزد على سبعة آلاف رجل .

والقرعة العسكرية من اختصاص القواد Capitaines الذين يأمرهم بقرع الطبول ويقيمون المتطوعين الذين تدفع لهم مكافأة . إلا أن الفرار من الجندية هو داء هذا النظام . فتتقص الفرق إلى خمسة عشر أو عشرين رجلا ويصبح الضباط وخدم في الجيوش الملكية أكثر من الثلث . وينقرض الفرسان إلى حد ألا تعدو مجرد لم الاتباع والناس من متوسطي الحال ، والنظام لا وجود له تقريباً ، بل هو مستحيل بسبب تراكم التبعات (والقرين المستمر لكبار الضباط) ورشوة الحراس ، مما يذهب بكل سلطة . والرتب العسكرية ذاتها غير كافية ، فهي زائدة عن الحاجة في المراتب العليا : قائد أعلى - قائد مساعد - كولونيل . . . مع جور الألقاب والاختصاصات بعضها على بعض . وعلى العكس لا نجد بين الفرق في المشاة أو الجماعة cornette من الفرسان وبين الجيش ككل أي تقسيم فرعي .

وقد أبقى لوتليه Le Tellier من حيث نظام القرعة على الطريقة التقليدية

(١) انظر في مجموعة je - Que Sais أيضاً : تاريخ التسليح Histoire de l'Armement للأدميرال آيريه Colonel Ailleret .

التي هي الطابع المميز لجيوش الملكية ؛ الجيش المرتزق . وكان الملك يخاطب القواد أيضاً لكي يقوموا بفرز الجند . وكانت التبعثات العامة قديماً تحدث في حالات الضرورة . فكان الملك يأمر ، الهاربين من الجندية ، والمشردين والذين لا عهد لهم ، بأن يسلموا أنفسهم إلى الحاكم في ظرف أربع وعشرين ساعة . ونظير هذا كانوا يتقاضون مكافأة ؛ بينما في حالة امتناعهم كانوا يرسلون إلى اللجان ، هذه الطريقة التي لم تكن لتأتي الا بفرق قليلة القيمة . قد هجرت منذ حرب الفروند La Fronde . وعلى العكس من هذا نظم استخدام الأجانب والوطنيين في الجندية أحسن تنظيم ممكن .

فالاولون (الأجانب) وهم جنود بارعون - ولكنهم غير خاضعين - فخورون بمزاياهم ، ونفعيون إلى حد كبير ؛ قد استبعدوا شيئاً فشيئاً بعد صلح البرانس (١٦٥٩) فيما عدا الألمان والسويسريون . ويكاد التجنيد من بين المواطنين يصبح هو الطريقة الوحيدة للقرعة العسكرية . فتكثر حالات الغش من مغنم غير مشروعة ، إلى تمويه في الأرقام Passevolants إلى كثرة الفرار . . . إلى أن كانت نهاية العهد القديم حيث شن وزراء الحربية ضد هذه الحالات حرباً لا هوادة فيها ، بحزم أكثر ونتائج أحسن .

وفي جيش كهذا مكون فحسب من المرتزقة ، المسألة التي تشغل الأذهان هي مسألة الرواتب la solde . فتكون قوة الملك إذن رهينة بحالة ماليته . ففي سنة ١٦٦٠ كان الراتب اليومي هو خمس (نكلات) (١) لرجل المشاة ، ومن ١٢ إلى ٢٥ (نكلة) للفارس .

فإذا عرفنا التكاليف الكلية أصبح من السهل معرفة الأرقام (عدد

(١) son أو sol واحد على عشرين من الفرنك الفرنسي الذهب - يعادل مليون تقريباً .

الجنود) . ففي سنة ١٦٥٩ وعند نهاية الحرب ضد أسبانيا ، كان الملك ينفق ما بين عشرين وخمسة وعشرين مليون جنيتها في السنة : إذ بلغ الجيش ٩٥٧ فرقة مشاة و ٨٣٠ جماعة من الفرسان . وفي سنة ١٦٦٦ إبان حرب الاستحقاق guerre de Dévolution (١) كان لويس الرابع عشر يدفع ١٥٤ مليوناً من الجنيهات لـ ٩٧٥١٥ رجلاً (منهم ١٥٤٢٥ فارساً و ٨٢٠٩٠ من المشاة) . فكان جيش لويس الرابع عشر يحوم حول مائة ألف رجل .

هذا الجيش الذي يكلف الملك غالياً ؛ قد أراد وزيره أن يكون محدد الرتب . فأنشأ أولاً نظام تدرج هذه الرتب . ففي القمة القائد الأعلى للجيش فالفریق والمشير واللواء - عدا أميرالايات فرق الفرسان ، وهؤلاء هم كبار الضباط الذين يعينهم الملك نفسه ولا يتعاونون مناصبهم . وأدنى من هؤلاء الوظائف التي يمكن شراؤها أو بالرشوة، وهي تكون سلم الدرجات الموجود اليوم : قائمقام ، بكباشي، صاغ ، يوزباشي ، ملازم أول، ملازم ثان . وكانت الترقية تتم فيما مضى وفقاً لنظام الجداول . أما إذا كانت الرشوة باقية فإن تدرج الوظائف في هذه الرتب يلغى ، ويثبت بدلاً منه نهائياً تدرج فرق الجيش ذاتها .

وقد تبين تسليح الفرق منذ القرن السادس عشر . ففرق المشاة تشمل نوعين من الجنود : حملة البنادق الذين يكونون ثلثي عدد الجيش ، ثم حملة

(١) هي الحرب التي قام بها بعد موت فيليب الرابع ملك إسبانيا لويس الرابع عشر الذي لم يلبث أن طالب بالبلاد الواطئة باسم زوجته ماري تيريز (١٦٦٧ - ١٦٦٨) . وكانت الحرب سريّة وخلفيّة وانتهت بمعاهدة أكس لاشابل التي ضمت الفلانطور لفرنسا . ولأنها سميت حرب الاستحقاق لأن ملك فرنسا قام بها مفاوضاً عن حق زوجته - ابنة فيليب الرابع من زواجه الأول - في خلافة أيتها على العرش (الترجمة)

الرمح ، وكلهم مزودون بالسيف العريض . ومنذ ١٦٤٠ كان للبندقية أيضاً سونكي ، ولكن لما كانت تثبت في فوهة البندقية فقد كانت تعوق إطلاق النار . واختفت الخوذة والدرع . وأصبحت الكسوة في عهدة قائد الفرقة الذي لم يلبس أن أهملها دافع البخل وغالباً ما يترك الجند في أسمال بالية ودون حذاء . أما الفارس نفسه فهو يلبس الخوذة والدرع الذي يقي صدره وظهره . وكأسلحة هجوم يحمل السيف ومسدسين ، كما كان حامل البندقية يستعمل بندقيته أيضاً .

وكان التسليح - كالكسوة - يقوم به قواد الوحدات (اليوزباشية) فغالباً ما كان مضحكاً وتافهاً . وبدأ المدفع الذي ظهر في إيطاليا وإنجلترا حوالى سنة ١٦٣٠ ينتشر في مختلف الأسلحة رغم معارضة لوتلييه Le tellier وقد تم استخدامه نهائياً في الجيش الفرنسى خلال حرب الفروند استخدمت أقل بساطة من البندقية ولكن أقل عناء بكثير . وقد أخذ به تماماً في نهاية القرن السابع عشر .

إنما في عهد لوتلييه Tellier أيضاً ظهرت الأسلحة الخاصة ، . والحق أنه حتى ذلك الحين كانت المدفعية وسلاح المهندسين يختلطان تماماً تقريباً بالمشاة إلا أنه أثناء فترة الحرب الطويلة التي انتهت في ١٦٥٩ قد طرأت تجديدات كثيرة . فقد جعل السويديون (أيام جوستاف أدولف) المدفعية أكثر خفة وأكثر حركة ، وسوف تشارك منذ ذلك اليوم في تحركات الفرق المختلفة هذا إلى أن عمليات الحصار في المواقع المدنية حيثئذ قد أتاحت لعلم التحصينات الحرية فضلاً عن هذا أن يتقدم .

ففيما بين سنتي ١٦٤٣ ، ١٦٦٦ يؤدي التطور إلى أن يصبح سلاح المدفعية والمهندسين سلاحين منفصلين لكل منهما اختصاصه . فقد ظلت إدارة المدفعية

هي بعينها التي أنشأها الأمر الذي أصدره فرنسوا الأول في سان جرمان لن لي في فبراير ١٥٤٦ وعلى رأسها يوجد قائد من الضباط العظام Grand Maître هو الذي يرأس الأشخاص والمهمات والمصانع . ويوجد تحت امرته أميرالاي وملازمون (واحد لكل فرقة) ومراقبو الإمدادات . فأصبح هؤلاء الضباط الآن متدرجين في سلسلة الرتب العسكرية ويتكون منهم سلاح مستقل فما يزالون أيضاً ضباطاً بلا فرق ، إذ أن تشاحن حكام المعازل الحربية - رؤسائهم في المدفعية - والفوضى التي كانت تسود الميزانية ؛ قد حالت بين الوزير وبين أن يجعل هؤلاء الملازمين جنوداً .

كذلك أعيد تنظيم المواد الحربية . فيارات المدافع التي كانت متعددة حتى ذلك الحين قد حصرت في أربع . فالمدفع عيار أربعة وعشرين (ويقذف بقنبلة وزنها ٢٤ ليرة) ، والمدفع اليدوي الطويل الرفيع المعروف في ذلك العهد Couleuvrine أصبح ثلاثة أنواع : الكبير والصغير والمتوسط . وتلك هي بداية المدفعية الحديثة .

ويظل سلاح المهندسين يمثل « مهندسون » يتبعون المديرين . وكانت الأيدي العاملة اللازمة لأشغالهم يحصلون عليها فيما مضى باستخدام الفلاحين من المناطق المجاورة . إلا أنه شيئاً فشيئاً حل الجنود محلهم . وعكس هذا هو الذي حدث لضباط المدفعية . فالمهندسون بوصفهم متخصصين غالباً ما كانوا من الأجانب (والهولنديين خصوصاً) ولا يدجون قط في سلسلة الرتب العسكرية .

وثمة خاصة أخرى جديرة بالذكر في جيش القرن السابع عشر هذا : ونعني بها تسرب العنصر المدني . فحتى ذلك الحين كان العسكريون يكونون عالمياً مستقلاً . إلا أنه بنفس القدر الذي أصبح به الجيش ملكياً ، نراه

يضطر إلى أن يتسع صدره لكل من يأتي بهم الملك . فالمرقبون ومفتشو الجيش كانوا في نفس الوقت مفتشى مالية ، ووكلاء أو مديرين بالمعنى الحديث للكلمة ، ومراقبي أعمال ، وقضاة . فلا يبقى لقائد الجيش إلا إدارة العمليات أو الشؤون العسكرية الخاصة . وهذا تغير رئيسي جدير بالاعتبار ، لأنه بداية تطور لرقابة أكثر فأكثر إحكاما تفرضها على الجيش السلطة المدنية .

تطور القرن الثامن عشر :

وقد جرب الجيش الذي تمخضت عنه هذه الإصلاحات قوته في حروب لويس الرابع عشر . إلا أن النضال كان شاغلا بحيث لم يتسع الوقت للاستفادة بهذه التغيرات التي كانت تلهمها التجربة . حتى إن القرن السابع عشر الذي سيطرت عليه أسماء كوندى Condé وتيرين Turenne ولكسمبورج وكاتينا Catinat ولوفوا Louvois وفوبان Vauban قد شهد تجديدات تعد قليلة نسبيا . وعلى العكس من هذا القرن الثامن عشر بجاذبيته وصفاته وأحلام السلام الدائم ، التي ترهافيه الأب سان بيير ؛ فإنه يقدم فائدة كبرى وطابعا من الثورة ، يجعله فيما نحن بصدده في نفس مرتبة القرن الخامس عشر .

ذلك أن الأمر الذي أصدره شوازيل Choiseul في أول ديسمبر ١٧٦٢ قد قلب طريقة القرعة رأسا على عقب . وجرد القادة من صفتهم كلاك للفرق التي يرأسونها فلم يعودوا غير ضباط يتقاضون أجورهم . وتعهد الملك نفسه بالاقتراع للتجنيد ، وامتداد الرجال بالمعدات . وهو إنما يقوم بذلك عن طريق وكلاء له يساعدون موظفون محليون . فتجنيد الاتباع *racolage* مازال قائما إلا أنه أصبح لخدمة الملك بدلا من خدمة القواد اليوزباشية .

ونمة في نفس الوقت إصلاح آخر لا يقل أهمية ؛ وهو أن الوحدات

تبقى بصفة دائمة . فالحق أنه حتى ذلك الحين كان يسرح عقب كل حرب عدد بعينه من الفرق . ولكن شوازيل قد حدد عدد رجال الأسلحة المختلفة بحيث يظل ثابتا . وفي حالة الجهاد تقوى فصائل الجيش الموجودة بزيادة عدد رجال الفرق المحاربة . ومنذ ذلك اليوم أصبح للجيش بحق صفة الدوام والاستمرار .

وثمة نظام موروث عن السلف ، وله أهميته لأنه أيضا همزة الوصل بين الماضي والمستقبل ، ونعني به الفرق المحلية Milices (١) . وأصل هذه الفرق يرجع إلى زمن بعيد . فنحن نجد لها في القرن الثاني عشر يقودها حاكم البلدة لتشارك في عمليات الحصار . ولكن قيمتها العسكرية كانت معدومة ، ولم تلبث أن اختفت بعد لويس الثاني عشر وعادت الظهور مرات عديدة بعد ذلك في عهود فليب أغسطس وشارل الخامس والسابع . وهذه الفرق كانت تعباً باسم هذا المبدأ القديم جداً - مبدأ التجنيد الإجباري الشامل . فلما أعيد إنشاؤها سنة ١٧١٩ تكونت منها مائة كتيبة . وكان التجنيد يجري بطريقة الاقتراع من بين الفلاحين بمعدل عدد بعينه من الرجال عن كل محلة . وأثناء حروب التنازع على العرش النمساوي (٢) وحرب السبع سنين نجدها

(١) مليشيا militia مدنيون مدربون عسكريا ليسوا من قوة الجيش والكلمة لاتينية الأصل مكونة من كلمة milice ومعناها جنود ومليشيا (خدمة عسكرية) (المراجع)
 (٢) هي الحرب التي قامت في النمسا بسبب التنافس على عرش الإمبراطورية الذي نشب بعد وفاة شارل السادس وخصوصا بسبب تطلع فردريك الثاني إلى الاستيلاء على سلزيا والتي استمرت من ١٧٤١ إلى ١٧٤٨ . وفيها هازمت فرنسا وبروسيا أمير بافاريا وتخلتا عن ماري تيريز . وبينما هما تطلعتان ملكا باسم شارل السابع كان فردريك الثاني قد أخضع سلزيا بمعاهدة برسلو . ولكن موت شارل السابع (١٧٤٥) واعتراف ابنه بمقوق ماري تيريز قد أنهى الخلاف مع استمرار الحرب مع فرنسا في البلاد الواطئة وألمانيا وإيطاليا والمستعمرات لأن إنجلترا كانت منذ البدء في صف ماري تيريز وانتهت هذه الحرب بصلح لاكس لا شابل (١٧٤٨) لصالح الجميع ما عدا فرنسا (المترجم) .

يصل إلى مائة حتى مائة وخمسين ألفاً من الرجال . وبالعائها في سنة ١٧٨٩ بوصفها ، اعتداء على الحرية ، أصبحت في كل مكان نواة الجيش الوطني . وإصلاح آخر جدير بالاعتبار هو إنشاء تفرعات ثابتة ونهائية . ففي عهد شوازيل أيضاً أصبح لفرق الجيش تكوينها الموحد من كتبتين ذات أربع سرايا وتنقسم السرية بدورها إلى فصيلتين من أربع فرق ، كما كانت فصائل الجيش خمس جماعات . واكثر أهمية من هذا أيضاً ظهور مبدأ التقسيم التفريعي إلى فرق الذي هو أساس الجيوش الحديثة . وكان تيرين Turenne قد فكر في جعل الكتبية وحدة تتكون من فصيلتين ذات سلاح واحد في كليهما وأثناء حرب السنين السبع كان ما يشغل بال مارشال ساكس ودوق بروجلي مرونة تنظيم الجيوش الذي أصبح ثقيل جداً ، فأبدعا تشكيلات مؤقتة شملت الأسلحة كلها من مشاة وفرسان ومدفعية ومهندسين ثم أصبح هذا التكوين مستمرا - نظرا لفساد التنظيم المعمول به في وقت السلم .

وفي سنة ١٧٧٦ كانت فرنسا مقسمة إلى عدد بعينه من الأقسام ، تشمل فرقاً من كافة الأسلحة يقود كلا منها أميرالاي هو الذي يقودها أثناء الحرب . فقام بالخطوة الأخيرة في سنة ١٧٨٨ هيئة أركان حرب الجيش التي قسمت الكتاب مثنى مثنى إلى ٥٢ فرقة مشاة و٣٢ فرسان . فمن اتحاد هدد متغير من فرق المشاة والفرسان تتكون وحدة أو جماعة . وظلت المدفعية كما هي عنصراً من عناصر الجيش .

وللأخذ بهذا المبدأ نتيجة ضخمة من حيث التكتيك ، هي قدرة الجيش في المعركة على أن يتجزأ إلى أسلحة منفصلة ، وبالتالي أن يقوم بتحركاته ، وحيلئذ تتناثر الأسلحة وتغطي جهة أوسع بكثير من أرض المعركة ، أو تدرج لتتزع الغلبة من العدو . وقد كتب أحد كبار أصحاب النظريات الحربية في القرن الثامن عشر - وهو الكونت جيبير Guibert - يقول : إن القائد

الذى يخرج على النظم المعروفة ، يربك عدوه ويذهله ، ولا يدع له متفساً ، ومن ثم يجبره إمامه على أن يصمد أو يتقهقر أمامه أبداً . وأنا أجرو على القول بأن ثمة طريقة لقيادة الجيوش أكثر نفعاً وأشد حزمًا ، وأولى بأن تبرز الانتصارات الكبيرة من تلك التى نستخدمها حتى الآن ، . وقد كانت هذه العبارة نذيراً بحروب نابليون كلها .

ولا ندع جيير دون النبيه إلى مقابلته فى حروب التكتيك الكبرى بين محاربين وبالتكتيك الخفيف ، ورجال التكتيك العنيف ، أو بعبارة أخرى الذين يقومون بدور المشاة محاربين بالنار أو بالالتحام . فذلك دليل على أن القرن الثامن عشر ليس أقل فى درجة التفكير الحربى مما هو فى الفكر عموماً

والتخصص فى سلاح المدفعية - الذى رأينا بواده فى عهد لوتليه ، قد تقدم خطوة أخرى فى عهد لوفوا Louvois الذى جعل للضباط بلا فرق ، جنوداً وذلك بإنشائه منذ سنة ١٦٧١ ، فرق قاذفى القنابل ، bombardiers ويتم التخصص سنة ١٧٢٠ بإنشاء فصيلة المدفعية الملكية ، Royal - Artillerie التى تشمل فرق المدفعية ، وحافرى الخنادق ، والعمال : جامعة بهذا بين سلاحى المهارة الحربية ، . ولكن انفصالها يصبح نهائياً فى عهد شوازيل الذى أنشأ سنة ١٧٧٦ سبع فصائل مدفعية تضمها كتيبتان . وكانت تتبعها سبع مدارس لتخريج ضباطها الذين أصبح لابد لهم أن يتخرجوا فيها . كما تجددت أدوات الحرب على يد جريبو قال Gribeauval (١) وعرفت المدفعية - شأنها شأن المشاة - تنازع المدارس المختلفة : فشمه ، الحمر ، المتشيعون للمدفعية القديمة الثقيلة ، ، والزرقة ، أنصار المدفعية الحديثة الخفيفة .

(١) أنظر فى مجموعة Que Sais je أيضاً : تاريخ التسليح Histoire de L'Armement

وفي سلاح المهندسين فصل لمطهرو الألغام وممهديو الطريق pionniers من المدفعية سنة ١٧٧٦ . ولكن المهندسين المتخرجين في مدرسة مزير Mézières ظلوا ضباطا بلا فرق ، يستخدمون يدأ عاملة لا يرأسونها مباشرة . ولأما في سنة ١٨٢٠ نشأ أول آلاى من المهندسين .

وفي سنة ١٧٨٩ كان عدد جيش الملك من المشاة ٧٩ آلاى من الفرنسيين و ٢٣ آلاى أجانب . ويتألف الآلاى من كتيبتين وكل كتيبة أربع سرايا عدا ١٢ كتيبة من القناصة . أما الفرسان فهناك ٢٤ آلاى فرسان ، واثنان من حاملي البنادق ، وستة من الفرسان الخفاف على طريقة الهنغارين ، وثمانية من صف ضباط فرسان (يقاثلون راجلين أو راكبين) dragons ، واثنا عشرة من المطاردين القناصة . وأما المدفعية ف سبع فصائل ، والجملة ٢٧٢ ألف رجل يدافعون عن ٢٠ مليون نسمة .

هذا هو تطور الجيش الفرنسى ، بحثناه في خطوطه العريضة .

نماذج أجنبية

الجيش الإنجليزى فى القرن الرابع عشر :

كان إدوارد الأول (١٢٧٤ - ١٣٠٧) فى مطلع هذا القرن أول من أصلح الجيش الإنجليزى إصلاحا كبيرا عما كان عليه فى هذه البلاد تحت حكم أسرة بلاتاجنيه Les plantagenets (١) لأنه كان ثمة من الفرق الآتية من

(١) أسرة ذات أصل أنجوى حكمت إنجلترا منذ عهد هنرى الثانى حتى تولى هنرى السابع العرش ١٤٨٥-١٤٨٨ وفى القرن الرابع عشر انقسمت على نفسها إلى فرعين متنافسين: يورك ولانكاستر ، وبينهما قامت حرب الوردتين Denx Roses (١٤٥٥-١٤٨٥) التى سميت كذلك لكون الورد =

بلاد القارة أكثر مما كان هنالك من الجزيرة ذاتها فهذا الملك هو الذى انتهى من تحويل جيش الإقطاع إلى جيش مأجور ، فالأجور تسمح بأن تكون الفرق تحت يده تماماً كما نحيل هذه الفرق الإقطاعية إلى جيش إنجليزى منظم . وجنود إدوارد الأول هم أنباع مأجورون ، ولكنهم ليسوا مرتزقة بالمعنى الصحيح ، وليس المال هو وحده الذى يربطهم بالملك . فالحق أن الماينا كارتا (١٢١٥) كان يقضى بإبعاد المرتزقة . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد منهم فى الجزيرة أحد .

وتحول مشاة الإنجليز الذين كانوا يجندون من بين تابعى الانفصال *arrières vassaux* إلى اصطناع الرمح الطويل *Long - bow* المأخوذ عن أهل الغال الجنوبيين أما القوس الكبير الذى يبلغ المترين فكان من خشب السرو والسهم - الذى كان طوله نصف طول القوس - كان من القراشنة (١) . وكانت قوته تصل إلى مائتى متر . وفى هذه المسافة يستطيع السهم أن يثقب قيص الزرد . ومع أن هذا القوس الكبير أقل إحكاماً من القوس الصغير *arbalète* فإنه يرمى أبعد بكثير : من عشر إلى اثني عشر سهماً فى الدقيقة . وهذه الميزة الأخيرة هى التى ستضمن له الفوز ، وبالتالي انتصارات الإنجليز الأولى فى حرب المائة عام .

ففى بدء هذا الصراع الكبير لم يكن تحت يد ملك إنجلترا مع هذا الإلجيش ضئيل العدد : ألفا فارس (منهم ١٢٠٠ رجل مسلحين و ٨٠٠ شاويز راكبين يسمون *hobelars*) ومثلهم من رماة السهام . وفى معركة جريسي *Greycy* (١٣٤٦) كان لدى إدوارد تسعة آلاف رجل ثلثهم من الفرسان .

= الأحمر والأبيض الذى جعله كل منهما شعاره . واتصر فيها لانكاستر (هنرى السابع - تيودور) ولكنها لطلوها قد أنهكت الأسرة وعجلت بزوالها . [الترجم]

(١) *frêne* وبالإنجليزية *Ash tree* والأندلسية *frezno* والأصل اللاتينى *frazinus* وهو نوع من الأشجار الزيتونية الأوربية ، ويسمونه لسان الصغور [الترجم] .

ومع هذا فإن جيش ملك إنجلترا في القرن الرابع عشر يتسم بضعف الجيوش الإقطاعية عموماً من حيث العدد . ولكنه يدين بقوته وتفوقه لا إلى عدده بل إلى تسليحه .

الجيش الإسباني في القرن السادس عشر :

كانت حركة استرداد المسيحيين أسبانيا Reconquista على وشك أن تنتهي (١٤٩٢) عندما أصلح الملك فرديناند الجيش - لتطلعه إلى الفراغ من توحيد أسبانيا - ولأن الجيش الذي كان قد قام بغزو غرناطة قد احتفظ بطابع إقطاعي كبير .

فأراد الملك أن يقلد شارل السابع وأن ينشئ ما يشبه وحدات للأسلحة ففرض على النبلاء الذين يملكون قدراً معيناً من المدخل أن يكون لدى كل منهم جواد مجهزة ، ثم أنشأ في سنة ١٤٩٥ خمسة وعشرين سرية من الخيالة الثقيلة كل منها ذات مائة رجل من حاملي الرماح وسبعة عشر فرقة من الخيالة الخفيفة يسمونهم estradios . وحدد التسليح تبعاً لثروة كل نبيل : ومن الناحية النظرية كان الملك يجند قواته ببناء القرعة العسكرية . وقد كان مقتضى الأمر الذي صدر في بلد الوليد في ٢٢ فبراير ١٤٩٦ أنه سيجند من بين الإسبانيين من عشرين إلى ٤٩ سنة رجل عن كل ١٢ رجلاً . أما في الواقع فكان يكفي أن تقدم المدن المختلفة بياناتها تاركة الاستدعاء لمن يتقدم برغبته . فلم تكن هذه القوات دائمة ، إنما كان يتكون منها احتياطي يتقاضى راتباً منذ أن يطلب للتعبئة . ودفع الرواتب للجند تقليد قديم جداً في شبه الجزيرة لأنه منذ القرن التاسع كان أمير قرطبة الحكم الأول يدفع أجر الخدمة العسكرية .

وتفوق إسبانيا في القرن السادس عشر إنما يقوم في جزء منه على المشاة الذين لا زالوا موضع إعجاب بوسويه Bossuet ؛ وإلى اليوزباشى جونزالف القرطبى Gonzalve de Cordone قائد حروب إيطاليا الأسباني يرجع الفضل في تنظيمها. فقد كان سلاح هؤلاء المشاة - شأنهم شأن سائر الجيوش في ذلك العهد - الرمح والبندقية ، وكانت وحدة التسكتيك اللوا *tercio* الذى قوامه ثلاثة آلاف رجل ينقسمون إلى كتائب *batallatos* من خمسمائة رجل كل : مائة حاملو رماح ، ومائتان بنادق ومائتان يقاتلون مدرعين بالمجن المستدير *rondaches* فكون هذا القائد جيشاً على غرار الجحافل السويسرية ولكنه أكثر مرونة وأحسن تنظيمًا وهكذا منذ ١٥٢٢ أصبح ملك إسبانيا يرأس مشاة من الوطنيين هي التى سوف تبقى على قوته حتى معركة روكروى Rocroy (١٦٤٢) . وإلى جانب هذه المشاة يهيب الملك مع هذا بالمرتزة . فأصبح الجيش الأسباني تعدادة في هذه الموقعة من ٢٦ إلى ٢٨ ألف رجل تنظمهم عشرون كتيبة مشاة و ١٠٥٠ آلاى من الفرسان . وإلى جانب هذه العشرين كتيبة ثمة خمس آلايات قديمة مكونة من الأسبانيين وثلاثة من الإيطاليين وخمسة من الألمان ، واثنان من جنود كوتات فرنسا وخمسة من الوالون سكان جنوب شرق بلجيكا *les wallons*

وفي القرن السابع عشر أشبه الجيش الأسباني في طابعه الجيش الفرنسى .

جيش جوستاف أدواف السويدي : (١٦١١ - ١٦٣٢) :

كان هذا الجيش باختلافه عن الجيوش الأخرى في عصره نموذجاً انتقالياً وبشيراً بالجيش الوطنى . فإلى جانب المرتزة المجندين من كافة أسواق الرجال في ألمانيا ، تكونت المشاة السويديّة من نواة قوية من الفرق الوطنية يجندون من بين فلاحى المملكة . فقبل كل فرز ، يقيد الرعاة (الحكام) قائمة

الشبان الذين تعدوا الخامسة عشرة في بلدهم . ويختار منها رجال الملك واحداً عن كل عشرة . هذا هو الاقتراع . وكانت الخدمة تستمر عشرين سنة . وبهذا عبا الملك ١٥ ألف رجل لحرب بولونيا ، ومن عشرين إلى ثلاثين ألفا لحرب الثلاثين سنة .

ولتحمسه للأمور العسكرية ، عدل جوستاف أدولف تسليح جيشه وتنظيمه كما يجعله أيسر تحركا . ومن أجل هذا قلل عدد السرايا والآليات فأصبح السلاح أخف : الرمح الذى أنقص طوله من ١٥ إلى ١١ قدما ، والبندقية التى قل وزنها بحيث يمكن إطلاقها دون إسنادها على قائم . كما أن استعمال (الخرطوش) قد أتاح لها إطلاقا أسرع . ويقدر أن فرقة البنادق السويدية كانت تطلق بسرعة تفوق ثلاث أو أربع مرات سرعة إطلاق الجيش الإمبراطورى .

والمدفعية بدورها قد تناولها التخفيف . فالمدفع الذى اخترعه الانجليزى هاملتون هو الذى كان يستخدمه وحده السويديون بعد سنة ١٦٢١ . كان من الحديد ، وكان مقاسه أربعة أقدام طولا ، ووزنه ٦٢٥ لبرة (١) ، ويرمى بقذائف وزن أربع لبرات . ويحمله على عجلات كان من الممكن بسهولة دائما نقله . إذ كان يكفى لجره حصانان .

كل هذا قد يسر تحركات الجيش ، يضاف إليه الروح المعنوية العالية . فإن إيمان هذا الجيش شبه الوطنى بمبادئ لوثر ، وبراعة قائده ، هى التى تفسر دوى الأسلحة السويدية فى مطلع القرن السابع عشر .

(١) البرة livre نصف كيلوجرام .

الجيش النمساوي في القرن الثامن عشر :

عند تولي ماري تيريز العرش سنة ١٧٤٠ كان الجيش النمساوي يبلغ في جملته ١٥٧ ألف رجلا ، إلا أن القوات المقاتلة منها قد قلت إلى ستين ألفاً بسبب وجود حاميات في البلاد البعيدة (البلاد الواطئة وإيطاليا) وخصوصاً على الحدود التركية . وكان الجنود يجلبون بنظام فرز مزدوج : القيد الاختياري للبرتبة الأجانب والوطنيين كما في كل مكان في أوروبا ، ثم التعينات غير العادية التي تدعو إليها في الملكيات الوراثية لحظة الحرب . وفي سنة ١٧٧١ أدخل على السبعة والثلاثين آلاي الألمانية في جيش ملك النمسا النظام الإقليمي *systeme cantonal* ، الذي كان متبعاً في بروسيا . أما هنغاريا فقد كانت تقدم جيشاً محلياً ، وأما المناطق العسكرية قرب الحدود التركية فكانت تعرف النظام الخاص بالشعوب الخاضعة تماماً لالتزامات عسكرية شبه دائمة ، كذلك التي كانت موجودة في بلاد القوزاق .

كانت المشاة تشمل حملة البنادق ورماة القنابل *grenadiers* (بمعدل ست سرايا من الأولين وسرية من الثانيين بكل آلاي) وكان الآلاي يشمل ثلاث كتائب يبلغ عددها من الناحية النظرية ١٦٠٠ رجلا . أما الفرسان فكانت تتكون من حملة السروج والفرسان الدراجون *dragons* والفرسان الهوسار *hussards* وأما المدفعية فقد عدلها قائدها الأعلى أمير لختنشتين *Lichtenstein* فانقصت العيارات إلى أربع (والقذائف ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١٢ ليرة) وصارت الطلقات تبعاً في (فشك) مجهز من قبل ، وفي سنة ١٧٨٦ كان قوام المدفعية ثلاث لواءات في كل منها عشر سرايا . أما سلاح المهندسين فكان يتكون من هيئة المهندسين الذين زودوا في سنة ١٧١٦ بسرية من واضي الألغام

أضيف إليها بعد ذلك حافرو الخنادق ، ومهندسو الكبارى المائية *pontoniers* وجنود الطرق .

هذا الجيش الذى كانت فيه تشتري كافة الرتب ، يمثل جميع خصائص الجيش الملكى الخالص .

جيش فردريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦) :

إن الجيش البروسى الذى أثار إعجاب أوروبا فى القرن الثامن عشر إنما يرجع إلى الأمير العظيم فردريك جيوم ، والذى عدله فردريك الأول ، وخصوصاً الملك القائد فردريك جيوم الأول .

والطابع الذى يميز هذا الجيش هو طريقته فى الاقتراع ، التى جعلت منه إلى حد كبير جيشاً وطنياً . فعلى غرار جوستاف أدولف ، ألقى ملك بروسيا على عاتق رعاياه من جديد الأعباء الحربية ، لغرض واضح بسيط ، وهو أن تكون له قوة كبيرة بأقل تكاليف ممكنة .

فكان قيد الجنود الوطنيين يتم عن كل محلة تشمل فى المتوسط ١٨٠٠ أسرة ، ويطلق اسم رئيس المحلة على القادمين منها . هذا النظام اخترعه الملك القائد فى سنة ١٧٢٣ . وكل قسيس يعمد طفلاً ذكراً يبلغ اسمه لنائب الأحكام *bailli* الذى يقيد فى السجل العسكرى . وفى سن الخامسة عشر يقسم الطفل يمين الولاء للجندي ولا يستطيع مغادرة البلاد مخافة أن تصدر أملاكة . ومع هذا فإن الذين يعفون من الخدمة كانوا كثيرين جداً : النبلاء وأصحاب المهن العقلية والمشتغلين بالمهن الحرة ورجال الدين والتجارة . والحق أن عبء الخدمة الإجبارية كان واقعاً على الفلاحين . فكل محلة كانت ترتبط بكتيبة تجند فيها رجالها بمحض الاختيار أولاً ثم من واقع سجلات حكام القرى بعد

ذلك . ولم تكن مدة الخدمة محدودة ، وكان الجنود الذين يطلق سراهم يبقون تحت أمر الملك ومنهم يتكون الاحتياطي (الرديف) المدرب .

ولم يكن شعب المملكة الصغير (الذي قدر في سنة ١٧٤٠ بثلاثة ملايين) كافياً ليجند منه جيش كانت تريده أطماع الملك السياسية عظيمًا . فكان قيد المرتزقة من الأجانب كما في كل بلاد أوروبا . وكان تنظيم ١٧٤٣ يقضى - فيما يتعلق بعدد المشاة أثناء السلم - أن تكون نسبة الثلثين من الأجانب والثلث من المحليين . وبقصد الاقتصاد زيدت نسبة هؤلاء الآخرين عموماً حتى بلغت ٥٠ ٪ . ثم لجأ فردريك الثاني إلى طريقة أخرى لزيادة عدد جيشه وهي القيد الإجباري للمسجونين . وهكذا بعد معاهدة درسدن (١٧٤٥) أكمل الجيش بادماج المسجونين بين الخمسة والأربعين ألف سكسوني ونمساوي . ولم تلبس ألمانيا هذه الفكرة .

ومن خصائص الجيش البروسي المميزة الأخرى أن التعيين والترقية بالكادر . فبينما في الجيوش الأخرى كانت الرتب تشتري ، كانت هيئة ضباط بروسيا يتخرج رجالها في الكليات الحربية . تلك الكليات (مدارس ضباط كولبرج وبرلين) التي كانت تقبل أبناء النبلاء منذ سن الرابعة عشرة . وبعد أربع سنين من الدراسة يلتحقون بالكتائب بصفاتهم حاملي الأعلام (بيرقدار أو سنجق دار *porte - enseigne*) ثم يصيرون ضباطاً بالأقدمية . . ولم يكن طامة الشعب ليستطيعوا أن يصيروا ضباطاً إلا في المدفعية أو المهندسين . ولم تكن الترقية قط . بالاختيار ، فلكن يتم تكوين الكادرات أنشئت الأكاديمية العسكرية المشهورة في برلين . وبانشائها لم يتميز جيش فردريك الثاني عن بقية جيوش أوروبا .

والأرقام جديدة بالاعتبار بالنسبة لتعداد شعب المملكة . ففي ١٧٤٠

كان عدد الجيش ٧٦ ألف رجل منهم ٢٦ ألف أجنبي . وأثناء حرب السبع سنين ارتفع العدد إلى ٢٢٠ ألف رجل ، ثم هبط ثانية إلى ١٥٠ ألفاً .

ومع هذا فإنه لا كثرة عدداً للجنود ، ولا التعديلات التي أدخلت على طريقة الرمي في المشاة أو إدخال استخدام الذخيرة المجهزة في المدفعية هي التي أكسبت جيش ملك بروسيا عظمتة الحربية . فإن فردريك عظيم بفكرته ذاتها عن فن الحرب . ولقد أثارت دراسة التكتيك الفرديكي (النظام المائل المشهور) مجادلات عنيفة بين أصحاب النظريات . إلا أن إغفاله لمبدأ التفريع أو النظام التقسيمي للفرق principe divisionnaire يربطه بماض قد انقضى ، وسوف تدرك بروسيا ذلك في معركة يينا .

الفصل الرابع

العصابات

إن الالتفاف حول الأقوى - الذي لا يلبث أن يصبح رئيساً - ظاهرة تلقائية يترجم عنها الأطفال بعبارة «تكوين شلة»، أو عصابة *bande* . وعلى طول التاريخ تبدو هذه الظاهرة عندما يعوق تلاشي السلطة الحكومة المركزية من احتكار القوة. وهذا في جملة هو نظام الأقوياء *puissants* ولكن دون ارتباطات الزعماء في نظام الإقطاع . هؤلاء الرجال الذين كانوا متشردين بالأمس ، وهم اليوم مجندون ؛ قد وجدوا أنفسهم يأمر بأمرهم الرجال الذين يجلبونهم للجندية ، والذين يدفعون رواتبهم ويجرونهم إلى المغامرة . فالحرب عندهم مصدر ثروة ، ومجد وعظمة . وهي تحمل في ذاتها هدفها . وكما قال أحد كبارهم : فالشتين Wallenstein « إن الحرب ينبغي أن تمهد للحرب ، القائد يسمى نفسه «مقاول الحرب *entrepreneur de guerre* أما الجندي فهو محارب محترف .

وتبدو العصابة مجتمعاً خاصاً ، له قوانينه وتقاليده على هامش المجتمع الصغير جداً . ومع هذا فإننا لانستطيع أن نستبعدنا من تاريخ الجيش . فإنها تمثل اتجاهها مبالغاً فيه ؛ ونعني به الفاعلية الذاتية *autonomie* للمجتمع العسكري ، بل أحياناً ما أخذت مكان الجيش بمعناه الحقيقي - كما في إيطاليا . لهذا كان من المتع أن تتبع عبر القرون أجلى مظاهرها .

١ - الجمعيات الكبيرة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر :

كثيراً ما رأينا في فرنسا ظهور عصابات التروست *Truste* وكلوفيس *Clovis* في مكان معين لقواد الحرب العالمية الثانية ، إلا أنه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تبلغ هذه الظاهرة - ونعني بها العصابات - أقصى اتساعها.

و الرئيس، *Chet* هو العنصر الأول الذي يتجمع حوله الأفراد الذين يكونون العصابة . هؤلاء ، الرؤساء ، قد ساعد الجو الإقطاعي على الإكثار منهم كما هيأت لهم الحروب الصليبية أن يتسع مجال نشاطهم . فنحن نجد روجيه دي فلور *Roger de Flor* في أواخر القرن الثالث عشر من (الداوية) أو رجال المعبد^(١) فقرصانا فقائداً في خدمة إمبراطور بيزنطة ، وهذا نموذج أولى لهؤلاء المغامرين الذين اتخذوا من الحرب حرفة لهم ، لقد قاتل في جميع بلاد البلقان على رأس جنود من إقليم برشلونه وكسب لنفسه في هذا القتال شهرة خالدة . وكانت الحرب ضد الكفار - يعني المسلمين - ذريعة صالحة لأن يواجه هؤلاء المغامرون ضربات كبيرة في بلاد الشرق .

وسوف يعمم هذا النظام في الغرب الصراع الطويل بين ملكي فرنسا وإنجلترا ثم إدخال نظام الرواتب تدفع للجند في القرن الثالث عشر . فإلى جانب الجنود الإقطاعيين الذين يجلبون بمقتضى حق الزعيم *Suzerain* أهاب

(١) ظهرت في أوروبا منذ القرن العاشر حركة إصلاح ديني ترمي إلى إعادة الفضيلة المسيحية بإنشاء الأديرة والطوائف الدينية . ولما جاءت الحرب الصليبية كانت ثمة فرق من الرهبان المحاربين قد تجمعوا في طوائف أهمها التيلار *ex - templiers* (ويسمى العرب الداوية) نسبة إلى معبد (تمل) سليمان حيث أقاموا ، ثم طائفة يسميهم العرب أيضاً الاستبارية *Hospitaliers* نسبة إلى مستشفى القديس يوحنا الذي بناه الإيطاليون وأقام هؤلاء فيه (أنظر صلاح الدين الأيوبي وعصره للأستاذ فريد أبو حديد ص ١٠٤) .

ملوك فرنسا بالمرتزة . فإن الأشراف الكبار أمثال دوق اللورين ودوق
برابانت ولكسمبورج وكونت بورجونى وسافوا ودرمان فينا ، قد وضعوا
أنفسهم - لقاء معاش مرتب - فى خدمة أسرة كايت ، ذلك هو نموذج
الانتقال من الفصل vassal إلى رئيس العصاة chef de bande .

وأدنى من هؤلاء السادة الأقوياء بكثير قواد متواضعون Capitaines
رجال فقراء بصفة عامة ، نبلاء فى أخلاقهم gentilshommes قد عينوا
أنفسهم ، وقاموا من تلقاء ذاتهم بتجنيد جماعات من الفرسان من كل مكان
استطاعوا إليه سبيلا ، ومن كل الرجال الذين يجدونهم ، ثم يؤجرون
خدماتهم غالية الملوك والأمراء . هؤلاء الرجال الذين لاوطن لهم ولاثروة ،
الحرب عندهم هى الوسيلة الوحيدة للعيش . فإلى جانب الرواتب التى تجرى
بنظام ، تجلب لهم الحرب فرص النهب والسلب ، وفدية النبلاء الأسرى ،
والسلم عندهم إذن هو البؤس . وإذا ما انتهت الحرب رسمياً فهم يستمرون
فيها لحسابهم الخاص ، تلك هى جمعيات القرن الرابع عشر الكبيرة .

تكونت أوليات هذه الجمعيات حول رؤساء من الانجليز جاءوا إلى
فرنسا يقاتلون إلى جانب جيش إدوارد الثالث النظامى . يضاف إليهم عصابات
نافار فى عهد شارل المنكود (١) . وبعد معاهدة برتني Bretigny (١٣٦٠)
تشتت العصابات ولم يرجع إدوارد إلى إنجلترا إلا بجيشه النظامى . أما
الآخرون فقد اضطروا إلى البقاء فى فرنسا ونظموا أنفسهم للاستقرار فى

(١) Charles le Mauvais ملك نافار Navarre (١٣٢٧ - ١٣٨٧) حفيد لويس
العاشر ، ومن الذين ساهموا فى إضطاف الملكية فى فرنسا - ولنا سعى المنكود فاعر اثنين
مارسيل فى حرب المائة عام ثم عاد لخائف الانجليز وهزم جوسلال Guesclin جيوشه فى
كوشريل Cocherel (الترجم)

هذه البلاد . وهكذا نجد هاو كود Hawkwood وچاك وين J.Wyn وفرانك
 هنكان F. Hennequin وجارسيو دى كاسترو G.de Gastro وغيرهم ممن
 كانت صفتهم فى الأصل قطاع طرق وميشان الصغير Petit Meschin وبريزبار
 Brisebarre وتروسفاش Trousevache وتايكول Taillecol يجرون وراءهم
 الرجال من كل البلاد يسلبون ، ويفتدون ، ويقصفون ، ويسبون القتليات
 والغلمان ، ويصطحبون الباعة الجائلين ليعيدوا بيع المنقولات التى يأخذونها
 من الفلاحين وإليهم ، كما يصطحبون القساوسة للتراثيل الدينية والصلاة على
 الموتى . ولما هدت عصاة تارفينى Tardis - Venus التى استولت على بون
 سانت اسبرى Pont-St-Esprit (٢٨ ديسمبر ١٣٦٠) بابا أفينون ؛
 أعلن عليهم الحرب الصليبية واستعدى عليهم ملوك أوروبا ، ثم استطاع أن
 يقنعهم بالذهاب لمقاتلة أهل فيكوتى فى ميلانو .

والحق أن المسألة لم تحل إلا فى اليوم الذى أصبح فيه الجيش الملكى
 من الأهمية بحيث يشمل هؤلاء المغامرين المتحمسين للحرب . ومع هذا فإنه
 إذا كانت الجمعيات الكبيرة قد اختفت بعد القرن الخامس عشر ؛ فإن وجود
 العصابات يمكن أن يلتشر فى فترات الاضطراب .

وكانت أرقام هذه العصابات متغيرة جداً . فى موقعة برنييه Brignais
 كانت «جمعية» أرنو سيرفول Arnaud Cervole تشمل مائتى حامل رمح
 وأربعائة حامل قوس ؛ أى ستمائة مقاتل - وهو ما بعد «جمعية» كبيرة . ومن
 المحتمل أنه باللمة التى كانت تصحبها ، كانت أهم هذه العصابات تطل إلى ألفى
 رجل . والرعب الذى كانت تحدثه هذه العصابات وحده كاف لتفسير الأرقام
 الخيالية التى ذكرها المؤرخون .

هذا الفرع حاول ملوك فرنسا أن يضعوه موضع النسيان عن طريق

« خطابات التسليم *lettres de remission* ، التي أعطوها للرؤساء عندما اضطروا إزاء زوال نظام تداء القرعة للجدد وتحت الطلب إلى استعمال جمعيات ، قطاع الطرق ، وهكذا نشأ الارتباط بين العصابات والجيش الملكي .

٢ - العصابات الإيطالية : كوندوتو والسكوندوتيون :

عرفت إيطاليا الجنود المرتزقة في كل الأزمان . فالتورمانديون الذين استقروا في صقلية في القرن الحادي عشر ، هم أصل المغامرين الذين كانوا في خدمة أمراء بيزنطة ولبارديا . وفي القرن الرابع عشر اتسعت هذه الظاهرة لوجود ظروف مشابهة لتلك التي سادت فرنسا . فان غارات الملوك الأجانب (إمبراطور لكسمبورج هنري السابع (١٣١٢) وملك هنغاريا لويس الأول المطالب بعرش نابولي) قد جلبت في شبه الجزيرة سيلا من المحاربين لم يعودوا جميعهم إلى مسقط رأسهم عندما انتهت الحملة التي جاءوا معها . وهكذا تظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أولى الجمعيات الكبيرة كجمعية الألمانى فرز أورسلنجن *Werner Urslingen* الذى أطلق على نفسه اسم : « دوق فرنز ، رئيس الجمعية الكبرى ، عدو الله الرحمن الرحيم » ، وجمعية فرا مونريال دى موريال *Fra Monreale de Moriale* البروفنسى الفرنسكانى سابقاً الذى اتخذ اسم : « قائد الحرب ، وحامل لواء الكنيسة » . المالئ الكبير الذى أجر جمعيته بعد هذا في فينسيا نظير ١٥٠ ألف فلورين من الذهب .

ثم إن هذه العصابات التي نهبت فرنسا واصلت السير حتى إيطاليا تزاوّل عمليات السلب ، إلا أنه منذ ١٣٨٠ حدث تغير رئيسى : فان الأجانب يختفون شيئاً فشيئاً وتأخذ العصابات طابع إيطاليا الخاص وهذا هو حكم آل

كوندوتيري Condottieri الذي استمر حتى حملة شارل الثامن سنة ١٤٩٤ ، حيث انحل بعد ذلك و انتهى عام ١٥٢٥ . وأى معرض للصور فريد في نوعه من حيث الكثرة وإثارة الفضول كمعرض صور هؤلاء القواد : باندولفو مالانستا Pandolfo Malatesta براتشيودى موتونى Braccio de Montone فرانشيكوبوسونى Francesco Bussone الملقب بكارمانيو لا Carmagnola وخصوصاً أشهرهم جميعاً فرانشيكو سفورزا F. Sforza الذي أصبح دوق ميلانو سنة ١٤٥٠ ؟ إن صور هؤلاء القادة تطفئ على تاريخ القارة كله فى القرن الخامس عشر .

والعصابات الإيطالية - فى اختلافها عن الجمعيات الكبيرة ، الأجنبية - لها طابع إقليمى معين . فالرئيس غالباً ما يكون أحد صغار الأشراف وهو الذى يجند رجاله من بين الأفضال والرعايا التابعين له . وإليه وحده ترجع فوائد المشروع بينما هو لا يدين لرجاله إلا بالرواتب والمكافآت بين الحين والحين . والحق أن رواتب الجند كانت قد سادت إيطاليا هذه فى القرن الخامس عشر حيث نجد للاقتصاد النقدى هذا التقدم الذى نواجهه مع البدايات الأولى للنظام الرأسمالى . وقد هيا هذا للعصابات الإيطالية أن تظهر بطابع من التناسق قوى جداً ، كما قبض للرؤساء . أن يزاولوا على الرجال سلطة أوسع .

والمبدأ العام أن التجنيد يتم بالتعاقد لأمد . والجمعية تتكون من عدد معين من حاملى الرماح الذين يسمونهم هنا barbae نسبة إلى ممك البنى (البيروس) .

وأرقام هذه العصابات من الصعب تقديرها . فالبيانات التى أدلى بها للورغون خيالية . وأغلب الظن أن الجماعة قوامها مائة من حاملى القسي هى

المتوسط العادى . إذ معنى هذا ثلثائة من الفرسان يمكن أن نضيف إليهم من مائة إلى مائتين من المشاة - إلى جانب الخدمة ، أى فى الجملة . . ٨٠٠ أو ألف رجل على أكثر تقدير .

والجمعية هذا تكوينها يؤجرها رئيسها لإحدى المدن بمقتضى عقد Condotta يحدد أمد الإجارة (وهو أقل من سنة على العموم) كما يحدد عدد الرجال الذين يجب أن تتكون منهم الجمعية ، والأجر الذى يتلقاه كل من المحاربين ، وتفاصيل الأسلحة ونظام دفع الرواتب - وغالباً أيضاً - العدو الذى يجب مواجهته . ومن أمثلة ذلك العقد الذى أبرمه فى ٦ أكتوبر ١٢٨٤ الانجليزى هانكان تريشيل Hannequin Trichil مع فلورنس ؛ حيث أجر جمعيته ضد أى ملك كان عدا ملك إنجلترا .

وكثيراً ما ادعى بعد مكياڤلى - أن حروب الكوندوتيريين (العصابات المأجورة) كانت تمثيلات ، وأن خصومهم كانوا معهم على اتفاق - فى السر - على أن يقوموا بهذه المناورات . وقد أتاحت دراسة المواقع الكبرى الحكم على هذا التاريخ . وهناك رأى تقليدى آخر يلسب إلى القواد الإيطاليين قدراً كبيراً من إحياء فن الحرب فى أواخر القرن الخامس عشر . إلا أن هذا إنما يرجع خصوصاً لنشاط المشاة التى أعاد لها مجدها السويسريون ، وإلى تقدم المدفعية التى ماقتها الإيطاليون يسخرون منها .

ومع هذا فإن شهرة الكوندوتيريين كبيرة جداً . وأحدهم : تادى دى فالبرنى Thadée de Valpergne الذى كان فى خدمة دوفان شارل هو أحد رفاق جان دارك ، وآخر : كوليون Colleone هو المسمى شارل الماكر Charles le Téméraire الذى أراد أن يكون له جيشاً حديثاً . . فنصور كلر آل كوندوتيرى قد بقيت فى التاريخ أكثر مما بقيت ذكرى العصابات الإيطالية المسلحة الأخرى فى حملتها وبما بقيت الجمعيات الكبرى فى فرنسا .

٣ - العصابات الألمانية في حرب الثلاثين سنة :

في ألمانيا ، في مطلع القرن السابع عشر ، أتاح التقسيم السياسي وعدم وجود سلطة مركزية قوية ؛ الظروف الملائمة لاستمرار وجود العصابات ،

وقد خلد شيلر Schiller صور فالنشتين Wallenstein أوفالشتين Valdstein . هذا النبيل من بوهيميا الذي ألحقه في صفوف الكوندوتيريين أستاذه في علم الحرب القائد بوستا Général Bosta تليد اسكندر فارنيز A . Farnese الخالد في سجل كبار رجال الحرب الإيطاليين في القرن الخامس عشر . فبعد معركة الجبل الأبيض ، نجح فالنشتين - الذي كان قد حصل بشمن بخس على أراضى واسعة صودرت من الثوار - يعرض على الإمبراطور أن يجنده له ٨٠٠٠ رجل ، وان يقودهم بأمره في ألمانيا وبنغاليا وإيطاليا . هذا الجيش ما كان يكلف الإمبراطور شيئاً ؛ بل إن فالنشتين قد تعهد بتجنيد على نفقته وكان عليه أن يجرى أرزاقه ويقوم على العناية به - وذلك على حساب البلاد التي يحتلوها .

وفي يونيو ١٦٢٥ لقب فالنشتين بالقائد العام وحصل على إذن بالتجنيد وكان العقد الذي ربطه بفرديناند يجعل منه ضرباً من «مقاول حرب» بدفتر «شروط ومواصفات» ؛ منها أن «كل الغنيمة للجندى ولكن نصفها يخضع من راتبه» . أما المدافع والمهمات التي تؤخذ من العدو فتكون للإمبراطور . ولم يكن من المستطاع إشراك المدن الأخرى في الحرب أو إطلاق سراح الأسرى من الأمراء والقواد إلا بإذن الإمبراطور . فكان من الضروري إذن اتباع نظام معين منعاً لكثرة تخريب البلاد وبالتالي ضماناً للمستقبل . وحظر فالنشتين سلب خيول الفلاحين التي يعملون بها أو تخريب مزارعهم

حتى لا يتعطل الزرع . فلما أثقل كاهل الدولة عرف كيف ينزع من أراضيها هو المؤن اللازمة لبيعها غالية إلى الجنود .

وكما في كل جيوش ألمانيا في ذلك العهد : كان الرجال يستخدمون لفصل أوسنة . وبعد كل موقعة كانت تسرح الفرق - فيما عدا تلك التي تلزم للقيام على حراسة الحاميات . أما حين تستمر الحرب طويلاً - كما هي الحال في حرب الثلاثين سنة - فقد كانت تتكون منها كتلة ثابتة تعيش على النهب والسلب في انتظار الموقعة القادمة . والجيوش مكونة بطبيعة الحال من جنود من كل البلاد : لقد كنت تستطيع أن تحصى أكثر من عشر جنسيات في الكتيبة الواحدة !

هذه الكتيبة ملك للقائد الذي دفع راتب جنودها . وكان فالثنتين بدوره يضمن صرف أتعابه مقدماً . إلا أن هذا تنشأ فيما بين القائد العام وضباطه روابط مصلحة مشتركة قوية جداً . فلاعجب إذن أن نرى أمثال هذه الفرق تجول من معسكر إلى آخر ، عارضة خدماتها للأجزل عطاء . وهكذا على أثر موت برنارد دي فيمار Bernard de Weimar في سنة ١٦٣٩ تنازع ريشيليو والامبراطور وأمير بفاريا هذه الفرق - منعمين على الضباط بالترقية وعلى الجنود بمزايا مالية . فكسب الجولة الكردينال ، وأقسم الضباط - وكلهم تقريباً من الألمان - أن يخدموا فرنسا في أي مكان وضد أي عدو .

ولا يمتاز تكوين جيوش سانت امبير Saint - Empire عن الجيوش الملكية في عهدها ، ومع هذا فإن فرق فالثنتين تتكون في أساسها من المشاة . أما الفرسان والمدفعية فهما تافهان جداً .

٤ - الجيوش الصينية حتى شيانج كاي شيك

لم تعرف الصين منذ عهدها القديم جداً حتى عصر حركة « البعث الجديد »

التي قام بها المارشال شيانج كاي شيك نظاماً آخر للجيش . فالحق أنه قبل سنة ١٩٣٠ لم يكن لهذه الدولة الطريقة أى تقليد عسكري . فان كافة حضارات وجميع فلسفات الصين لا يمكن أن تتمشى مع فكرة استعمال القوة . وشرف الحرب فكرة جوفاء . خلو من المعنى عند أبناء السماء Les Celestes . فنذ أزمان متقدمة جداً كان رجال الحرب في الصين رجال عصابات (قطاع طرق) ونجد الكلمتين في اللغة مترادفتين أحدهما للأخرى . وهناك مثل صيني يقول إذا استطعت أن تصنع مسامير من الحديد من النوع الجيد فلن تستطيع أن تجعل من الرجال الأماناء جنوداً .

وتنطبق كلمة « جيش » ، في الصين بصفة دائمة على كلمة « عصابة » ، سواء كانت في خدمة سادة الإقطاع الذين هم حكام الأقاليم أو مجرد مغامرين . فان البؤس يجمع بطبيعة الحال حول الأغنياء عملاء من فقراء القوم أو من المرتزقة المتقربين هم في نفس الوقت خدمهم وجيشهم . والأرقام تتفاوت فيما بين بضع مئات من الأفراد إلى عشرين أو ثلاثين ألف رجل (إذا كنا بصدد حاكم مقاطعة غني) . ومهما تكن أهميتها فقد كانت هذه الفرق تحمل اسم : فصيلة ، أو كتيبة ، أو جيش ، تبعاً لطموح رئيسها الذي كان يحمل : ثماً لقب « جنرال » ، حتى ولو لم يكن قد لبس الزي العسكري قط .

هذه العصابات من الواضح أنها كانت تنظم وتسليح باكثر الطرق شذوذاً مما كان يتوقف على إمكانيات الرئيس المالية ، وعلى سبيل الفخر والعناية بالمظهر اشترى بعضهم مواد حديثة : مدافع ودبابات بل وطائرات لم يكن يحسن استعمالها القليلون جداً .

إلا أن إحراز المدفع كان وسيلة لتسمية المشاعر السلمية لدى العدو . وكان توزيع الرتب يتفاوت تبعاً لهوى الرئيس الذي يهب الدرجات للضباط

كما يوزع الآتاوات على محاسبيه وأقاربه الكثيرين ، كما أن الاستعانة بالمعلمين الأجانب وإرسال الضباط الشبان إلى مدارس أوروبا وأمريكا العسكرية لم يغيرا كثيراً من هذه النظم التقليدية . فإن المسألة لم تكن مسألة تجديد ، بل كانت في نظر الحاكم الحصول على مظهر ، كبير جداً .

وكانت الصين سنة ١٩٣٠ هي نفسها الصين ذات عصابت القرن الرابع عشر — إذا استثنينا التسليح ؛ فعرف شيانج كاي شيك كيف ينشئ جيشاً وطنياً .

الفصل الخامس

جيوش القوميات (١٧٩١ — ١٩١٤)

الثورة بداية مرحلة لا تقل أهمية في تاريخ الجيش عنها في تاريخ السياسة فإنه حتى ذلك الحين كانت الحروب تحمل طابع الأسرات . ملك يصطدم بملك آخر فيقاتله . أما جنود الثورة فهم يحاربون لأجل « الوطن » ، وهكذا ينقلب « الولاء » للملك إلى « وطنية » ، وليس هذا الشعور شعوراً تلقائياً فحسب ؛ إذ أن الحرب قد عملت على إذكائه في فرنسا أولاً ثم في كل مكان من أوربا على أثر الجيوش الفرنسية . وهكذا كان عجيباً أن ينقلب الأمر إلى الضد : فإن الثورة الفرنسية التي جاءت تدعى أنها عالمية شاملة في دعوتها للحرية والإخاء والمساواة؛ قد عملت على نشوء القوميات التي تضاربت طوال القرن التاسع عشر .

كما أن الصراع الطويل الذي دفع بالجمهورية الناشئة « وبالطغاة » إلى السلاح قد أسفر عنه تناقض آخر : فإن نظام القرعة Conscription (١) الذي لم يكده يعرف في العهد القديم والذي حملت عليه كل دفاتر الشكوى ؛ سوف يصبح هو النظام الأساسي للخدمة العسكرية مما سيجعل للجيوش بالضبط طابعها القومي . وسوف يجد معنى المساواة في هذا تحقيقه ، ولكن أحلام السلام الدائم سوف تودع خزانة الذكريات والأوهام .

(١) كلمة Conscription كلمة عامة معناها القيد أو التسجيل للجندية . « لمن صانها أيضاً التجنيد الإلزامي أو الخدمة العسكرية الإلزامية » ، وكذلك نظام القرعة العسكرية بوصفه الوسيلة للحصول على العدد المطلوب من الجندين الإلزاميين .

ومن الآن سيكون للحروب طابعاً أكثر شعبية ، ، طابعاً هو في الآن نفسه أكثر اتساعاً وأكثر شمولاً . وسيؤدي هبوب الشعوب بأسرها فيما بعد إلى « حرب كلية » بين « قوميات مسلحة » .

ولا يستطيع العامل السيكولوجي أو الأخلاقي أن يفسر وحده هذا التطور . إذ لا بد أن نقيم وزناً لعامل المصالح المادية الجديد ، فإن الرأسمالية الحرة في القرن التاسع عشر تخلق تجمعات خاصة (من نوع الترسـت trusts والكارتـل cartels) تدفع بالدول نحو « قومية اقتصادية » ، في السنوات الأولى من القرن العشرين . فتصبح كل دولة « قوة » ، ليس لها كيائها فقط من الناحية السياسية بل والاقتصادية . فاذا أضفنا إلى هذا التقدم العلمي الهائل الذي يمهـد في مجال التسليـح لثورات الحرب العالمية الأولى ، فسوف نلبس في القرن التاسع عشر هذا الخصب نشأة الجيوش الحديثة . إن العالم يسير في نفس الوقت نحو التوسع والاتصاق . وفي كل الأزمان كانت الجيوش منفصلة عن الدولة اجتماعياً وسياسياً . إلا أنه منذ الآن تصبح كل دولة عالماً يزداد تعقيداً ، وتختلف الظروف في كل منها . و « الجو » الخاص بها هذا هو ما يميز تطور الجيوش . ففي محيط هذه القوميات إذن يجب من الآن دراسة المجتمعات من الناحية العسكرية .

(١) الجيش الفرنسي

وهو وليد الأحداث أولى من أن يكون نصيباً من عمل الرجال . فانه لما اجتمع ممثلو الأمة في مايو ١٧٨٩ كانت خطتهم — فيما يتعلق بالناحية العسكرية — سلبية خالصة : الاحتجاج على العقوبات البدنية ، والرشوة في الترجمات والرتب ، وخصوصاً الاقتراع في الجندية . وكل هذا ألغته الجمعية

التأسيسية . ولكن الجيش ظل مرتزقا فحسب ، وتحت تصرف الملك أكثر مما كان في أى عهد . بل إن لويس السادس عشر فكر مراراً في استخدامه ضد الجمعية الوطنية : في ٢٣ يونيو ١٧٨٩ ، ثم في يوم هربه . ولما استقر عزم البورجوازية على تولى السلطة ، شعرت بالحاجة إلى أن توجد في مواجهة جيش الملك قوة خاصة بها . فكان هذا هو الحرس الوطنى .

وقد نشأ الحرس الوطنى في ثورة ١٤ يوليو . وكان غرضه الالتقاء بالفرق الأجنبية التى استدعاهها الملك . واستسلم لويس السادس عشر . وأشرفت على العاصمة بلديتها ، وجميعيات الثورة ، التى أصبحت منذ ذلك الحين بمثابة جيشها الذى تكون من بين صفوف البورجوازية . فكان الملك قد فقد باريس نهائياً . وفى أيام اكتوبر دخلها أسيراً . فانتصار الثورة إنما يرجع إلى حراب الحرس الوطنى . وإذ عهد اليهم مهمة الأمن والبوليس فى الشوارع ، فقد تكونت منهم ستون كتيبة (واحدة فى كل منطقة من باريس) مقسمة كل منها إلى ١٦ فصيلة ، فالجموع ثلاثون ألف رجل . وكان من هؤلاء ٢٤ ألف متطوع . أما الستة الآلاف الآخرون فكانوا يتقاضون أجراً ويقيمون بالمعسكر وتتكون منهم قوة دائمة استخدمها لافاييت فيما بعد لجعل منها جيشاً راقياً ، مهمته أن يبقى على احترام الدولة الرابعة . . . وإليهم ضم دستور ١٧٩١ ، المواطنين العاملين ، فحسب وكلهم من الملاك . وفى الأقاليم ساد هذا الميل إلى البورجوازية ذاته : فدخل الحرس الوطنى بجملته فى الحركة الاتحادية .

وما زلنا حتى الآن بعيدين جداً عن الجيش الوطنى . ولكن فرق الملك قد فسد نظامها شيئاً فشيئاً خصوصاً بسبب هجرة الضباط . حتى إنه فى سنة ١٧٩١ عندما بدأت تروج إشاعات الحرب ، كان الموقف العسكرى فى فرنسا

يرثى له : ١٢٠ ألف رجل فقط والتنظيمات واضحة المعجز . وخطرت فكرة الاستعانة بالحرس الوطنى ولكن هجرت الفكرة . ثم كان لابد من العودة منها إلى نظام التجنيد الإلزامى الذى حملت عليه كافة السجلات ، فجدد مائة ألف رجل بالاقتراع . وهؤلاء هم متطوعو ١٧٩١ . فن مائة تسعة وستين كتيبة تحت الطلب أمكن تنظيم ستين . وكانت فرقا قليلة القيمة لا تشبه بجيوش الحرب .

كانت الحرب تجرى فى فوضى . والجيش الجديد سوف تلشئه الضرورة . فى ٢٢ يوليو ١٧٩٢ أعلن أن الوطن فى خطر ، فقررت الجمعية الوطنية رفع القوات المسلحة إلى ٥٠ ألف رجل ولجأت إلى الأقاليم لإكمال هذا النقص . فكان المتطوعون الجدد - متطوعو السنة ١ - لديهم من الحماس أكثر مما لهم من القيمة العسكرية . لم يكن ثمة فساد الفرق القديمة بل كان المستوى الخلقى أحسن . ولعل التنافس بين الزى الرمادى (زى رجال الجيش) والزى الأزرق (زى المتطوعين) هو ما يفسر انتصارات فالى Valmy وجيماب Jemmapes .

ومع ذلك بدت الحاجة منذ ذلك الحين إلى التقريب بين النوعين على ما فى أصلهما من تفاوت . فى فبراير ١٧٩٣ وبازاء الموقف الداخلى والخارجى الذى يزداد خطرا (البوادر الأولى لحرب الفنديه Vendée) أصدرت الجمعية أمرا بالضم ، (أى ضم كتيبة من الجيش وكتيبتين من المتطوعين فى نصف لواء) وبتعبئة ٣٠٠ ألف رجل . وكان للأقاليم مطلق الحرية فى اختيار الطريقة التى ترجع إليها فى تجنيد الرجال المطلوب إلى كل منها تقديمهم . وهنا يظهر من جديد نظام التجنيد الإلزامى conscription وعرف بهذا الاسم ابتداء من أغسطس ١٧٩٣ . إلا أنه لى يتحقق التجنيد

الجماعي ، أعيد نظام « الطلب للقرعة » requisition . فكان مرسوم ٢٣ أغسطس يعلن أنه : « ابتداء من اليوم وحتى يكون العدو قد تم طرده من بلاد الجمهورية الفرنسية ، يعد الفرنسيون جميعا تحت الطلب للخدمة العسكرية كجنود في الجيش . فالشبان يذهبون إلى القتال ، والمتزوجون يصنعون الأسلحة وينقلون العتاد والنساء يصنعن الخيام والملابس ويقمن بالمريض في المستشفيات ، والأطفال يمزقون الملابس البالية خرقا صغيرة . والعجائز والشيوخ يتحاملون إلى الميادين ليلهبوا حماسة الجند ويشيروا كراهية الملوك ويوصوا بالاتحاد من أجل الجمهورية . »

هذا النص الآتي في البلاغة كان سنة صالحة مدة قرن ونصف من الزمان فهو - إذ يتجاوز بكثير مجرد الخدمة الإجبارية - يعلن التعبئة العامة « لوطن مسلح ، وهو أكبر بكثير مما كانت تسمح به سلطة الدولة حينئذ على المواطنين ، حتى مع الإرهاب ومثلي الدولة القائمين به . »

لهذا سوف يعتدل التجديد الثوري لهذه المبادئ من حيث التطبيق . فلن يطلب للتجنيد إلا غير المتزوجين فحسب ومن الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين . وتخفض هذا عن ٤٥ ألف رجل في ٥٤٣ كتية من تسع فصائل قوام كل منها ٨٦ إلى مائة رجل . ومنذ نهاية أكتوبر يكون التجنيد تقريبا قد انتهى .

حينئذ تكون الثورة قد بدأت في المجال العسكري ، ويكون الجيش الوطني قد نشأ . وكان لابد من التنظيم ، وهذا ما قام به كلرنو Carnot الذي كانت مهمته الأولى إقرار النظام ، فأقر النظام ، وأتم التوحيد الموضوعي الذي كان قد بدأ يتحقق منذ فبراير ٩٤ ، والحاصل : ٢٠٩ لواءات مشاة

ميدان ، ٤٢ مشاة خفيفة (واللواء عدده حينئذ ٣٢٠٠ رجل) . ووصلت أرقام هذا الجيش من الناحية النظرية ٨٠٠ ألف جندي ، وهو ما لم ير مثله من قبل كتلة بشرية .

وإصلاح آخر رئيسي هو المتعلق بتقسيم الجيش هذا التقسيم الذي وضع مبدؤه في السنوات الأخيرة من العهد القديم ، والذي طبقه كارنو بتدبير . كانت الفرقة من الجيش تتكون من أربعة أنصاف لواءات مشاة ، ونصف لواء فرسان ، وثمانية قطع مدفعية . وكل خمس أو ست فرق تكون جيشاً . وظلت المدفعية كما كانت عليه أيام جريبو قال Gribeauval ، ولكن لكي يجعلها أكثر تحركاً ، وبناء على ما قرره مرسوم التجنيد الجماعي ، نظمت تعبئة صناعية حقيقية لتسليح وإمداد هذه الفرق . فكان على الحذائين أن يقوموا بتسليم عدد بعينه من الأحذية ، واستولت الحكومة على محاصيل الحبوب .

على أن القانون النهائي للتجنيد لم يمكن التصويت عليه إلا أيام السلم . كان لابد من الانتظار حتى يتقدم بهذا الاقتراح - بعدمعركة كامبو فورميو Campo-Formio - المارشال جوردان وزير الحرية حينئذ (٥ سبتمبر ١٧٩٨) . وظل قانون القرعة العسكرية conscription هو المعمول به حتى نهاية عهد الإمبراطورية . وبمقتضى هذا القانون كان جيش أيام السلم يتم التجنيد له بالقيود الاختياري ، يكمله في حالة الضرورة الاقتراع . وكان هذا يشمل - دون إعفاء ما - الرجال من العشرين إلى الخامسة والعشرين ، وكانوا يطلبون على درجات بدءاً بالأصغر سناً .

فأداة الغزو في عهد نابليون إذن كانت قد صنعتها الثورة ، ووجهها الإمبراطور توجيه الخير وإن لم يعد لها إلا قليلاً جداً ، وكيف كان يسمح

له الوقت حينئذ أن يجرى عليها التعديل ؟ لقد خفف نظام الاقتراع بدفع
 « البدلية » ، وكان عدد الرجال الذين يجندون كل سنة يحدده مجلس الشيوخ .
 وفيما بين سنتي ١٨٠٠ ، ١٨١٢ جند نابليون مليون ومائة ألف رجل (أى
 ما يعادل ٣٦ ٪ من المقيدين) . واستمرت عملية الضم ، فكان المجندون الجدد
 يصبون في الوحدات المقاتلة دون ثقافة سابقة . وظهرت الآليات تحمل من
 جديد محل انصاف اللوايات بما يتماشى مع تقاليد الجيش الملكي : فكان عدد
 المشاة منها ٩٠ آلاى ميدان و ٤٦ آلاى خفيف (١٨٠٣) . وبعد ذلك بعشر
 سنين بلغت الكتائب ٢٤٣ : ارتفعت الفرسان من ٨٠ إلى ٩٣ آلاى من
 المدرعين والفرسان الخفيفة وجنود الطليعة الأقوياء وحاملي البنادق والممالك
 ذات الملابس الملونة . والمدفعية هي الأخرى ارتفعت أرقامها : ففي عهد
 القنصلية أعيد تنظيمها ، فتكونت لأول مرة آليات مترجلة ، وست كتائب
 راكبة و ٨ كتائب لخدمة المدفعية . وفي سنة ١٨١٣ كان عددها قد تجاوز
 ٨٠ ألف رجل . وتنظيم « تنقلات » المدفعية هو أهم إصلاحات نابليون في
 مجال الحرب . إذ كان يسمح بوجود مدفعية دائمة التحرك ، وهو عنصر
 أساسى في تكتيك نابليون .

أما التسليح فقد ظل هو تسليح الثورة : المشاة سلاحها البندقية من
 طراز ١٧٧٧ التى تطلق أربع طلقات في ٣ دقائق وتصل قدرتها في الرمي إلى
 ٢٠٠ متر . وبقيت أسلحة المدفعية على ما كانت عليه في عهد جريبول
 (القطع عيار ٤ ، ٨ ، ١٢) التى يصل هدفها نظرياً إلى ٣٠٠٠ متر ولكن تقل
 في العمل إلى ١٥٠٠ متراً فقط . واضطرت سياسة القارة نابليون أن يزيد
 عدد جنوده باستمرار . ففي موقعة أوسترلتز كان معه ٧٢ ألف رجل ، وفي
 واجرام ١٨٠ ألف . إلا أنه باضاعة جيش أسبانيا وإيطاليا يرتفع العدد إلى
 ٥٢٠ ألف مقاتل و ٧٠٠ ألف تجرى تبعيتهم . ومنذ ذلك التاريخ تطرد

باستمرار زيادة الأرقام سواء في المجندين تحت الطلب (٨٠ ألف إلى ١٢٠ ألف رجل) وفي طلب المقترعين الجدد المختلفي الأعمار (٢٠ - ٢٥) مقدما . فنجد الجيش العظيم، (١٨١٢) تعداده ٧٠٠ ألف رجل منهم ٣٠٠ ألف من الفرنسيين و ١٨٠ ألف من الألمان ، ٣٠ ألف نمسوي ، ٢٠ ألف بروسي ، ٩٠ ألف بولوني ، ٣٢ ألف إيطالي ، ٤٨ ألف إيليري (١) وإسباني . هذه الكتلة الضخمة مندمجة في أسلحة الجيش المختلفة ومقسمة من اثنين إلى أربعة فرق من المشاة وفرقة من الفرسان الخفيفة . وإنما يرجع تاريخ هذه الوحدة الكبيرة ، (الفرقة division) - التي هي إحدى أسس الجيش الحديث - إلى معسكر أقيم في بولونيا (١٨٠٣) .

لم يقلب نابليون إذن شيئا من أعمال الثورة ؛ فالجيش الامبراطوري - رغم وجود الجنود من مختلف البلاد التابعة - ظل جيشا وطنيا ، بل إنه في اللحظات الحاسمة من عامي ١٨١٣ ، ١٨١٤ هيا المجهود الحربي لظهور « الشعب المسلح » .

وفيما بين ١٨١٥ ، ١٨٧٠ كان النظام المعمول به هو نظام القرعة وقد أبقت قوانين ١٨١٨ ، ١٨٣٢ ، ١٨٦٨ على مبدأ شمول الخدمة الاجبارية . إلا أن عهدي البعث وعودة الملكية هما عهدا سلام ، والحاجة إلى الرجال فيها ضئيلة ، ولذا لم يطلب للجندية إلا جزء فقط . وفي سنة ١٨١٨ قدر الملك جوفيون سان سير Gouvion Saint-Cyr العدد الكلي بمائتين وأربعين ألف رجل عن طريق تجنيد أربعين ألف سنوياً يختارون بالقرعة . (وهذا هو الطلب - l'appel) . وكان الاستبدال معترفا به ، ومدة الخدمة ست سنين ، وأبقى الملك سولت (١٨٠٩) على هذه الطريقة ، ولكنه ترك للحكومة مهمة

(١) إحدى مناطق البلقان الجبلية على بحر الأدرياتيك اتحدت في عهد الامبراطورية الأولى (١٨٠٩ - ١٨١٤) مع دالماتيا . وسكانها من السلاف . وعاصمتها ليانج . (الترجم)

تحديد عدد من يتم قبولهم في الفرز السنوى . ورفعت مدة الخدمة إلى سبع سنين . وفي سنة ١٨٤١ كان عدد الجيش ٣٠٠ ألف رجل . إلا أن طول مدة الخدمة واتباع نظام الاستبدال قد جعلاً من هذا الجيش القومى في ظاهره « جيشاً حرفياً ، لا يضم إلا الغدائين أو المحتاجين .

وظلت الامبراطورية الثانية على هذه الحال ؛ ولكنها زادت طابع الارتزاق بقانون الاعفاء exonération (١٨٥٥) ؛ حيث كان يمكن التخلص من الخدمة العسكرية بدفع مبلغ إلى «خزينة أوقاف الجيش ، يستعمل في دفع رواتب المتطوعين . وفكر أيضاً في ضرورة تعديل نظام التجنيد ، لأن الاستبدال لم يكن يأتى دائماً إلا بعناصر أقل قيمة . والحق أن هذا الإصلاح لم يصبه التوفيق . فإن الجيش وقد اقتطع هكذا من الأمة بدأ يفقد مزيتة ، وبانطوائه على نفسه في الوقت ذاته انحدر إلى هوة من التفاهة هي التي تمخضت عنها مصائب سنة ١٨٧٠ . فلم تتردد السلطات في اعتبار الخدمة العسكرية من بين النكبات التي يجب أن تتفادى بها هذه الأخطار ، إلا أن تدليل السلطات للجيش في عهد نابليون الثالث - حين كان أقوى سند لها - قد أفقد الجيش الحرفى في فرنسا مكانته كما لم يفقدها من قبل .

على أن ذكرى الجيش القومى الذى نبع من الثورة لم تكن مع هذا قد نسيت . فقد ظلت قائمة في شخص «الحرس الوطنى» الذى كان قد أعاد تنظيمه خلال حكم المائة يوم كارنو Carnot ولم يحل إلا في سنة ١٨٢٧ ، حلة شارل العاشر بسبب طابعه «البورجوازى» جداً . وهو عينه السبب الذى من أجله بعث سنة ١٨٣١ (قانون ٢٢ مارس) . وإذ كان لا يجند به إلا الذين يدفعون ضريبة معينة؛ فقد اتخذ طابع الجيش الراقى Milice de classe، وإن كان عليه في حالة الخلاف «أن يتلو جيش الميدان في الدفاع عن البلاد وحدودها» وبصفة

عامة كان رجاله يكونون ، الاحتياطي ، في وقت الحرب . وقد أهملهم الامبراطور حتى ١٨٦٨ وهو التاريخ الذي فيه أعيد تنظيمهم تحت اسم ، منظمات الحرس الوطني ، لكي يلتزم الرجال الذين لم يطلبوا للجيش ويقوى الجيش العامل في حالة الضرورة . وكان لابد أن يظهر غمبتا Gambetta ليدفع به إلى القتال بعد انهيار الجيش الإمبراطوري .

فالفترة الطويلة التي تمتد فيما بين سقوط نابليون الأول وسقوط نابليون الثالث قليلة الأهمية من الناحية العسكرية ، إذ يخف بها كارثتان عظيمتان . ومع هذا فقد مرت بالجيش فترات لامعة ، أثناء حملات حروب القرم ، وإيطاليا ، والمكسيك ؛ لامعة أكثر منها عصيبة . ولكن عهد الملكية الموسوم بالإتاوة Monarchie censitaire قد عمل - في هدوء وكنهان - عملاً أحسن : فأنشأ جوفيون سان سير سلاح المهمات وهيئة أركان الحرب ومجلس الحرب الأعلى . كما أعاد تنظيم المدفعية الجنرال فاليه Valée الذي جمع سرية من المدفعية وأخرى من الناقلات - مكلفة بنقلها لتكون منهما بطارية ، بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، بينما قنع نابليون الثالث بتعديلات أدخلها على التسليح : البندقية ذات الماسورة المششخنة (١٨٥٧) وذات الإبرة التي اخترعها شاسبوا Chassepot (١٨٦٦) ثم المدفع ذي الماسورة المششخنة منذ ١٨٥٨ .

وكانت ١٨٧٠ سنة عصيبة استدعت وثبة وطنية : فرأينا من آلايات الميدان ، والحرس الوطني ، والمدنيين المعبئين ، والهيئات الحرة الفرنسية خمسة وخمسين ألف رجل في الحملة يهبون استجابة لنداء غمبتا . إلا أن الحرس الوطني باتحاده مع جمعية الثورة التي كانت قد أنشئت حينئذ التي معها في باريس وفي الأقاليم في أغسطس ١٨٧١ . وتم تجديد الجيش إذن : تسيطر عليه ذكريات هذه الأيام المحزنة . فضغط طويلاً ؛ بما جعل للمشكلة العسكرية من مظهر سياسي

خالص . ومنذ ذلك الحين وجدنا في الجيش رأي «حزب اليمين» ورأي «اليساريين» في استقلال أغلب الأحيان عن كل اعتبار قى . وهكذا نشهد فيما بين ١٨٧١ و ١٩١٤ صراعا بين أنصار «الجيش المحترف» ، و«الشعب المسلح» ، (إذ نشأت الكلمة منذ ذلك الحين قبل أن تظهر الفكرة ذاتها). إلا أن الأحداث حيثئذ - وخصوصاً تسليح ألمانيا - قد فرضت حلولاً بالرغم من الخلافات في الرأي . فأعلن قانون ١٨٧٢ فرض الخدمة الإجبارية على الجميع بأشخاصهم دون استبدال ما . ولكن لما كان الرقم محدوداً ولا يتجاوز ٤٠٠ ألف رجل ، فقد كان الاقتراع السنوى مقسماً إلى قسمين ، والاختيار يتم بسحب القرعة : فواحد من القسمين يقوم بالخدمة العسكرية لمدة سنة ، والآخر لخمس سنين ، وكانت الإعفاءات منه عديدة .

كان هذا إذن انتصاراً لفظياً لأنصار الكتل المسلحة ، وفي الحقيقة استمراراً لنظام يجاور نظام الجيش المحترف الذى نصب تيير Thiers نفسه للدفاع عنه بحماسة . ولاشتداد الهجوم على هذا القانون منذ البدء بسبب عدم المساواة في التكاليف التى كان يفرضها على المواطنين . فقد عدل في سنة ١٨٨٩ وفي هذا التاريخ أصبحت الخدمة العسكرية بحق شاملة . فكان جميع المواطنين يطلبون لثلاث سنين عدداً وحيهض الأسيرة وجاملى دبلومات معينة . وهؤلاء يخدمون لمدة سنة (قانون فريمينيه) وهو رجوع إلى نظام الجيش القومى الحقيقى ، فى احتفال فرنسا بالعيد القومى للثورة . وثمة تعديل آخر (١٩٠٥) يخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين ليجعلها متساوية بالنسبة للجميع . ولكن الموقف الدولى أجبر فرنسا على رفع المدة إلى ثلاث سنين (وذلك بقانون ٧ أغسطس ١٩١٣) ، وفى هذا التاريخ بلغت أرقام (فترة السلم) ٧٦٠ ألف رجل .

خطة الأربعة والأربعين سنة الطويلة هذه (١٨٧٠ - ١٩١٤) قد استغلها

الجيش جيداً إذ تناوله التجديد التام في كافة نواحيه . فوضع قانون ١٨٧٣
أسس التنظيم العسكري : إنشاء ١٨ فيلق كل منها تنقسم إلى فرقتين ؛ وتنظيم
كل فرقة عبارة عن أربع آليات مشاة ولواء فرسان ولواء مدفعية وكتيبة
مهندسين وكتيبة ناقلات . كما أعيد تنظيم القيادة والتعليم العالي بإنشاء مدرسة
أركان الحرب العامة في ١٨٩٠ وبإعادة تكوين مجلس الحرب الأعلى في
سنة ١٨٧٢ والكلية الحربية ١٨٨٠ .

وساير التسليح التقدم العلى ، ففي سنة ١٨٨٦ كان المشاة مزودين
ببنديقية ليبل Le be أول سلاح سريع الطلقات (بدون حاجة إلى حشوه كل
مرة) أدخلت عليه فيما بعد تحسينات كثيرة . كما أن المدفعية قد تغيرت من
أساسها تماماً . ففي سنة ١٨٧٣ ظهرت أول مدافع تعمر من الخلف (المؤخرة)
وفي ١٨٧٥ ظهرت أول قطعة مصنوعة من الصلب (بدلا من البرنز) ثم أخيراً
في سنة ١٨٩٣ يظهر مدفع (٧٥ مليمتراً) المشهور - الذي كانت الثقة فيه بحيث
تؤدي إلى إهمال المدفعية الثقيلة تماماً . وفي سنة ١٩١٤ لم يكن ثمة - في الحملة - غير
خمس آليات ثقيلة مزودة بأسلحة قديمة . وأخيراً فانه منذ ظهرت السيارة
والطائرة تعلق الجيش بهما . فرأينا في سنة ١٩١٠ ، تفتيشاً دائماً للطيران
الشراعى ، ملحقاً بسلاح المهندسين . وفي سنة ١٩١٤ كانت فرنسا تحوز
ثلاثة وعشرين سرباً وخمس أسراب استكشاف ، واثني عشر جماعة من
المناطيد المعلقة (الثابتة) .

هذا هو الجيش القومى بحق الذى أعده جوفر Joffre ليحقق به خطة
التعبئة رقم ١٧ في أغسطس ١٩١٤ . إذ دبر تجهيز ٩٤ فرقة من الجيش بلغت
جملتها مليون و ٨٦٥ ألف مقاتل . وهو رقم يتجاوز بكثير نظام ، التعبئة العامة ،
فنحن هنا على أعتاب نظام ، الشعب المسلح ، .

٢ - الجيش الألماني

الجيش الألماني امتداد للجيش البروسي بحيث أن سنة ١٨٧٠ لا يمكن أن تعد فاصلاً في التاريخ العسكري لألمانيا . فقد انتظم هذا الجيش - كما انتظمت الامبراطورية - على النمط البروسي .

لقد حدثت هزيمة سنة ١٨٠٦ عدد الجيش الألماني بمائتين وأربعين ألف رجل دون أن يتغير النظام العسكري الذي يضطلع فيه الملك بالقيادة Roi-Sergent فلا زال ثمة نظام « القرى » ، والأقاليم . كما لا يزال نظام الإعفاءات ، وإن كان تجنيد الأجانب قد قضى عليه ، والتمرين المعروف باسم Krumper (أى التعلم السريع في ظرف شهر لجنود يحل محلهم آخرون مباشرة) قد أعطى لهذا الجيش أساساً قومياً إلى حد كبير . وليس إلا في سنة ١٨١٣ - خلال حرب التحرير - حيث أخذ بنظام الخدمة العسكرية الإجبارية كاجراء ثورى . بدأ به الجنرال « يورك » ، حاكم بروسيا الغربية . فقد استدعى الرجال من سن الثامنة عشرة إلى الأربعين ليكونوا وحدات الجيش الإقليمي Landwehr بينما كون من غير المنضمين (من سن الثامنة عشرة إلى الستين) جيش الهجوم Landsturm وقد رسم شارنهورست Scharnhorst لذلك هذا النظام ، وبه صدر أمره في فبراير ١٨١٣ الذي أمكن به جمع ٢٥٠ ألف رجل . وهو بالنسبة لبلد عدد سكانه ٥ مليون مجهود يفوق بكثير « التعبئة العامة » سنة ١٧٩٣ .

وقد أدى السلم إلى نقص هذا العدد . ومع هذا ظل الجيش البروسي جيشاً قومياً . وأبقى قانون ٣ سبتمبر ١٨١٣ على الخدمة العسكرية الإجبارية - تماماً كقانون جوفيون - سان سير في فرنسا سنة ١٨١٨ ، والفرق بينهما فقط إنما هو في تنظيم الاحتياطى ، بما جعل للجيش البروسي ميزة

جدية الخدمة الإجبارية ورفع عنه في الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨٧٠ كل طابع احترافي . فكل شخص من الرعايا البروسيين في سن العشرين خاضع لواجبات عسكرية إجبارية مدتها ثلاثون سنة موزعة هكذا : ٣ سنوات في الجيش العامل ، سلتان احتياطى ، ست سنوات في الجيش المحلى Landwehr (الدفاعى) دفعة أولى ، و ٧ سنوات في نفس هذا الجيش دفعة ثانية ، ثم عشر سنوات في جيش الهجوم Landstorm . والجيش الدفاعى (الإقليمى أو المحلى) في الدفعة الأولى يكمل الوحدات الكبرى في وقت السلم ، وهو جزء من جيش الغزو ، بينما الدفعة الثانية مجالها حراسة الأماكن . أما جيش الهجوم فلم يكن يستدعى إلا في حالة الغزو . وكان اختلاط فرق الجيش العامل وجيش الدفاع الإقليمى أثناء التعبئة مما يمكن تلافيه .

وظل هذا التنظيم الأساسى حتى سنة ١٩١٤ مع تحويرات في التفاصيل . وأخص ما تفصح عنه هذه التحويرات الزيادة المستمرة في أرقام السلم ؛ تلك الأرقام التى طفرت من ١٢٥ ألف رجل سنة ١٨١٦ إلى ٣٠٠ ألف سنة ١٨٦٦ .

ولما عين الإمبراطور وزيره بسمارك حامل أختامه وأراد له أن يحمل البرلمان على الإصلاح العسكرى ١٨٥٩ - ١٨٦٠ ، استطاع هذا أن يتأدى إلى خطط سياسية كثيرة . ففي سنة ١٨٦٦ وجه إلى النمسا ٦٦٢ ألف جندى و ٨٤٠ مدفعاً . وفي سنة ١٨٧٠ سحق جيش نابليون الثالث بجيش غزو قوامه ٦٩٧ ألف رجل يمثلون مليون و ١٦٨ ألف في حالة تعبئة وبمدفعية قدرها ٢٠٥٠ مدفعاً .

كما أن الجيش البروسى كان قد اضطلع بمجهود تنظيمى ضخم تمثل منذ حوالى سنة ١٨٧٠ في طابعه الحديث الذى تجلى بوضوح . فنذ ١٨١٤ كان

ينتظم أسلحة الجيش الحديث المختلفة. وتنوع تركيب هذه الأسلحة من حيث زيادة عدد الفرسان - التي انتظمت فرقاً منذ سنة ١٨٥١، والمدفعية التي تكونت منها كتبة من ٩٦ قطعة . هذه الوحدة الكبيرة التي نظمت على أساس التخصص الإقليمي كانت تهيم للجيش في وقت الحرب التضمينات المناسبة كما كانت تسهل عمليات تحركه . وقد ظهر تفوقها وامتيازها سنة ١٨٧٠ . فقد تحرك الجيش البروسي بكل نظامه وكامل معداته بين يومى ١٦ و ٢٤ يوليو بينما تحركت فرنسا - التي كانت قد هجرت هذه الوحدة - في فوضى تامة .

وكان العتاد الحربى هو الآخر يمثل تفوقاً ملحوظاً . فمنذ ١٨٥٨ كان لدى بروسيا مدافع تعمر من المؤخرة ، وفي العام التالى جرى صنع ٣٠٠ مدفع عيار ٩٠ مليمتراً . وبذا كانت مدفعية بروسيا تسبق المدفعية الفرنسية بخمس عشرة سنة . ومنذ ذلك الحين تقرر أن يتبع التلغراف والسكك الحديدية في حالة التعبئة العسكرية رئيس هيئة أركان حرب الجيش . ونحن نعلم كيف استطاع فون مولتسكه Von Moltke أن يسخر شبكة السكك الحديدية تسخيراً رائعاً يتحقق معه تجميع وحدات الجيش . فقد تم نقلها فيما بين ٢٤ يوليو و ٥ أغسطس على تسع خطوط مختلفة بسير عليها من ١٢ إلى ١٨ قطاراً في اليوم . وأخيراً فمنذ ١٨٥٨ كلف مكتب مركزى خاص بأن يدرس في وقت السلم مسائل الإمداد والنقل .

وقد نظم جيش ألمانيا سنة ١٨٧١ على النمط البروسى بمقتضى الفصل الحادى عشر من دستور الإمبراطورية . كان على الألمان جميعاً أن يقوموا بالخدمة العسكرية اثنتى عشرة سنة . ثلاثة في الجيش العامل ، وأربعة في الاحتياطى وخمسة في جيش الدفاع المحلى . والعدد الكلى يحدده لسبع سنين مجلس الريشتساغ . وتاريخ الريح الثانى (الإمبراطورية الثانية) ملئ كله

بالمساومات المستمرة بين أمين الملك والأحزاب لكي ينتزع منها الزيادة في الاعتمادات اللازمة لسياسة التوسع المستمرة في الطموح التي رسمها بسمارك ثم من بعده غليوم الثاني . وهكذا رأينا أرقام السلم ترتفع من ٣٥٩ ألف رجل في سنة ١٨٧٢ إلى ٦٧٨ ألف سنة ١٩١٤ . وكان جيش تحت الطلب يزيد بطبيعة الحال بنفس هذه النسبة فيرتفع من مليون وأربعمائة ألف سنة ١٨٧١ إلى ٣ مليون و٨٢٢ ألف سنة ١٩١٤ .

وتعهدت هيئة أركان الحرب الألمانية بالاستمرار في إطار التقدم الذي كانت تضطلع به هيئة أركان الحرب البروسية ، ففي سنة ١٨٩٩ أعيد تنظيم المدفعية تنظيمًا كاملاً . فأصبحت كل فرقة منها تشمل آلايين من المدفعية (٧٢ قطعة عيار ٧٧ مليمتر سريعة الطلقات) كما أن كل أسلحة الجيش قد زودت بالمدفعية الثقيلة : قاذفات قنابل عيار ١٥٠ ومدافع الهاون الثقيلة عيار ٢١٠ . هذه المدفعية الثقيلة هي التي سوف تضمن أولى انتصارات سنة ١٩١٤ وفي سنة ١٨٩٩ ظهرت أولى المدافع الرشاشة في فرق الفرسان . فكان لكل فرقة وحدتها . كما سلم هذا السلاح للشاة ابتداء من ١٩٠٩ ، وفي سنة ١٩١١ كان بالجيش الألماني ١٠٧ سرية كل منها ذات ستة مدافع رشاشة . وكانت أهمية نقل الإمدادات قد فهمت منذ زمن طويل . فأنشئت في سنة ١٩٠٥ وحدة لاسلكي . وبعد سنتين كان لدى كل فرقة مخبرات واحدة منها واستأثرت الطائرة أخيراً باهتمام هيئة أركان الحرب ، فظهر أول الأسراب سنة ١٩٠٧ . فبعثاده الحديث جداً وأرقامه التي تفوق تفوقاً محسوساً أرقام الجيش الفرنسي ، كان جيش ألمانيا القومي أدنى هو أيضاً إلى أن يكون « شعباً مسلحاً » .

٣ - الجيش الروسى

لم تعرف روسيا حتى القرن السابع عشر جيشاً منظماً . وإذا لزم الأمر كان القيصر يجند رجال الخدمة العسكرية ، من بين عبيده ، يضاف إليهم من يسمون Streltzi أى الرماة ، الذين كانوا يكونون منذ إيفان المرعب Ivan le terrible طبقة من الجنود الوريثين ، وكذلك القوزاق Cossacs (الرجال الأحرار بلغة التتر) الذين تآخوا مع الروس منذ القرن السادس عشر . وفى عهد ميشيل رومانوف (١٦١٣ - ١٦٤٥) أصبح الجيش دائماً ، وذلك بإنشاء كتائب من الأجانب (خصوصاً الانجليز والألمان) واتخذ طابعاً ملكياً واضحاً فى عهد بطرس الأكبر الذى جعل من الكتيبتين اللتين كان يلعب بهما الحرب أثناء طفولته نواة الجيش الجديد . والخدمة العسكرية الإجبارية قائمة ، ولكنها لاتقع إلا على عاتق الأرقاء .

وسوف يحتفظ الجيش الروسى خلال قرن ونصف من الزمان بهذا الطابع ، طابع العهد القديم . كانت الخدمة العسكرية تستمر خمسة وعشرين سنة . فكان الكل يتهربون إزاء هذه الحالة خصوصاً وأن النظام المقتبس عن الجيش البروسى فوق هذا كان صارماً . والواقع أن هذا هو مذهب الجيش المحترف . وفى سنة ١٨٧٤ رسم الإصلاح الذى قام به مليونتين Miliontine الخدمة العسكرية الإجبارية ووضع بداية الجيش الوطنى فى روسيا . فالجنود يطلبون للقرعة حتى يصل المقترعون إلى عدد يعينه من الرجال المطلوبين يحدد كل سنة . وفضلاً عن هذا كان المعفون (وحيث الأسرة ، رجال الدين ... الخ) عددهم كبير ، ومدة الخدمة ست سنين فى الجيش العامل

(١) هو إيفان الرابع ملك روسيا (١٥٣٣ - ١٥٨٤) أول من لقب بالقيصر . وسمى فوق هذا باسم « قائد البلاد الروسية الأعظم »
(المترجم)

وتسعة في الاحتياطي وخمسة في الجيش المحلي . وتنقص مدة الخدمة إلى ستة شهور لحاملي شهادات معينة . وفي سنة ١٩٠٦ ، في اليوم التالي لحرب منشوريا ردت مدة الخدمة إلى أربع سنين كما قسمت مدة الاحتياطي إلى ٥ دفعتين ، متساويتين والرجال الذين كان يجري تجنيدهم بهذه الطريقة سنويا يبلغون ٤٢٠ ألف رجل . إلا أن النقص (لكثرة المعفين والمعاقين) كان كبيراً جداً . ولم يكن المجندون يمثلون أكثر من ٢٤٪ من المقيدین (يقابله في فرنسا ٤٨٪) وفي ذلك الحين كانت روسيا تستطيع أن تدفع إلى الحرب في أوروبا بمليون ٩٥٠ ألف مقاتل . وظل عدد المجندين يتزايد بنظام حتى ١٩١٤ حين استطاعت روسيا أن تنزل إلى الميدان ثلاثة ملايين من الرجال .

وبرزت أمام القيصر مشكلة خاصة ، ونعني بها مشكلة تجنيد الأجناس الأخرى من غير الروس ، فقد كان الجيش دائماً الأداة الرئيسية لتنفيذ سياسة طبع الخلفاء بالطابع الروسي . وكانت الحكومة ترتبط بأن تحتفظ في كل سلاح من الجيش بالنسبة بين الروس وغيرهم من الأجناس الأخرى الذين وجدوا في داخل البلاد جميعها (وهي نسبة الربع) فكان بروز العنصر الروسي بهذا محققاً حتى في داخل الفرق البولونية والقوقازية ذاتها . ومشكلة أخرى هي وجود القوزاق Les Cosaques ففي سنة ١٨٧١ فقط أدخلوا في الجيش النظامي بواقع آلاي لكل فرقة في الفرسان ، أما بقيتهم فكانوا يكونون فرقاً ذاتية خاصة تجنيدها إقليمي صرف ، فكانت خدمة رجال الريف hommes de la steppe هؤلاء أطول وفضلاً عن هذا كان عليهم أن يقوموا بامداد أنفسهم وإعداد دابتهم .

وكان الجيش الروسي مقسماً على مناطق عسكرية يقع عبؤها على عاتق الحكومات وتشمل من فيلقين إلى خمسة فيالق وهذه تشمل بدورها فرقتي مشاة وفرقة فرسان ولوائين من المدفعية . وكانت الفرقة قوامها أربع آلايات .

وفي كل آلاى أربع كتاب . ومنذ سنة ١٩٠٩ كان لكل آلاى مدفعية جماعة من ٨ مدافع رشاشة كما كان كل فيلق في الجيش مزودا بمائة واثنتي عشرة قطعة حربية - ولكن العتاد كان قديماً نوعاً ما (١٩٠٢) . وفي بداية الحرب كان الجيش الروسى - على عرافة تقاليد في التفوق من حيث المدفعية - تنقصه المدافع الثقيلة .

٤ - الجيش الإيطالى

كان جيش سردينيا في عهد كافور أداة الوحدة الإيطالية الكبرى . وعن هذا الجيش نشأ جيش مملكة إيطاليا القومى . وقد نظمه فيما بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٥ الجنرال ريكوتى Ricotti على غرار الجيش الألمانى . فأعلنت إذن الخدمة العسكرية الإجبارية . ولم تسمح الزيادة السريعة في السكان (الذين زادوا من ٢٦ مليون إلى ٣٥ مليون نسمة فيما بين سنتي ١٨٧٠ و ١٩١٤) بتجنيد كل الرجال تحت الطلب . كما أن الموارد المالية لم تكن تكفى لذلك . وقدر قانون ١٨٩٧ أن مدة الخدمة ثلاث سنين وعدد الرجال ٢٢٥ ألف رجل . وفي سنة ١٩٠٧ قللت مدة الخدمة إلى سنتين ، فإذا أضفنا إلى هذا أن الهجرة الخارجية كانت تضيق على الدولة نسبة ٨ إلى ١٠ في المائة من الرجال تحت الطلب ، فقد أمكن إذن تجنيد الباقين جميعاً (ولندخل في حسابنا أيضاً حالات الإعفاء الكثيرة لرجال الدين ووحيدى الأسرة ...) .

ولكى يفيد في توحيد البلاد كان توزيع المقيدى للخدمة ، يتم في محيط الأمة بكاملها . فكانت الوحدات المحلية في منطقة ما تستقبل مجندى جهة أخرى من البلاد ثم يتبادلون المراكز (الحاميات) بعد بضع سنوات . وقسمت البلاد إلى ١٢ منطقة في كل منها أحد فيالق الجيش . إلا أنه على

عكس ما كان في فرنسا وألمانيا ؛ كانت الحاميات في وقت السلم لا ترمى إلى إنشاء وحدات حقيقية كبيرة . فبعض الأقاليم التي فيها حاميات عسكرية لم يكن بها فرسان ، والبعض الآخر ليس به مدفعية . فلم تكن إيطاليا إذن تعرف إنشاء هذه الوحدات مع أنها وحدها التي تسمح بالتحركات السريعة . ووصلت الأرقام الكلية للجيش المعبأ ليلة الحرب العظمى إلى مليون و ٨٠٠ ألف رجل منهم أكثر من مليون مقاتل .

وكان تسليح المشاة ببندقية ماملير كوركانو Mamlicher Corcano السريعة الطلقات والمدافع الرشاشة ماكسيم Maxim (اثنان فقط لكل آلاى) مماثلاً لما كانت عليه الحال في جيوش أوروبا الأخرى . أما المدفعية فعلى العكس كانت قليلة القيمة ، ولكن أعيد تنظيمها تماماً منذ سنة ١٩١٠ . فأمدتها كرب Krupp بالقطع عيار ٧٧ . كان الطيران من الناحية العملية لا وجود له ، ولكن الجيش الإيطالي كان غزيراً بطائراته المطاردة .

ولم يكن لهذا الجيش تقاليد . وظلت روحه المعنوية ضعيفة أو عادية . فكان الشعب ينفر من الخدمة العسكرية كما كان يحتقر الضباط . وكانت تجربة الحرب العظمى إذن نذيراً خاصاً به شديد الخطر عليه .

الفصل السادس

الجيش المحترفة

في مقابل كتل الجيش القومى توجد فرق الجيش المحترف القليلة العدد
مقد عرفت فرنسا - كما رأينا - هذا النظام الأخير فى الواقع - إن لم تكن
عرفته من الناحية القانونية - فى عهد الامبراطورية الثانية . ومنذ ذلك الحين
تأرجع رجال السياسة والعسكريون فى هذه المسألة : الجيش القومى أم الجيش
الحرفى . ولأسباب سياسية (ولكى لا يسلم جنود بلدية باريس)
Communards اختار تيير Thiers الحل الثانى . أما فى أيامنا هذه فيقوم
الترجيح بالأحرى على أسباب فنية : فالطابع العلمى أكثر الذى تمتاز به
الحروب الحديثة يضع الفنيين من المتخصصين فى المقام الأول . ولا يستطيع
أن يكون كذلك إلا الرجال الذين يخدمون أمدا طويلا . تلك هى نظرية
الجنرال دى جول .

ونقترح موضوعا للدراسة فى هذا الصدد البلاد الأنجلوسكسونية التى جرت
تقاليدها على معاداة الخدمة العسكرية الإجبارية .

١ - الجيش الانجليزى

كانت إنجلترا حتى يناير ١٩١٦ تنفر من نظام التجنيد الاجبارى
Conscription وتعمل لإلغاء بمجرد أن انتهى الحرب العظمى . وارتفعت
بعض الأصوات فيما وراء المانش (منذ ١٩٢٥) طالب باعادة هذا النظام

ولكن الرأي العام لم يكن مستعداً لأن يصنى إلى شيء من هذا . فكان لابد أن تصبح الحرب وشيكة حتى تقوم إجراءات الاستعداد . وهكذا ظهر قانون ٢٥ مايو ١٩٣٩ خاصاً بالقوات الاحتياطية والمساعدة . وأخيراً أعيد نظام القرعة في أول سبتمبر ١٩٣٩ عندما هاجمت الفرق الهتلرية بولونيا . ولا يزال الإنجليز الآن أعداء الخدمة العسكرية الإلزامية . وبعض الزعماء العسكريين في بريطانيا العظمى - كالمارشال مونتجومري - لا يخفون تفضيلهم للنظام الذي خرجت عليه تقاليدهم .

والجيش الإنجليزي مزدوج : فهو يشمل الجيش النظامي والجيش الإقليمي . هذا الأخير الذي كان يسمى فيما مضى الجيش المحلي Milice كان يجند بالاقتراع حتى سنة ١٨٢٩ ثم بالتعاقد الاختياري لمدة ست سنين . وكبدأ لا يقوم الجيش الإقليمي بالخدمة إلا في إنجلترا . وفي سنة ١٩٣٩ كان هذا الجيش المحلي يبلغ في مجموعه ١٣٥ ألف رجل . أما الجيش النظامي فهو جيش مستعمرات ، بالمعنى الصحيح ، وهذا هو طابعه الخاص ، وفي مطلع هذا القرن كتب أحد المؤلفين إن « حاميات إنجلترا ليست إلا حجرات انتظار ملحقه بمحطات ركوب السفن » . كان آلاى المشاة في الواقع يتكون من كتيبتين : واحدة في الداخل والأخرى بالخارج . مهمة الأولى تلتقى المجندين وإعدادهم وتعليمهم . أما الأخرى فيقوم بحال خدمتها بعيداً - وهذا نظام كارديويل Cardwell . والكتيبتان - كلتاهما غريبة على الأخرى - لم تكونا لتلتقيا قط ، مالم يكن ذلك بمحض الصدفة : عندما تلتقى أحدهما بالأخرى في قتال السويس ، . وكانت مدة التعاقد على الخدمة قد بما اثنتى عشرة سنة ثم سبع سنين . ثم خفضت إلى ثلاث سنين أيام حرب الترنسفال . وفي سنة ١٩٣٣ كان عدد الجيش النظامي ٢٠٠ ألف رجل .

وقد أظهرت حرب البوير ثغرات كثيرة : فالمدفعية غير كافية وتنقصها

الخيول ، كما تجلى عدم وجود وحدات أكبر من الآلى ... الخ . قامت
بجهودات جدية هيات للفرق الستة هذه أن تتجلى على القارة (فى أغسطس
١٩١٤) حول مونس Mons وإيبر Ypres .

ومنذ نهاية الحرب تعلق الجيش الانجليزى بالناحية الآلية (المحركات)
فكان الاهتمام بالحركة وسرعتها أكثر من الاهتمام بالأمان . كانت السيارة
الفيكرز (حمولة ١١ طن وسرعة عشرين ميلا فى الساعة) هى النموذج الأساسى
وكان لابد أن تفوقها السيارات الألمانية فى ليبيا (١٩٤١) وعلى عكس هذا
كانت الأسلحة النارية المعطاة لكل قسم من أقسام الجيش أقل مما أعطى
لمثله فى جيوش القارة ومع هذا فقد أبليت الفرق البريطانية التسعة بلاء حسنا
فى موقعة الفلاندرز (مايو ويونيو ١٩٤٠) . وكان من الواضح أن هذه
الفرق البرية البريطانية غير كافية بالنسبة لقارة مسلحة كأوربا . ويبدو أن
المجهود المتصل الذى تطلبت الحرب قد أجهد الشعب البريطانى . فالمشكلة
العسكرية هى المشكلة الراهنة فيما وراء المانش .

٢ - الجيش الأمريكى

والأمريكيون بدورهم يجمعون من الخدمة العسكرية الاجبارية . فقبل
قبل الحرب العظمى سنة ١٩١٤ لم تعرف الولايات المتحدة نظام القرعة إلا
مرة واحدة ، أثناء حرب الانفصال G . de Secession (١) فقد كانت

(١) حرب الانفصال Guerre de Secession هى الحرب الأهلية التى نشبت سنة
١٨٦١ بقصد إلغاء الرقيق فى الولايات للتحدة التى استمرت حتى ١٨٦٥ . فقد كان انتخاب كبير
أنصار التحرير لنسكولن (١٨٦٠) إشارة البدء فى هذه الحرب ضد الولايات التى لم تتحرر
من الرق والولايات المتحررة التى كسبت للعركة بعد أربع سنين من التضال وقد سمي أنصار
الرق (فى ولايات الجنوب) الجنوبيين Sudistes أو للتعاهدين Confédérés بينما سمي
أنصار إلغاء (فى ولايات الشمال) الشماليين Nordistes أو للتعاهدين Fédéraux (المترجم)

هذه هي الحرب الكبيرة الوحيدة التي تعد أمريكية خالصة ، كما تعد استثناء ملحوظاً أكثر من كونها قد استحدثت شيئاً في مجال الحرب . في ذلك الوقت كان الجيش النظامي لا يكاد يبلغ خمسة عشر ألف رجل . ومن هنا وهناك أهيب بالجيش المحلي للولايات ، ومن هذا انتهى الأمر إلى نظام الاقتراع : الجنوبيون ابتداء من سنة ١٨٦٢ ثم الشماليون في السنة التي تلت . وقد هيا هذا إعداد أرقام هي التي آذنت بالحرب الكبرى . ففي أربع سنين استدعى المتعاهدون (في الشمال) مليونين وسبعمئة وستين ألف رجل . بينما استدعى المتعاهدون مليوناً وستمئة ألف . وابتداء من ١٨٦٢ يبلغ عدد الجيوش (التي كانت في غارة مستمرة) على الترتيب ٩٠٠ ألف و ٧٠ ألف مقاتل . فضخامة الأرقام ، وطول أمد الحرب (أربع سنين) وحدة القتال (حرب مبادئ . استشهد في سبيلها ستمئة أو سبعمئة ألف قتيل) والطابع الجماعي لهذه الحرب (الحصار الاقتصادي للجنوب ودمار جورجيا المنظم على يد شيرمان) بل والطابع الفني أيضاً (التعبئة الصناعية في الشمال وإنشاء سفن مدرعة) ... كل هذا يؤذن مقدماً بالمعارك الكبيرة التي سيشهدها القرن العشرون ونستطيع أن نتصور والحالة هذه أن هذه الحرب المدنية قد أوجت إلى الأمريكيين الرعب الدائم من استخدام السلاح . فهم لن يلجئوا لنظام القرعة إلا في مناسبتين أخريين : ١٨ مايو ١٩١٧ وفبراير ١٩٤٢ .

وفي وقت السلم تملك الولايات المتحدة جيشاً د اتحادياً ، يسمى أيضاً « الجيش النظامي » ، عدا الحرس الوطني ، لمختلف الولايات . فبينما مه الحرس أن يقوم خصوصاً بالمحافظة على النظام في الولايات ، تستخدم الجيش النظامي - الذي يتكون فقط من المتطوعين - في الممتلكات الخارجية كما يستخدم في أمريكا . وفي مطلع الحرب العظمى كان عدد هذا الجيش ١٩٠ ألف رجل . وفي سنة ١٩٣٠ كان عدده ١٤٠ ألف (منهم عشرون ألفاً في القليلين وبنياً) وفي

هذا التاريخ بلغ عدد الحرس الوطني ١٨٣ ألف رجل والاحتياطي المنتظم ١١٨ ألفاً . وهؤلاء الآخرون هم من الضباط فقط (عدا خمسة آلاف) . وقد واجه قانون الدفاع الوطني (١٩٢٠) في الحقيقة إنشاء جيوش من ملايين عديدة من الرجال في وقت الحرب كما أبقى على هذه الترتيبات في وقت السلم . وقد هيا هذا الإجراء الحكيم سرعة التآهب سنة ١٩٤٢ .

لقد كان هذا الجيش حديثاً رغم قلة عدده . وكان أركان الحرب قد استطاعوا أن يتدبروا ضرورات الحرب . وتستطيع مدرسة وست بوينت West Point أن تخرج إيزنهاور ، ومارشال ، وباتون Patton وبرادلي وغيرهم .

٣ - جيش الريخ الألماني

كانت معاهدة فرساي قد حددت الجيش الألماني ابتداء من ٢١ مارس ١٩٢٠ بما لا يزيد عن سبع فرق مشاة وثلاثة أخرى فرسان ، ولا يتجاوز المجموع مائة ألف رجل . وكان فوش Foch يفضل نظام الجيش المحلي Mélice يستخدم لأمد قصير جداً ، ولكن الانجليز عارضوه بفكرتهم في الجيش الحرفي وهي الفكرة التي انتصرت ، فجد جيش الريخ رجاله بالتعاقد الاختياري لمدة اثنتي عشرة سنة .

هذا الجيش الذي أوجده قانون ٢٣ مارس ١٩٢١ إنما كان من عمل سيكت (Seeckt) ، فإنه لاقتناعه منذ ١٩٢٠ بأن لا بد أن يحجى اليوم الذي تحطم فيه ألمانيا أمر diktat فرساي هذا وتعيد إنشاء جيشها القوي ، قد جعل من هذا الجيش ، جيش احتراق ، يصلح كنواة أو دعامة لجيش القوة عندما يعيد مثل الخدمة العسكرية الإجبارية (١٦ مارس ١٩٣٥) . ولما كان الجيش الألماني موضوعاً تحت الرقابة حتى سنة ١٩٢٧ فإنه سرعان ما أصبح خبيراً

بفن التخفي (الكاموفلاج) فحل ، مكتب القوات العامة *Allegemeiner* ،
Truppenant محل هيئة أركان الحرب الامبراطورية المنحلة . كما ساعد
 إنشاء المنظمات الموازية للجيش (كالقوات المحلية *Heimwehren* وهيئة
 المساعدات الفنية الاضطرارية *Technische Nothilfe* . . . الخ) أثناء
 اضطرابات ١٩١٨ - ١٩١٩ ثم إنشاء بوليس الأقاليم (١٩٢٣) على زيادة
 الأرقام ، ثم إن إنقاص مدة الخدمة إلى ١٨ شهراً سنة واحدة (١٩٢٣) قد
 هيأ احتياطيات مدربة . كما ظهرت على الميدان المراد التي كان يحظرها
 الحلفاء (من طائرات ، ودبابات ، وغازات ، ومدافع ، وأسلحة أتومانية)
 بفضل المجاملات التي كانوا يلقونها في الخارج من جانب روسيا خصوصاً
 حيث كان الضباط الألمان يذهبون للقيام باستعراضاتهم في المعسكرات التابعة
 لفرق الريخ (مثل معسكر كاما *Kama*) بينما كان للهندسين العسكريين مطلق
 الحرية في إجراء التجارب على موادهم الحربية هناك .

هذا النشاط الخفي كله هو الذي غير وجه جيوش الريخ . فهي ليست
 جيشاً حرفياً بالمعنى الصحيح ، بل جيشاً متدرجاً يهد للجيش القوي ، جيش
 البلاد *Wehrmacht* .

الفصل السابع

الشعب المسلح

من الحروب الكبيرة في عهدي الثورة والإمبراطورية خرج القائد الألماني كلوزفيتز Clausewitz بفكرة أن الشعوب يجب أن تلقى بكل جهدها وكافة قواها في الميدان فلا يقتصر الأمر على جيش الدولة الناقص ومواردها المحدودة كما كانت الحال من قبل . فكان مرسوم أغسطس ١٧٩٣ البوق الذي يؤذن بالشعب المسلح ، وإن لم يشهد القرن التاسع عشر تحقيق هذه الضرورة . فإن الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ كانت قصيرة جداً في مرحلتها الأولى ، ومحدودة المجال جداً في مرحلتها الثانية رغم جهود غمبتا في حشد كافة إمكانيات المتحاربين .

١ - جيوش الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)

كان الصراع الذي نشأ عقب حادثة سيرا جيفو من الجدة في مظاهره العديدة بحيث أن المعاصرين ، وقد أدهشهم اتساعه ، أسموه بالحرب العظمى ، مدفوعين بالرغبة الكامنة في أن تكون هذه آخر الحروب . لقد أخلت تدخل الأحلاف هذا الصراع بين النمسا والصرب إلى صراع أوروبي ، فعلمى . كما أن وجود دول جبارة بين المتحاربين كروسيا والولايات المتحدة قد أصاب الكتل الإنسانية بعدة لم تشهد لها مثيلاً من قبل . وكما أعطى الصراع بين القوتين الصناعيتين الأوليين في ذلك العصر (إنجلترا وألمانيا) للنضال مظهراً قنياً عالياً . وأخيراً فإن الحصار - سلاح إنجلترا التقليدي - قد انتهى إلى

أن يجعل للحرب طابعاً ، جماعياً ، يمتاز بطول الصراع (٤ سنوات) وبالمرارة (٨ ملايين من القتلى وخسائر تقدر بالمليارات) وتعبته الروح المعنوى ، (الدعاية الوطنية التي تحض على كراهية الشعوب المهج) .

الأرقام : بدأت الحكومات في أغسطس ١٩١٤ تجهز جيوشها الوطنية للحرب فعبأت ألمانيا ٣ ملايين و ٨٠٠ ألف رجل ، واجهت الغرب منها بمليون وخمسمائة ألف مقاتل لتنفيذ خطة شليفن Schlieffen . واستطاعت فرنسا أن تقدم إلى الصفوف في مقابل هؤلاء وعلى مسرح العمليات الحربية هذا عدداً من الجنود يكاد يكون مماثلاً . أما إنجلترا فعلى العكس - ونظراً لأنها ظلت مترددة حتى اللحظة الأخيرة - لم يكن لديها إلا السبعون ألف جندي (جيشها) ، الذين كانوا في نظر الألمان قوة حقيرة ، . وكان لدى روسيا موارد ربما لا يمكن تحديدها ، ولكن جمعها كان يلزمه وقت طويل جداً .

وقد أثارت الخسائر الجسيمة منذ المواقع الأولى ، وثبات جبهات القتال في حرب المواقع هذه (من نوفمبر ١٩١٤ إلى مارس ١٩١٨) التي أصبحت " حرب ربا guerre d'usure " ، أثارت بسرعة مشكلة الأرقام . فن جانب الحلفاء كانت الخسائر الأولى باهظة جداً ، واستطاعت فرنسا أن تسد الفراغ في صفوفها ولكنها كانت عاجزة عن أن ترتفع كثيراً بأرقام رجالها المخارين . وقامت إنجلترا على العكس وتحت ضغط اللورد كيتشر بمجهود كبير : ففي إبريل ١٩١٥ كان عدد جيش إنجلترا مليوناً و ٣٠٠ ألف رجل كلهم متطوعون . وبإدخال نظام القرعة في يناير ١٩١٦ أمكن رفع هذا العدد إلى أكثر من ثلاثة ملايين سنة ١٩١٨ . على أن البراعة في التجديد إنما جاءت من جانب الولايات المتحدة . ففي ٩ إبريل ١٩١٧ يوم أن دخلت الحرب لم يكن جيشها المهتم يريد على ١٩٠ ألف مقاتل . وأدخل نظام القرعة بالأمر الصادر في ١٨

الابو التالي ، فأسفر عن جيش قوامه ٣ ملايين ٦٦٥ ألف رجل عند نوع
مسلح (منهم أكثر من مليونين في أوروبا) .

أما الامبراطوريات الوسطى - فقد اصطدمت على عكس ذلك بصعاب
كبيرة . ففي السنوات الثلاث الأولى استدعى سريعاً جنود تحت الطلب حيث
أمكن أن يسدوا الفراغ . وبتجنيد دفعتين من الجيش الاقليمي Landwehr
ثم من جيش الهجوم Landstorm تيسرت الزيادة القوية في الأرقام (مليوناً
مجتد في سنة ١٩١٥ وحدها) . وابتداء من سنة ١٩١٧ بدأت الموارد الإضافية
تصب ولزم الاستعانة بالكثير من الحيل : دعوة الدفع الجديدة من الشبان
مقدماً وتحصيل المؤجلين والمعاقين ... الخ . ورغم هذه الأمدادات كلها
كانت الوحدات سرعان ما تذوب . ففي الوقت الذي طالبت فيه ألمانيا بنزع
السلاح لم يكن لديها أى قاتض من الرجال ، ولقد كان هذا أحد الأسباب
الأساسية في هزيمتها ، لقد خسرت في معركة الأرقام .

وأكثر من الأرقام الكلية للمحاربين ؛ نستطيع أن نبين القوة الحقيقية
للجيوش بأرقام فرقها ، فقد وصلت فرنسا في هذه إلى مجموع قدره من ٨١
إلى ١١٠ فرقة . كما زادت إنجلترا من خمسة إلى مائة . وفي ستين جهزت
الولايات المتحدة ٧٣ فرقة . ودخلت ألمانيا الحرب بمائة وتسعة عشر فرقة
وانتهت بمائتين وثلاثة عشر (وبلغ الحد الأقصى ٢٤١ سنة ١٩١٧) . كان
التفوق العددي الخفيف للحلفاء هو سبب انتصارهم في مارن La Marne .
ونجلى بموهمة واضحا في أواسط سنة ١٩١٦ . كما أن انهيار روسيا قد حرّمهم
ماتى فرقة وانتهى بهزيمة حلف التفاهم الودى سنة ١٩١٧ . وأخيراً ففي سنة
١٩١٨ عاد التوازن ولكن بوحديات كثيراً ما كانت أرقامها صورية (خفضت
بعض البرايا إلى ثلاثين أو أربعين رجلاً) .

وتلاقت هذه الكتل البشرية في اصطدام رهيب : ٧٨ فرقة من فرق الجيش في جانب ألمانيا مقابل ٨٢ فرقة للحلفاء أثناء معركة ١٩١٤ و ١٧١ فرقة للحلفاء مقابل مائتي فرقة للجيش الألماني في معركة فرنسا سنة ١٩١٨ . أرقام لم يعرف التاريخ لها مثيلاً .

التعبئة الصناعية تظاهر الجيوش :

إن حرب الخنادق إنما هي إيذان بظهور المعدات الحربية (١) إذ لإخراج العدو من مكانه لا بد من تحطيمه أو قمعه بالقذائف والقنابل وشل حركاته إزاء تقدم الفرق المهاجمة . ولقد كان هجوم شتاء ١٩١٤ - ١٩١٥ - وهو هجوم رجال على مواقع منيعة - كله فشلاً دمويًا ذريعاً . وتتجلى هنا حقيقة : وهي أن هجمات المشاة لا بد أن تكون « معدة » ومدبرة . وتصبح « قوة النيران » هي العنصر المسيطر على ميدان القتال . كما تكثر الأسلحة وتنوع : أسلحة المشاة الأوتوماتيكية (المدافع والبنادق الرشاشة ، القنابل اليدوية وقنابل V . B . للمعارك القريبة ، قاذفات القنابل ذات المرمى المنحني . والمدافع من كل العيارات ابتداء من ٧٥ أو ٧٧ إلى ٤٠٠ الفرنسي أو ٤٢٠ الألماني) . كل هذه الأسلحة تتسابق للهجوم كما تتسابق في الدفاع .

ويبدأ الهجوم بهذه الافتتاحية المحزنة : ونعني بها « عمل المدفعية » التي تدك الحصون وتقطع الأسلاك وتبيد البطاريات ثم تحتل مواقع العدو مانعة وصول الامدادات إليها ، ثم توحف المشاة بعد ذلك وراء ستار من النيران هو بمثابة حاجز متحرك ؛ بينما العدو يقوم من جانبه بطلقات المقاومة وباستعدادات مضادة . وكل هذا يلزمه عتاد ضخم . ففي معركة فردان

Verdan كان ثمة ٣٤ بطارية على كل كيلومتر ، وفي ملبيزون Malmaison ٤٠ بطارية ، وفي الفلاندرز ٣٨ أى بواقع قطعة حربية كل ٦ أو ٧ أمتار من الجبهة . وفي هجوم نيفل Nivelle (٤ - ١٧ ابريل ١٩١٧) ألقت الجيوش الفرنسية ٤ ملايين قذيفة من عيار ٧٥ .

فالقتال يثير إذن مشكلة صناعية يتدخل فيها عاملان : اليد العاملة والمواد الأولية . ولم تكن فرنسا قد تدبرت هذه الناحية الحربية ، كما أن التعبئة العامة قد أضعفت من شأن الانتاج . فمذ سنة ١٩١٥ أعيد العمال الفنيون من جبهة القتال وعهد إليهم بأن يعملوا فى المصانع للدفاع الوطنى . وألحق بهم يد عاملة جلبت من المستعمرات الفرنسية (خصوصاً من الهند الصينية) كما استعين بالمتطوعين الأشداء . فلم تجيء سنة ١٩١٦ حتى كانت الصناعات الحربية يشتغل بها مليون من العمال من بينهم ٢٠٠ ألف امرأة . وفى ذلك الحين كانت انجلترا تستخدم فى مصانعها يدا عاملة من الرجال والنساء ضعف هذا العدد . ولكن امبراطوريات وسط أوروبا قد اصطدمت فى هذا المجال بمصاعب خطيرة : فالفنيون الذين بقوا فى أما كن عملهم منذ البدء قد استدعوا منذ سنة ١٩١٦ وتجمعوا تحت الأعلام — وذلك لمواجهة مشكلة نقص الأرقام . وتقدمت هذه الدول خطوة أخرى إلى التجنيد المدنى ، للرجال والنساء ، وإلى نقل الرجال من الشعوب المحتلة (بلجيكا وبولندا) .

وأكثر خطورة أيضاً كانت مشكلة المواد الخام . فالخلفاء بينهم سيدة البحار ، كانوا يستطيعون أن يتحصلوا بأسطولها الانجليزى على ما يلزمهم . ومع هذا فانه لأسباب مالية كان عليهم أن يحدوا من هذه اللوازم . وهنا تتدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية . فى المجال الداخلى (ولأسباب تتعلق بالنقد) أمكن الوصول إلى تحديد توزيع المواد الغذائية .

وفي المجال الخارجى (ولتشجيع الصناعات المحلية) أمكن الحد من المشتريات من المنتجات الصناعية كما أمكن تجريد الأرصدة . واندفعت ألمانيا - لى تتخلص من الحصار الذى قطع عليها كل سبيل للإمداد - فى حرب الغواصات ، تلك الحرب التى فشلت وأدت إلى التدخل الأمريكى ؛ وإن تكن فى الداخل قد نمت المواد الاستبدالية Ersatz (نسيج الورق ونعال الخشب) . ومع كل هذا شعرت منذ سنة ١٩١٦ بالإصابة بنقص الرجال واتهمت إنجلترا بأنها إنما تباشر الحرب على النساء والأطفال . وفضلا عن هذا فقد لجأت إلى السلب المنظم للبلاد التى احتلتها (شمال فرنسا وبلجيكا) . وكان تدخل الحكومة مبكراً ففى ١٩١٥ تولى مشروع راتنو Rathenau الإشراف على الإنتاج . وفى أواخر سنة ١٩١٦ أنشأت هيئة أركان الحرب مجلس الحرب kriegsamt الذى سيطر على كافة نواحي الحياة الاقتصادية (مكتب الحبوب ، مكتب المواد الأولية ... الخ) إلا أن هذا كله لم يكن كافياً . وما زالت « معنوية » الشعب الألمانى تضعف . فلم يتردد القائد الأعلى رغم كارثة نقص القوات - فى أن يبقى حتى نزع السلاح على عشرين فرقة من الجيش فى أوكرانيا (مليون رجل) لحراسة مخزن حبوب أوروبا هذا والإشراف عليه .

ويطعن العامل الاقتصادى على الاستراتيجية ، فيقول الفرق بين الشعوب لمحاربة وغير المحاربة . وتصبح الحرب إذن كلية شاملة ، والشعوب كلها تحت السلاح .

تطور تركيب الجيوش :

قل ما هنالك من شبه بين أسلحة ١٩١٨ ، وأسلحة ١٩١٤ - القدر الذي به تشبه هذه الأخيرة بأسلحة نابليون . فان ظهور المواد الحربية قد قلب نظامها رأساً على عقب .

فالمشاة يشهدون قوة نيرانهم تتضاعف بتعميم الأسلحة الآلية (الأوتوماتيكية) . ففي ربيع ١٩١٦ ظهر المدفع الرشاش - السلاح الخفيف الحمل الذي يرمى من ٨٠ إلى مائة طلقة في الدقيقة . وأصبح هو السلاح الأساسي لجندى المشاة الذي حوله تتوزع فرق القتال ، من حوالى عشرة رجال - الخلية الأولى للمشاة الحديثة . هذا التوزيع في وحدات قليلة العدد جيدة التسليح يسمح بالاستخدام التكتيكي لهذه المجموعات الصغيرة وبتقدم طرق التسلل . فثلاث وحدات تكون جماعة وأربع جماعات تكون سرية . ولم تفقد المدافع الرشاشة مع هذا مكاتها - فإزال هي العدة الثقيلة من الطراز الأول . إذ أن الفرنسيين والألمان كانوا في سنة ١٩١٤ قد أخذوا العبرة من حرب البوير وحرب منشوريا . عرف كلاهما فائدة الأسلحة الرشاشة ولكن الألمان قد أعطوا لها أهمية أكبر .

وفي سنة ١٩١٦ جهزت كل كتيبة بسرية ذات ١٢ مدفعاً رشاشاً (أى بمعدل ٣٦ مدفعاً لكل آلاى) . كما أكل تسليح الكتيبة بمدفع ٣٧ البعيد المدى . ثم في سنة ١٩١٧ أنشئت لخدمة مدافع الهاون ، سرية آلية . . وقد هيأت زيادة قوة النيران هذه التي أمكن الوصول إليها لتقليل عدد الرجال وبالتالي للضعف . فنقص عدد السرية في فرنسا من ٢٥٠ رجلاً إلى ١٧٥ رجلاً .

وأصبحت المدفعية هي المسيطرة في حرب المواقع - خصوصاً المدفعية الثقيلة . وفي بداية الحرب لم يكن لدى فرنسا إلا ٦١ بطارية ثقيلة من أنواع قديمة بينما كان لدى ألمانيا ١٤٧ من عتاد أحدث ، جربت لأول مرة ضد القوات البلجيكية وفي سنتي ١٩١٦ ، ١٩١٧ تقدم القائد العام الفرنسي إلى تنظيم شامل جديد : فتطورت مدفعية الفرق من ٩ إلى ١٢ بطارية منها ثلاثة ١٥٥ قصيرة سريعة الطلقات . ولما فقد الجيش مدافعه عيار ٧٥ استبدلت بها ست بطاريات ثقيلة طويلة (١٠٥ إلى ١٥٥) . ووضع تحت تصرف القائد العام احتياطي المدفعية العام ، القوي ذي الثلاثة والستين آلاى التي كان منها اثنا عشر مزودة بأسلحة ذات قوة هائلة .

وفي الجانب الألماني كان التطور مماثلاً : ففي سنة ١٩١٨ كان يوجد ١٥٧٥ بطارية ثقيلة (مقابل ١٤٧) و ٢٨٠٠ بطارية ميدان (مقابل ٨٦٥ في سنة ١٩١٤) . وظاهرة أخرى جديرة بالذكر هي الأهمية المتزايدة للتعاون بين المدفعية والمشاة . فإن رجل المشاة يطلب إلى رجل المدفع أن تحميه نيرانه بما يستطيع معه أن يتقدم .

وعلى العكس من هذا تفقد الفرسان من أهميتها . ففي الخنادق يقاتل الجنود مترجلين سواء أكانوا مشاة أو ركاباً . ولا يبقى لهم إلا الاعتزاز بتقاليدهم . لقد حلت محلهم عربات الهجوم ، تلك التي تم إعدادها في ديسمبر ١٩١٥ والتي ظهرت لأول مرة في القطاع الإنجليزي من السوم Somme في سبتمبر ١٩١٦ . ولأول مرة استخدمتها القيادة الفرنسية بصورة كلية في الإين Aisne سنة ١٩١٧ : فاستخدمت ١٦٠ عربة شيفير Schneider وسان شامون St Chamond بوصفها مدفعية هجوم ، وكانت النتيجة مؤسفة . ففكر الجنرال اتين Estienne في عربة تكون أكبر

مرهونة وأكبر سرعة وأقل ضعفاً : وهنا لعبت عربات رينو Renault دوراً كبيراً في معركة فرنسا حين ألحقت بالمدفعية . وأهملت ألمانيا من جانبها هذا التجديد . فلم تلتفت . منه إلا القليل جداً إلى جانب استعمالها جزءاً مما كانت تستولي عليه منها . إذ لم تكن القيادة العليا قد فهمت بعد - حتى ذلك الحين - أهمية هذه الآلة .

ورأى المهندسون العسكريون ملحقاتهم في تزايد . فقد ظهر سلاح جديد ؛ ونعني به المخبرات (التلغراف والتليفون واللاسلكي) . فالحق أن الاتصال وإن يكن ضرورياً جداً أكثر فأكثر (بين المشاة والمدفعية ، والطيران والمدفعية ... إلخ) قد أصبح مستحيلاً بالوسائل القديمة الموجودة حينئذ ، نظراً لاتساع جبهة القتال وبعد أجهزة القيادة .

وأخيراً فإن الطيران يقوم بتطور ضخم . وإذا كان استخدامه قاصراً أول الأمر على المراقبة ، فقد كان يرشد طيران المدفعية ، ويتعرف على مواقع العدو . ثم إنه باستعماله في إلقاء القنابل قد زاد من مدى المدفع ، فشملت المعارك العمق والارتفاع ، ولم يعد القتال خطأ أو صفاء ، بل أصبح مساحة وسطها . وأمكن التغلب على البعد الثالث هذا ، بالمطاردة ، التي يصورها جوينمر Guynemer . لقد أصبح الفضاء كله ميدان المعركة . وهذا الاتساع في مجال الحرب سوف يظهر على أشده في الصراع الدولي الثاني .

وتنوع تركيب الوحدات الكبرى في نفس الوقت الذي تطورت فيه هكذا الجيوش التي تنظمها . وتمثل التطور في نوع من زيادة قوة الطيران (على نحو ملأ أينا في المدفعية) وفي تقليل لرقم الرجال (فنقصت الفرقة من المشاة من ١٢ إلى ٩ كتائب) ثم في الإكثار من الخدمات . وكثيراً ما أدى تمهيت جبهات القتال إلى أن تستعمل القيادة الفرقة خارج القلق الذي تبعه

أصلا في الجيش . فكان لابد إذن من تزويدها بكافة الأجهزة التي تسمح بالقتال والإمدادات والتنقل في استقلال وانفراد: حظائر للمدفعية والمهندسين ووحدات للخدمة الصحية والإدارة . وبهذا تصبح الفرقة من الجيش ، أصغر الوحدات الكبرى ، الفاعلة بذاتها .

وهذا هو التركيب المقارن لأحدى فرق المشاة في الجيش الألماني :

١٩١٨	١٩١٤
١ - أركان حرب	١ - أركان حرب
٢ - سرية فرسان	١ - آلاى فرسان
٣ - آلاى مشاه (من ٣ كتائب)	٢ - لواء مشاه كل منهما آلايان
١ - آلاى مدفعية ميدان عيار ٧٧	١ - لواء مدفعية من آلايين (٧٢)
١ - فصيلة مدفعية خفيفة (٤٨)	قطعة منها ٥٤ عيار ٧٧ و ١٨
قطعة منها ٢٤ عيار ٧٧ و ٤ عيار	عيار ١٠٥).
١٠٠ ، ١٢٠ عيار ١٠٥ و ٨ عيار	
(١٥٠	١ - فصيلة لحراسة الكبارى
٢ - كتيبة مهندسين	٢ - سرايا مهندسين
١ - كتيبة مخبرات (لاسلكى)	
١ - سرية طبية	١ - وحدة للخدمات الطبية
١ - سرية نقل بالسيارات	
١ - وحدة علاج بيطرية	
١ - مركز تعليم خاص بالفرقة	

لقد كان الفيلق العضو الهام للقيادة ولهذا كان يحتفظ بمدفعيته الخاصة وخدماته . وبالمثل كان الجيش . وأخيرا رأينا ظهور مجموعة الجيوش ، التي

أنشئت من أجل فوش Foch في خريف ١٩١٤ تحت اسم «مجموعة جيوش الشمال»، والتي كان منها فيما بعد ثلاث مجموعات: في الشرق، والوسط، والشمال ذات تركيب متغير تبعاً لما يقتضيه الموقف الراهن: كلن كل منها «مركز قيادة»، وإن لم تكن وحدات كبيرة حقيقية.

مشاكل القيادة:

في جانب الحلفاء ظل جوفر Joffre حتى ٢ ديسمبر ١٩١٥ القائد العام لجيوش الشمال والشرق، ثم عين في ذلك التاريخ قائداً عاماً للجيوش الفرنسية بمهمة توحيد القيادة الذي لا غنى عنه لإدارة دفة الحرب، ولم يكن لهذا اللقب من أثر كبير. فقد احتفظ الجيش الانجليزي بفاعليته الذاتية تحت قيادة فرنش French ثم هيج Haig. ولم يتحقق توحيد القيادة إلا مع فوش Foch (١٩١٨). وكانت للقائد العام مهام حربية دقيقة فكانت القيادة الاستراتيجية للمواقع الحربية تدخل في اختصاصه، ولكن إمداد جيوشه وتنظيم مؤخرة كل جيش لم تكن تتبعه، وظلت الحكومة ممسكة بزمام التعبئة الصناعية والصناعات التي حدثت في سني ١٩١٦، ١٩١٧ إنما زاد من خطرها هذه الثنائية في السلطة التي تمثلت في شخصيتي فوش وكليمنصو الكبيرتين المتفتحتين لحسن الحظ على الهدف الأساسي، وهو القيام بالحرب.

أما في ألمانيا فالموقف أكثر وضوحاً. فازاء وزير هزيل (ميخائيلس ثم هرتنج) وأمام امبراطور مستسلم، كان لابد أن تنشأ الدكتاتورية، دكتاتورية القيادة العامة، أولا هندنبرج ثم ليندورف Ludendorff فهم الذين يقرضون على غليوم الوزير الذي يرتضونه، وهم الذين يسيطرون عن طريق مجلس الحرب Kriegsmat على الحياة الاقتصادية

والاجتماعية ، وهم الذين يوجهون السياسة العامة وفقا لحاجات جيوشهم (استئناف حرب الغواصات في يناير ١٩١٧ والمهجوم الألماني على الشرق واحتلال أوكرانيا بعد برست ليتوفسك (Brest - Litovsk) - فوحدة قيادة الجيش بهذا متحققة ، وهذا تصوير سابق للحرب العالمية الثانية .

٢- جيوش الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)

الاستعداد للحرب :

إن اختلاط المجالين: المدني والعسكري ، الذي يرجع إلى اتساع الحرب ، إنما يظهر في إجراء معاهدات الصلح .

وهذا ما نستطيع أن نقينه فيما جرت به التكاليد من حلول: فالديلماسيون الذين كانوا قد لزموا الصمت منذ أن بدأت المدافع تتحرك ، قد عادوا إلى الكلام بمجرد وقف إطلاق النار ، ، فقاموا بالسلم عند ما كان العسكريون قد فرغوا من القيام بالحرب . وكانت الخلافات بين فوش وكليمنصو ترجعنا لحالة من الأمر لم تعد تطابق الواقع . ولقد أرفف الفزع من الصراع الرجال أشد إرهاف ، حتى إنه باستجابة تكاد تكون طبيعية ، كان الرأي الذي تجليه بلاغة السياسيين يغيب شيئا فشيئا عن فطنة العسكريين . ألم يعلن أن الحرب خروج على القانون ؟ ألم يهتف ، لتسقط المدافع وتسقط السيوف ، إن المتصرين في الحرب كانوا هم المهزمين في السلم .

ورأت ألمانيا قصصا جيشها إلى مائة ألف رجل . إلا أن هذا التحديد المفروض عليها إنما هو ذريعة لتجمع حول « الجيش » ، وباستثناء عجيب

ظلت مكانة الزى العسكرى فى هذه الدولة المغلوبة عظيمة جداً ، كما ظلت القوة كلها بيد هيئة أركان الحرب . فأشرف نوسكه Noske وزير الحربية على الجيوش المضطحة بعد الحرب . كما كان إيبيرت Ebert أول رئيس لجمهورية فيمار على صلة سرية دائمة بـ مجلس أركان الحرب وعلى اتصال تليفونى يومى بالجنرال جرونر Groener مرددين أن الجيش الألمانى هو منقذ وحدة الريح (الامبراطورية) ، فيحطم الثورة ، ويصبح فى عهد فون سيكت Von Seeckt (رئيس هيئة أركان حرب الجيش من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٦) محور ثبات الدولة ، كما ينتصر مع المارشال هندنبرج رئيس الجمهورية (من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٤) ويصبح جيش الدفاع الحرفى صخرة ألمانيا الحديثة الصماء .

أما عند الحلفاء فعلى العكس مازالت ميزة القادة الكبار باقية ، ولكن الجيش يصيبه الضعف باسم السولية ، وروح السلام ، أو باختصار لأسباب مالية . فأسرع ما سرحت انجلترا والولايات المتحدة جنودهما . وعادت إلى طابعهما التقليدى فى الجيش المحترف . وخفضت فرنسا مدة الخدمة العسكرية إلى ثمانية عشر شهراً (١٩٢٣) ثم إلى سنة (١٩٢٨) . وفى سنة ١٩٣٠ كان عدد الجيش الفرنسى ٦٠٠ ألف رجل تعليمهم غير كاف . وأما إيطاليا فعلى العكس - تحولت إلى شعب عسكرى يحمل الصغار فيه المدفع فى سن الثامنة ويستعرضهم الدوتشى . وتفوق الجيش الإيطالى على الجيش الفرنسى بخمسة فرق .

وكان تولى هتلر إيداناً باتهاء خيالات استمرار السلم . ففى سنة ١٩٣٥ استوقف سباق التسلح . إذ فى ١٦ مارس من هذه السنة أصدر « القومحرب » أمره باجبارية الخدمة العسكرية . وهذا يعتبر نشأة جيش الهجوم Wehrmacht وفى نفس اليوم عادت فرنسا إلى زيادة الخدمة العسكرية إلى ستين ، ورفضت

إيطاليا جيشها السلى إلى ٦٠٠ ألف رجل . إنه سباق فى السرعة . ولكن الدكتاتوريات لها ميزة أولى يضاف إليها السلطة الجبارة للدولة التى تعي . فى فترات السلم كافة القوى الإنسانية والمعنوية والاقتصادية عملا على تحقيق الأحداث التى يرسمها القائد ومع قبول المخاطر التى قد تأتى بها الحرب . أما الديمقراطيات فيرهقها أن تسير على هذا النظام الجنونى ؛ وتاريخ السنوات ١٩٣٥ - ١٩٣٩ لا يقوم إلا فى محاولات وأماسيات أوانها . وثمة فى الدول الأولى ظاهرة ملحوظة بوجه غير عادى ؛ ونعنى بها تبعية السلطة العسكرية تبعية تامة للسلطة المدنية . وأكثر دقة نقول إن اقتراح هاتين السلطتين إنما يتحقق فى شخص الدكتاتور . والخصومات بين الجيش والحزب السياسى خصومات حقيقية - ولكن (الفوهرر) كان دائما يفرض إرادته .

وفى أقصى العالم من الجهة الأخرى يتطور شعب يسيطر عليه جيشه . ونعنى به اليابان . فقد ظل العسكريون اليابانيون زمناً طويلاً من المدرسة الألمانية . وكان معلومهم إنما يأتون من برلين . ولتشبعهم بالروح البروسى ، كانوا يحملون بأن يحققوا فى الشرق الأقصى ما كان المهترئون على وشك أن يحاولوه فى أوربا . إقامة تفوق عنصرى فى البلاد ، ثم تولى السلطة فى هذه البلاد . ومنذ ١٩٣١ سيطروا على الحياة السياسية وثبتوا مرا كزم بانقلاب ١٩٣٦ . وبتأثيرهم نشأت أحداث الصين واحتلال منشوريا ثم بعد ذلك مكموين آسيا العظمى . هذا التأثير فى الدولة إنما هو من خصائص الجيش اليابانى وحده . أما تكوينه القائم على النظام الألمانى فلا جديد فيه يذكر . وفى سنة ١٩٣٩ استطاعت اليابان أن تعي من ٧٠ إلى ٨٠ فرقة من الجيش العامل والاحتياطى الأول . بل إنه كان لديها فرق آلية بأسرها كما كانت الحال فى الرىخ . وكان طيرانها عظيماً وحديثاً : ٣ آلاف طائرة من الطراز الأول . وكان لهذا الجيش مزايا عظيمة من حيث الشجاعة وإنكار الذات (بما أحسن

به الأمريكيون) ولكن القيادة قد كشفت في حرب الصين عن خيال هزيل. فالضابط الياباني يطبق النظام في خضوع. أما القائد فيحاول أن يوجد في المعركة حالة مدروسة - تماماً كما في لعبة الحرب التي تجري في المدرسة الحربية.

وشهدت هذه العشرون سنة فيما شهدت أيضاً نشوء جيش من نوع جديد. ونعني به الجيش الأحمر. وهو إذ ينبع من ثورة سلمية في مظاهرها الأولى؛ فإن وثيقة ميلاده الأمر الذي أصدره لينين في ٢٣ فبراير ١٩١٨. وجيش العمال والفلاحين الأحمر، هو في البدء جيش طبقات غرضه الدفاع عن الثورة. وفي غمرة الحرب المدنية بين الزعماء يظهر رؤساء عصابات أكثر من كونهم ضباطاً ولكنهم رجال سياسة ماهرون أمثال بوديني Boudienny وورشيلوف وستالين الذين ينتظرهم المستقبل الكبير. ولكي يتم تكوينهم وتعليمهم (الحرقة) لم يكن ثمة تردد في الاستعانة بالضباط القيصرين الذين أصبحوا بهذا معلى رؤساء الجيش الأحمر الجدد. وحلت محل عصابات المتطوعين في البدء طريقة القرعة في مايو ١٩١٨ ثم الخدمة العسكرية الإجبارية في سنة ١٩٢٨.

هذا التاريخ الأخير يوافق انتصار ستالين على خصومه. ومنذ ذلك الحين تغير الجيش. فبين الرتب القديمة وصفوة الضباط الجدد تم التدرج شيئاً فشيئاً. وأعادت الانتصارات التي باء بها تحقيق هذا النظام، إلى الروس الثقة بقيمتهم وأنفسهم. وبهذا نشأ الجو اللازم لإدخال روح وطني جديد. ومنذ ذلك الحين أصبح النظام من القوة بحيث يعيد إنشاء الرتب والدرجات التي ألغاهما. ففي سنة ١٩٣٥ أعيد تكوين هيئة الضباط، وفي سنة ١٩٤٠ أكل سلم الترقيات إلى الدرجات العليا. وعادت الدرجات

والألقاب إلى الظهور ، وأصبح الجيش الأحمر جيشاً وطنياً عظيماً .

والمواطن السوفيتي خاضع لسنتين من الخدمة العاملة تسبقها سنتا أعداد عسكرية . ولأول مرة في تاريخ روسيا يحمل الجميع على الخدمة ؛ حتى القوقازيون الذين لم يطلبوا لها أبداً في عهد القيصرية . جند إذن ربع القارة في الجيش النظامي ، والباقي في تشكيلات اقليمية منظمة على مبادئ الفرق المحلية الشعبية . وقد هيا هذا الحصول على أرقام زادت من ٥٦٠ ألف سنة ١٩٢٤ إلى مليون و ٣٠٠ ألف سنة ١٩٢٩ والجيش هكذا تكوينة كان يقرب من نواحي كثيرة من جيوش الدكتاتوريات .

ففي داخل البلاد لم يكن أكثر من آلة - جوهرية لاشك - ولكنها خاضعة تمام الخضوع للسلطة المدنية (وإن قضية إعدام تونخاتفسكي سنة ١٩٣٧ لم يحد الملاحم الدموية في هذا الصراع) . فبمقتضيه السياسيين كان الحزب يشرف بدقة . كما أنه كان - خصوصاً منذ سنة ١٩٢٣ - المركز الذي حوله تلتظم استعدادات الدفاع عن الوطن : خطة التعبئة المدنية (بما في ذلك النساء والأحداث) وسياسة التجهيز التي تتولى تحقيقها مشروعات السنوات الخمس والتي تتضمن هجرة صناعات الدفاع الوطني نحو الشرق (منذ ١٩٣٦) . ومن ناحية أخرى فإن الاستبعاد الذي يكاد يكون كلياً للطبقات المومرة في روسيا (البورجوازية والكولاك) قد أبقى للجيش الأحمر على طابعه الخاص الذي به أصبح جيشاً وطنياً شعبياً .

جهود المتحاربين في الحرب (١) :

ظلت أرقام الجيوش في عام ١٩٣٩ مقارنة أيضاً لما كانت عليه في سنة ١٩١٨ . وعند اعلان الحرب عبأت فرنسا ٥ مليون ومائتين وخمسين ألف جندي . كما عبأت ألمانيا خمسة ملايين وخمسمائة ألف رجل . ومن هذه الأرقام حوالى ٥٠٪ كانوا يكونون خدمة المؤخرة . وفي ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ كانت كتلة الهجوم الألمانية تبلغ قوتها ١١٥ من فرق المشاة وعشر فرق مصفحات ، وخمسة آلاف طائرة ؛ واجهها الحلفاء بسبعين فرقة مشاة و١١ فرقة لحراسة المواقع و٨ فرق فرسان وست فرق مصفحات ، وألف وخمسمائة طائرة . وفيما بين ٢ سبتمبر ١٩٣٩ و ١٠ مايو ١٩٤٠ أرسل الانجليز على القارة عشر فرق (وكانوا وعدوا فرنسا منها بفرقتين خلال محادثات لوركان الحرب التي دارت في أبريل ١٩٣٨) .

إلا أن اتساع الجبهة الشرقية (٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ كيلو متراً) ودخول الولايات المتحدة الحرب قد أدبا إلى تقدم غير عادى في الأرقام . فإنه بعد هزيمة فرنسا بقيت انجلترا وألمانيا وجها لوجه بقوات بلغت على الترتيب ٣ مليون و ٢٠٠ ألف و ٥ مليون و ٧٠٠ ألف جندي تحت التعبئة . وفي سنة ١٩٤٥ كان لدى انجلترا ٤ مليون ونصف رجل وامرأة في زى الحرب . ولدى أمريكا ٨ مليون ، وروسيا ٢٢ مليون وألمانيا ١٣ مليون .

وبنفس النسبة توايبت أرقام الفرق التي قدمت إلى خطوط القتال . ففي يونيو ١٩٤١ نجد ١٦٠ فرقة مشاة و ٢٠ فرقة مدرعة و ٣٠٠٠ طائرة

(١) أنظر تاريخ الحرب العالمية الثانية لسيريه R. Céré في مجموعة Que Sais-Je

تدفع في الهجوم على روسيا لتستخدم بمائة وخمسين فرقة مشاة و٤٥ فرقة مصفحة كل منها ذات مائتي دبابة ثم حوالي ٨٠٠٠ طائرة . وفي معركة ستالنجراد وحدها استخدم فون بوك Von Bock مليون رجل و ٣٠٠٠ طائرة وخمسة آلاف دبابة هجوم . وقد هجم الجيش الأحمر في يناير ١٩٤٥ بمائتين وتسعين فرقة احتياطية .

ولم يعرف الشرق الأقصى هذه الكتل الضخمة من الرجال . فقد غزت اليابان شرق آسيا وجزءاً من المحيط الهادئ بمائتي ألف رجل وأقل من ألف طائرة . إذ أن الظروف الجغرافية لقتالها كانت تتعارض مع أي استخدام لكتل بشرية أكثر عدداً .

ولجمع هؤلاء الرجال كان لابد أن تصير التعبئة أكثر شمولاً مما كانت عليه أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . فقد استدعت كافة الدول النساء ، لا لمصانع الحرب فحسب ، بل في وحدات الجيش الإضافية ذاتها : فرق القوات الجوية الإضافية و فرق الخدمات اللسائية الخارجية والداخلية و فرق الدفاع ضد الطائرات D.C.A بل وفي روسيا في الوحدات المقاتلة ذاتها (خصوصاً الطيران) وفي سنة ١٩٤٤ كان لدى إنجلترا ٤٦٧ ألف امرأة يلبسن الزي العسكري .

وتقدم العتاد الحربي بهذه النسبة حتى إن الإمكانيات الصناعية أصبحت هي التي ترجع الكفة . وأصبح عدد الدبابات والطائرات هو الذي يحدد مصير الحرب أكثر مما يحدده عدد الرجال . ولقد شهدت معركة فرنسا انتصار حرب المصفحات ، كما أن النزول في الغرب لم يكن ممكناً إلا بالتفوق الذي لا جدال فيه في جانب الطيران الانجليزى والأمريكى (١١ ألف طائرة مقابل ألفين أو ثلاثة) . أما في الجهة الشرقية فقد تفوقت الدبابات الروسية على فرق الدبابات الألمانية .

هذا العناد كان سرعان ما يلى ، وسرعان ما يتقادم طرازه . والنتيجة الاستمرار فى انتاج الدبابات ، والطائرات - بذلك كانت تصدر أوامر المتحاربين . وبلغت الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤٤ أقصى انتاجها (٩٦ ألف طائرة) بينما لم تصل ألمانيا إلى أربعة آلاف . أما فى الدبابات فقد أخرجت منها أمريكا وإنجلترا (سنة ١٩٤٣) ٣٧ ألفا مقابل ١٢ ألفا فى الجانب الألمانى . لقد سيطرت الصناعات الحربية على الحياة القومية كلها . وجلبت ألمانيا - نظراً لقلّة اليد العاملة والمواد الأولية تحت يدها - ١٢ مليون رجل وامرأة من كل بلاد أوروبا لتشغيلهم فى تسليحها ، فزادت بذلك منتجاتها الاستبدالية (الكاوتشوك الصناعى - والبتروال المركب من عناصر صناعية ونسيج الورق أو الزجاج . . . الخ) ونظمت توزيعاً دقيقاً صارماً للمواد الغذائية كلها ، محاولة بذلك أن تقيم « أوروبا الجديدة » التى لم تكن إلا مشروعاً واسعاً للاستعباد والنهب غايته أن يبق على حياة آلة الحرب الألمانية .

وتسلطت مطالب الصناعات الحربية الكثيرة على السياسة ، وطغت على المواقع (الاستراتيجية) . أما الحلفاء فكان ثمة روابط تبادل تقوم بينهم . ومع هذا الاختلاف فى الروابط - رأينا تسليم العناد الانجلوسكسونى للروس (فيما بين اكتوبر ١٩٤١ ويناير ١٩٤٤ سلمت الولايات المتحدة إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية ٧٨٠٠ طائرة و ٤٧٠٠ دبابة و ١٦٠ ألف عربة نقل (كاميون) و ٧٤٠ ألف طن بترول طائرات ، ٢٥٠٠ رطل ١٠ طن صلب ، ٢٠٠ رطل ٢٥٠٠ طن إمدادات) . فبقانون « القرض الإيجارى » كانت أمريكا بحق « مستودع تسليح الديمقراطيات » كما أن الروس من جانبهم قد أحادوا إنشاء صناعاتهم الثقيلة فيما وراء جبال الأورال خارج منطقة سلاح الطيران فاقبلت جغرافية الاتحاد السوفيتى بذلك رأساً على عقب . لقد أصبحت الحرب عملاً صناعياً ضخماً .

تغيرات الجيوش:

بدأ الصراع بانتصار الآلة (الموتور) ، فاندفعت الدبابات الألمانية حتى يوردها يتبعها جيش كله عمول تقريبا . وأصبح هذا النجاح الألماني موضع تقليد، وقل ما كان المشاة يتقلون على الأقدام . فلكي تجارى تقدم العربات الحربية كانت تحمل بكاملها على عربات نقل سيارات . وعلى سبيل الاستئنا . فقط رأينا المشاة تقاتل في الأجزاء الجبلية من إيطاليا والبلقان كما كانت تقاتل في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وكان على المدفعية أن تخضع لمقتضيات الحركة ذاتها ، فأصبح المدفع يتحرك أوتوماتيكيا . وكان استخدام الروس لهذا السلاح استخداما حاسما . ونظم الجنرال فورنوف جيوشا مستقلة كل منها فرقتان أو ثلاثة من هذه الآلات ومن الدبابات والطائرات (من عشرين إلى ٢٥ لكل كتيبة) لتوجيه النيران عن طريق اللاسلكي ، وفي موقعة أوريل (يوليو ١٩٤٣) حقق الروس بهذه الطريقة تركيزات بارعة بلغت ألفاً وثمانمائة مدفع في الكيلو متر الواحد . ومنذ ذلك الحين أصبحت كتلة الهجوم الموجهة إلى اختراق مواقع العدو تتكون في أساسها من المصفحات والمدافع الأوتوماتيكية .

والتغير الهام الثاني في تركيب الجيوش هو الربط الوثيق أكثر فأكثر بين القوات البرية والجوية والبحرية . وارتباط الطيران بالمدفعية . فلقد أدى القتال في الحقيقة سواء في الجهة الغربية أو في الجهة الشرقية إلى معارك خاسمة ، فيها ارتبطت المدفعية (بنظامها القديم) والطيران (الحديث) . إلا أنه إذا كان الطيران الآن يحاول التدمير ، فإن السير في النجاح إلى نهايته إنما يأتي من جانب الأسلحة المتحركة (الفرسان قديما) والآن العربات المصفحة . وهكذا شهدنا - في نهاية حروب الغرب - تغيرا هاما:

العمل الجماعي لأسراب الطائرات (الطائرات التكتيكية والاستراتيجية) في مقدمة الفرق المقاتلة لكي تحصل على فائدة العدو . ففي حرب نورمانديا أمكن دخول كوتانس Contances بعد تهديدات ، جوية رهيبة قلمت بها ٢٥ ألف قاذفة قنابل . ولقد أحرز الألمان انتصاراتهم الأولى في فرنسا بفرق الاشتوكاس Stukas التي تهاجم المشاة بالرمح . أما الروس فقد جعلوا من فرق الاسترموفكس Stormoviks المزودة بالقاذقات الصاروخية أسلحة متميزة ضد الدبابات .

وتحقق ارتباط البر والجو فضلاً عن هذا بخلق سلاح جديد : هو ناقلات الجنود . وكانت قد تدبرت ذلك منذ ما قبل الحرب فرنسا التي كان لها فرقها من « مشاة الجو » ، ثم زاد هذا السلاح تنظيمًا على يد الألمان والروس . وأول هبوط ضخم لجنود المظلات هو الذي حدث في هولندا في مايو ١٩٤٠ والذي هباً للألمان أن يستولوا على مطار روتردام منذ اليوم الأول . ولم تكن هذه إلا البداية ، فإن الانجلوسكسون الذين عرفوا البراشوت ، متأخرين قد أنشأوا فرقاً جوية كان تجهيزها كله يتم بطريق الجو . وهي أول منازل من هذه الفرق في فرنسا : عبرت الرين ، ثم قامت بمعركة برمانى Birmanie وبحركات استراتيجية بذت حركات ماعداها من القوات كانت قادرة بشكل عجيب على القيام بحركات التكتيك الجاني . كان استخدامها يقوم أساساً على سيطرتها الجوية وتغلها التام على النقطة التي تهبط فيها جنودها بما يهيء لهم أن ينضموا سريعاً إلى القوات البرية . كانت كريت من قبل هدفًا لتجربة لم تتم . ولكن الهبوط في نورمانديا قد أظهر ميل الجانب الأمريكي إلى الاهتمام بهذه التشكيلات ، بينما حاول البريطانيون أن يقوموا بمثل ذلك . وسمحت نهاية الحرب بتحديد شروط استعمال هذا السلاح الجديد . فقد نجحت عملية نيميغ Nimegue لأن الفرق التي تم نقلها بطريق

الجو قد انضمت إلى القوات البرية بعد أقل من ٢٤ ساعة من نزولها . وعلى العكس من هذا انتهت واقعة أرnhem نهاية محزنة لأن قوات المظلات التي أنزلت ظلت منعزلة أكثر من ثلاثة أيام .

وأخيرا فإن الطائرة تمون الفرق المحصورة (كما حدث في جيش فون باولوس Von Paulus في لينتجراد) أو المصفحات التي تغامر بعيدا جدا عن مراكزها (ففي معركة ألمانيا الأخيرة نقلت طائرات الإمداد من طراز داكوتا البترول لمصفحات باتون Patton بما استطاعت معه أن تقدم ٤٠٠ كيلومترا في ١٩ يوما) .

أما الاتصال بالبحرية فقد تجلى في عملية مناورات النزول إلى نورمانديا وخصوصا في عمليات المحيط الهادى المشتركة . واتحاد القوات الثلاث الوثيق هو الذى هيا لملك آرثر أرضا ، ولنيمتز Nimitz بحرية - يزاولان عليها ، تكتيك قفزات البراغيث sauts de puce ، الذى كان لابد أن يودى بهما من غينا الجديدة إلى جزر أوكيناوا فى اليابان .

وتغير ثالث رئيسى ، هو تطور التسليح (١) . فالمشاة تستبدل بالبندقية أو المدفع الخفيف الحمل الأسلحة الخفيفة الأوتوماتيكية : المسدس الرشاش ، والبنادق الرشاشة الصغيرة - التى أصبحت منذ ذلك اليوم تكفى وحدها فى المعارك القرية . وزادت المدفعية من تحركاتها ، كما حسنت متفجراتها (بالعبوة المفرغة) . وقضت المصفحات على الفرسان الذين مازال الروس مع هذا يستخدمونهم (وفى معركة ستالينجراد كان القوزاق يقودون الدبابات ولكنهم كانوا يظهرون فى المعارك بأسلحة أكثر فأكثر كفاية : القذائف

(١) انظر الكولونيل آيره Ailleret تاريخ التسليح فى مجموعة Que Sais Je

الصاروخية ، ويستعملون من أسلحة الألمان البانزرفاوست Panzfaust ومن أسلحة الحلفاء البازوكا bazooka ، وبآلات دقيقة قاتلة ذات مسافات قصيرة . وقد وضعت في خدمة الحرب كافة إمكانيات العلم الحديث : طريقة الرادار ، والصواريخ الموجهة باللاسلكي (v_1 ، v_2) ، والطائرات النفاثة . . الخ بما أعطى لجيوش الحرب العالمية الثانية طابعا فنيا بعيدا جدا . كما أن كثرة وسائل العمل ذاتها في الوحدات قد صحبها نقص في أرقام رجال كل منها . وهكذا كان الفريق السوفيتي من المشاة القوية الذي تعداده في ربيع ١٩٤١ - ١٣ ألف رجل لا يتجاوز تسعة آلاف في سنة ١٩٤٥ .

وأخيرا فإن إحدى المشكلات التي أثارها الحرب العظمى قد وجدت هنا حلها ؛ ونعني بها مشكلة القيادة (١) . فالسلطة العليا الآن تابعة لرؤساء الحكومات . فستالين وهتلر يحملان لقب القائد الأعظم généralissime . أما تشرشل وروزفلت فكانا كذلك قائدَي القوات المسلحة . فهم الذين رسموا في طهران وبالتا الخطوط العريضة للعمليات الحربية . والموقف منذ ذلك الحين واضح جدا . فبمقتضى الأحداث السياسية تتولى السلطة المدنية التدبير الإستراتيجي (أي اختيار مواقع العمليات) ، والتصرف الراهن الذي يجب القيام به) . ومن ناحية أخرى يختص رئيس هيئة أركان الحرب بتدبير التكتيك الحربي (أي تنفيذ العمليات) فيوزع القوات على مختلف ميادين القتال حيث تكون السلطة لقواد العموم ، كل في القطاع الخاص به . لقد أصبحت الحرب خليطا عسكريا وسياسيا .

وفيما وراء هذه الثورة الفنية والاستراتيجية ثمة رباط يولف بين الحريين العالميتين ، هو دائما هبوب الشعوب المسلحة ، كلها ولكن بمعنى أكثر فأكثر اتساعا وشمولا . .

(١) انظر في مجموعة Que Sais-je أيضا : تاريخ المواقع الحربية Histoire de la

Stratégie الجنرال ريفير Gén. Revers

خاتمة

ها نحن قد أتينا على عرض لتاريخ الجيوش في خطوطه العريضة .
هذا التاريخ الذي لا يمثل منحني متسقا لتطور منتظم ، بل ضربا من الحركة
التي تتذبذب بين نوعين نهائيين : الجيش الوطني والجيش المحترف ، أو
الجيش المقترع والجيش المرتزق . ومع هذا فلكل دولة تطورها الخاص بها
ولعل بعضها أن يظفر في هذا التطور بضع قرون كاليابان في عهد موسو
هيتو Mustu—Hito التي انتقلت فجأة من عصابات صموراى Samourai
إلى جيوش وطنية قوية .

هل يلقي الماضي إذن بعض الضوء على المستقبل؟ إن الصراع الذي انتهى
مع الحرب العالمية الثانية قد شهد بداية استخدام الطاقة الذرية وإن كانت
النوايا العلية الكثيرة تود لو ترى فيه بداية عهد جديد في تاريخ البشرية :
إذ يبدو لأصحاب هذه النوايا أن حركات التسليح بل وصور الجيوش ذاتها
الآن باطلة إطلاقا . هذا الرأي الذي تؤيده الكتل الشعبية التي أنهكتها الحرب
قد يشهد باختياره نهاية الجيوش الكبيرة .

قد تقوم قوة الشعوب إذن في معاملها القوية ، ومصانعها الجبارة ، حيث
تطرق في سرية تامة الأسلحة ذات الأثر العجيب ، وقد لا يكون للجيوش
- إذا ما اقتصرت على عدد من الفرق المحترقة - إلا دور محصور : هو أن
تنظم وجوه الصراع الجزئية وتقوم بالتجهيزات العلية والصناعية .

وإذن فالمعامل والمصانع سوف تقوم في الخلافات المستقبلية بدور جوهري . ولا نظن من ناحية أخرى أن الجيوش بمعناها الحقيقي سوف تختفى هكذا ، إلا بمقدار ما استطاعت القذيفة والطائرة والمدفع الرشاش أن تلغى وجود الخنجر (الذي ما يزال يستعمله الكوماندوز) .

ثم إن التوغل في الدول ، وغزو القواعد ، واحتلال الأرض سوف تتطلب أيضاً قوات كبيرة العدد وكثيرة العدد . كما أن تقدم طرق المواصلات وزيادة طاقة الأسلحة وقوتها من شأنهما أن يجعلا الدولة كلها أو الكوكب الأرضي كله - منذ اللحظات الأولى لوقوع اشتباك - تتدخل في ميدان المعركة . لم تعد الحرب حرب صفوف ، لا ولم تعد قاصرة على السطوح ذات المساحات من طول وعرض ؛ مادام أن الطيران وقد أندر بالخطر من الجو قد جعل لهذا البعد الثالث (الارتفاع) أهمية لا تقل عن أهمية البعدين الآخرين في « الجبهة » بمعناها القديم . فالعلم كله والصناعة كلها ، والرجال إلى جانبهم النساء ، يشتركون جميعاً في البذل للحرب ورعاية الجيوش . والأفكار القديمة التقليدية عن طليعة الجيش ومؤخرة الجيش قد بدأت تفقد مدلولها كما أن التمييز بين المحاربين وغير المحاربين أصبح يندق إلى أبعد حد .

وفي هذا الإطار ، من الواضح أن جيش السلم هو جيش نظامه القرعة ، ومهمته مزدوجة هي ضمان السلم للبلاد وضمان التجنيد العسكري للمواطنين جميعاً .

إلا أنه إذا كان الصراع كلياً ، فإن عدد المحاربين بالمعنى الحقيقي سوف يقل . فالمحارب الحديث - شأنه شأن فارس العصور الوسطى - يجب أن يكون له مساعدون يخدمونه . والرجل الذي يعهد إليه بالقتال اليوم أو غداً يلزمه - مادام يقاتل في جبهة طولها أحياناً آلاف الكيلومترات -

عشرة أو مائة رجل وامرأة يقومون على رعايته وإمداده وطرق الأسلحة اللازمة له .

وعلى أى حال ، فإن عهد الصراعات المحلية يبدو أنه قد زال ، وأن صراعات المستقبل سوف تكون التحام مجموعات من الدول المسلحة المتعاهدة .

إن مصير الشعوب والحضارات يتقرر فى صراع القارات هذا الذى يعنى المشترك كون فيه كافة وسائلهم المادية ويجندون له كل إمكانياتهم البشرية .

فهرس الموضوعات

من ص - إلى ص

٨ - ٣

مقدمة الكتاب

الفصل الأول

الجيش في القديم

٢١ - ١٠

دراسة خارجية : انماط الجيش

١٠

جيش المدينة

١٣

جيش الإمبراطورية

١٨

الجيش المركب عند الرومان

٣٤ - ٢١

دراسة داخلية : تنظيم الجيش ومهمته :

٢١

جيوش المدائن

٢٥

جيوش المرتزة

٢٨

الدور السياسي والاجتماعي للجيش القديم

٣١

انحلال الجيش القديم

الفصل الثاني

المجتمع المسلح

العصر الإقطاعي الأول : (من القرن الخامس إلى الثاني عشر)

٤١ - ٣٥

التدريب التاريخي : من القرن الخامس إلى العاشر

٣٥

جندى الدولة أو المحارب الحر

من ص — الى ص

٤٦ — ٤١

من القرون العاشر إلى الثاني عشر

٤١

مجتمع مسلح : الإقطاع

٦٨ — ٤٦

جيوش البور الأول من العصر الوسيط :

٤٦

الجيوش الوطنية

٥١

جيوش الإمبراطوريات

٥٦

جيوش الإقطاع

٦٢

الجيوش الإسلامية

٦٤

نظام الخدمة العسكرية

٦٦

نظام المعارك العربية الأولى

٦٧

الجيش على مر الحضارة الإسلامية

الفصل الثالث

الجيوش الملكية

من القرنين الثالث عشر إلى الثامن عشر

٧٧ — ٦٩

تطور الملكية في فرنسا . بدايات الجيش الملكي

٦٩

القرنان الحادي والثاني عشر

٧١

الجيش الملكي في القرن الثالث عشر وحرب المائة عام

٧٢

تغيرات القرنين الخامس عشر والسادس عشر

٨٦ — ٧٧

سيطرة طابع الملكية على الجيش

٧٧

لوتليه Le Tellier

من ص - إلى ص

٨٢

تطور القرن الثامن عشر

٨٦ - ٩٤

نماذج أجنبية :

٨٦

الجيش الإنجليزى فى القرن الرابع عشر

٨٨

الجيش الأسبانى فى القرن السادس عشر

٨٩

جيش جوستاف أدولف السويدى

٩١

الجيش النمساوى فى القرن الثامن عشر

٩٢

جيش فردريك الأكبر

الفصل الرابع

العصابات

٩٥ - ١٠٥

٩٦

١ - الجمعيات الكبيرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

٩٩

٢ - العصابات الإيطالية : كوندوتو والكوندوتيون

١٠٢

٣ - العصابات الألمانية فى حرب الثلاثين سنة

١٠٣

٤ - الجيوش الصينية حتى شيانج كاي شيك

الفصل الخامس

جيوش القوميات

١٠٦ - ١٢٥

١٠٧

١ - الجيش الفرنسى

١١٨

٢ - الجيش الألمانى

١٢٢

٣ - الجيش الروسى

١٢٤

٤ - الجيش الإيطالى

من ص - الى ص

الفصل السادس

١٢٦ - ١٣١

الجيش المحترقة

١٢٦

١ - الجيش الانجليزى

١٢٨

٢ - الجيش الأمريكى

١٣٠

٣ - جيش الريخ الالماني

الفصل السابع

الشعب المسلح

١٣٢ - ١٤٣

١ - جيوش الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)

١٣٣

الأرقام

١٣٥

التعبئة الصناعية تظاهر الجيوش.

١٣٨

تطور تركيب الجيوش

١٤٢

مشاكل القيادة

١٤٣ - ١٥٤

٢ - جيوش الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

١٤٣

الاستعداد للحرب

١٤٨

جهود المتحاربين فى الحرب

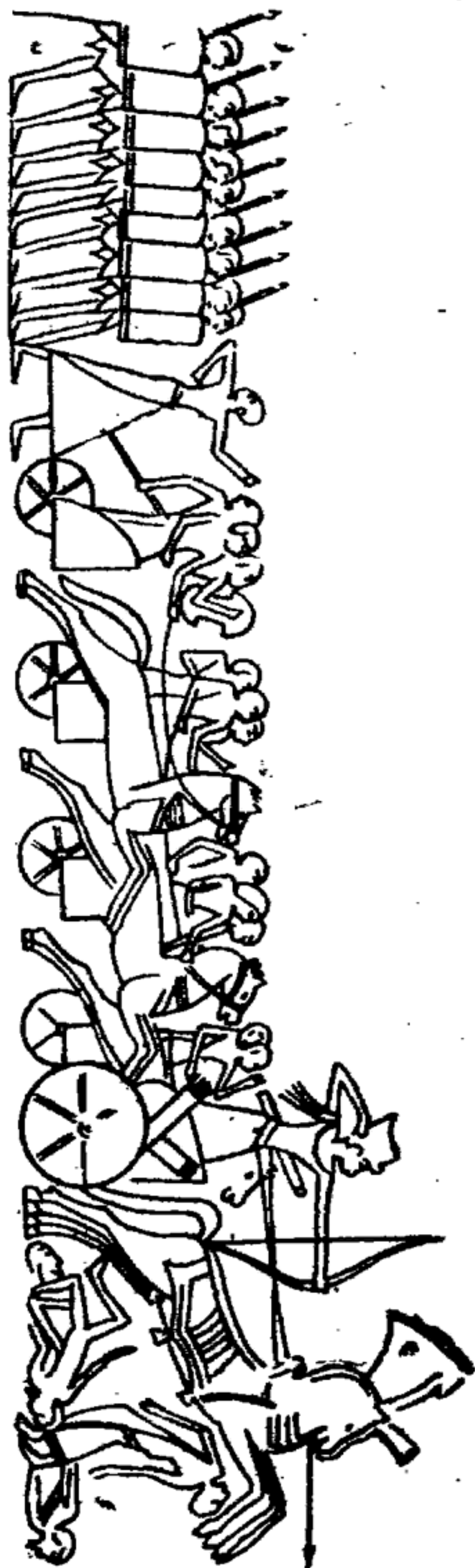
١٥١

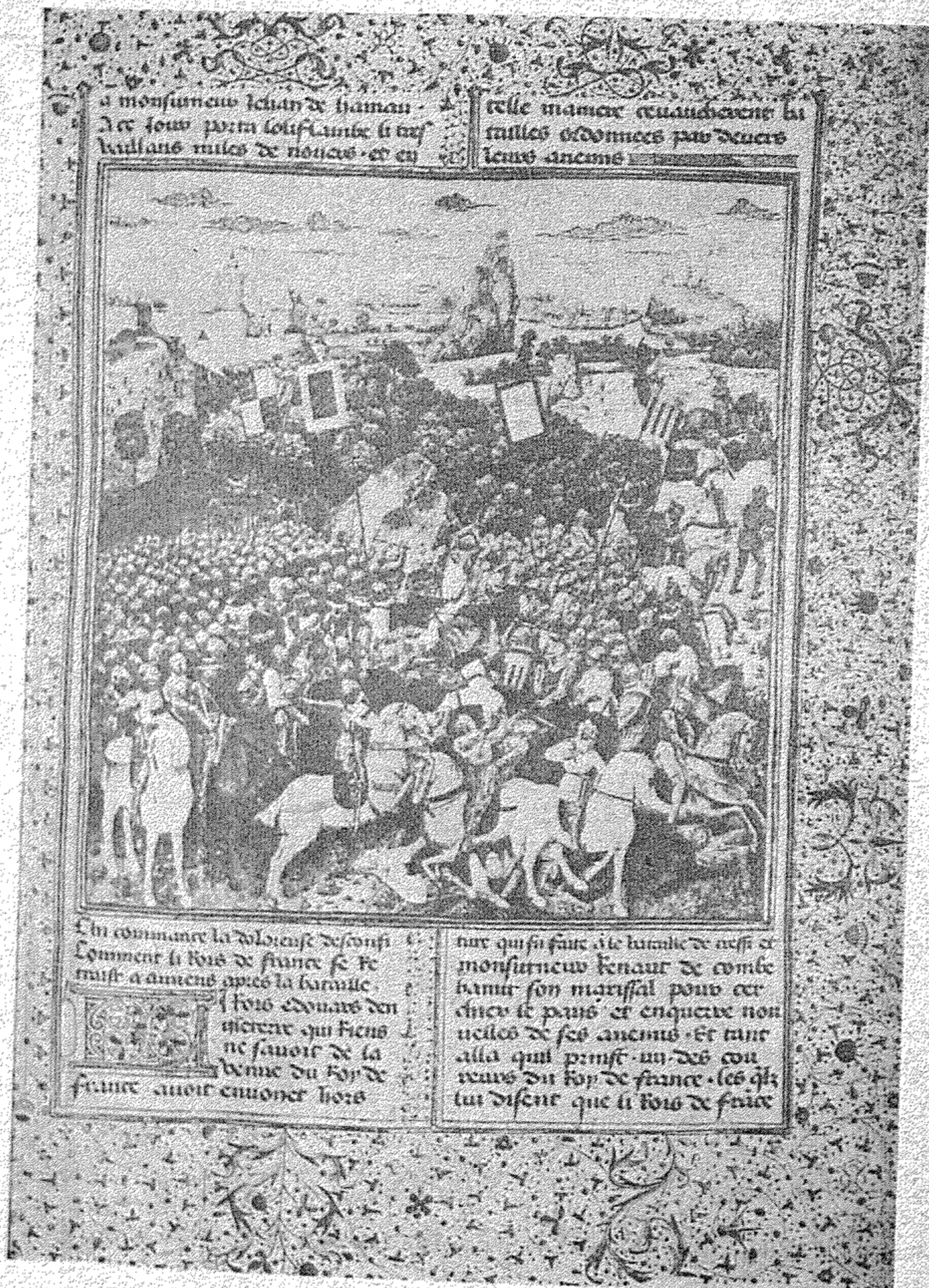
تغيرات الجيوش

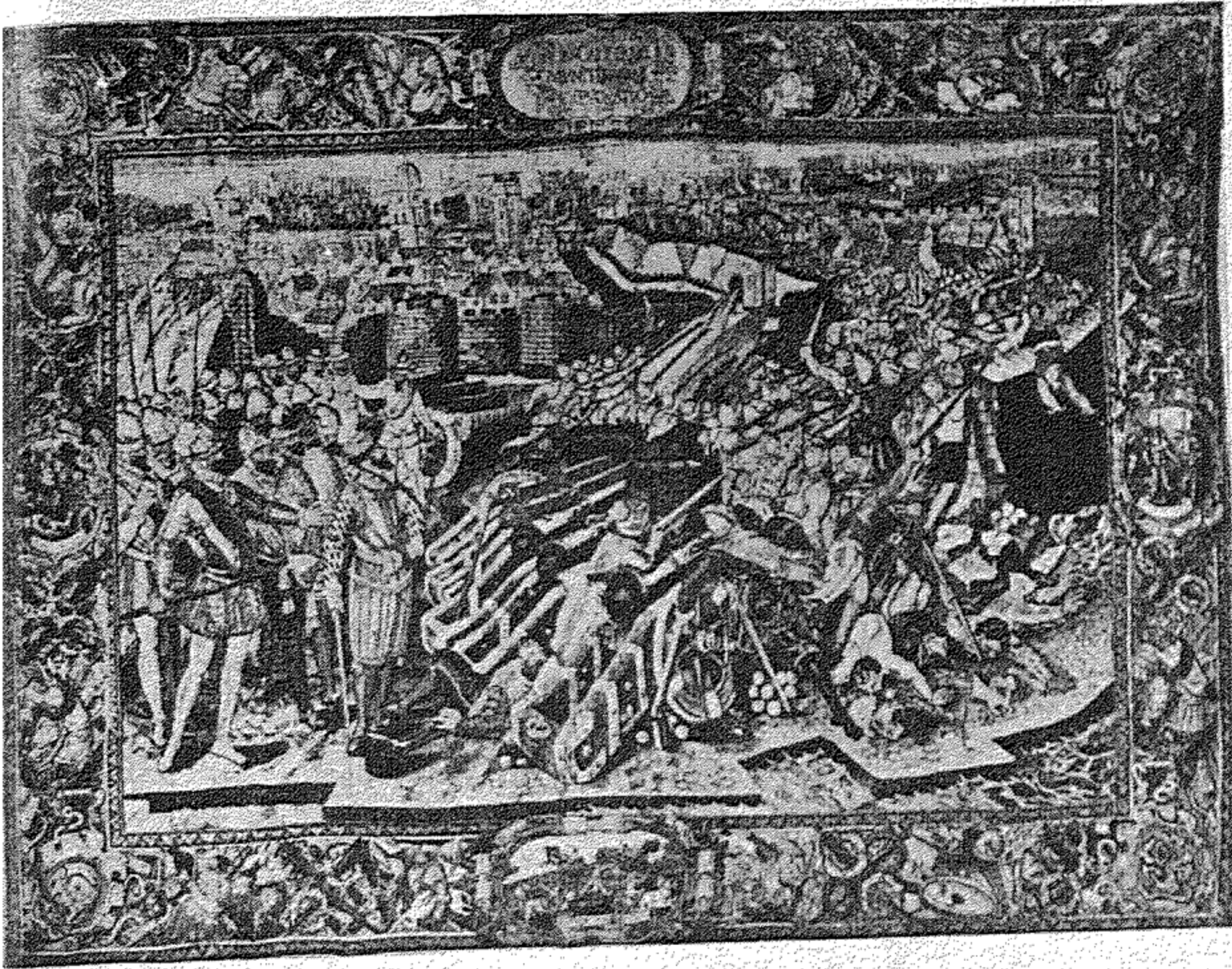
١٥٥ - ١٥٧

خاتمة

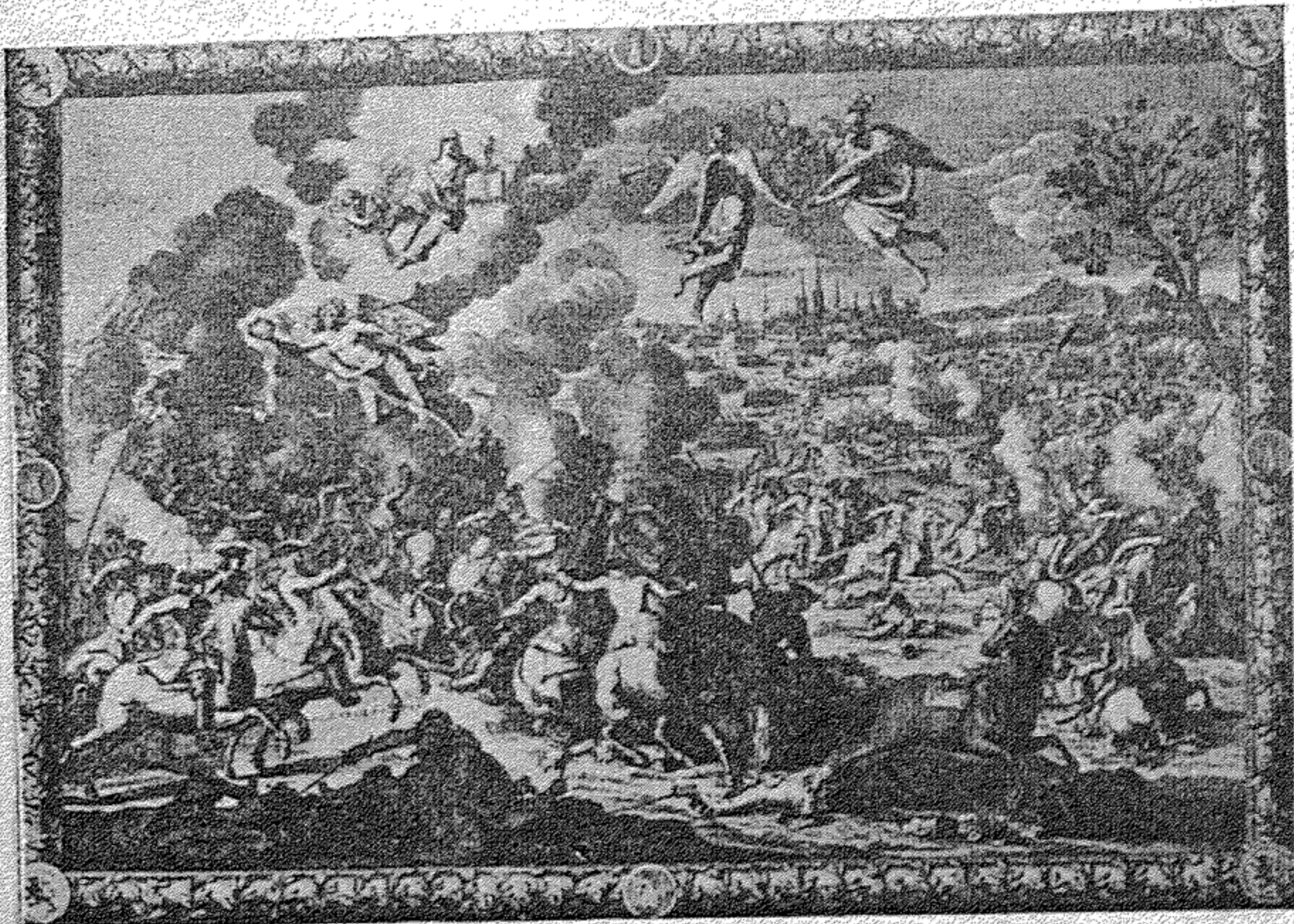
جنود المجرلات الحربية والمساواة بتقديمها فرعون مصر



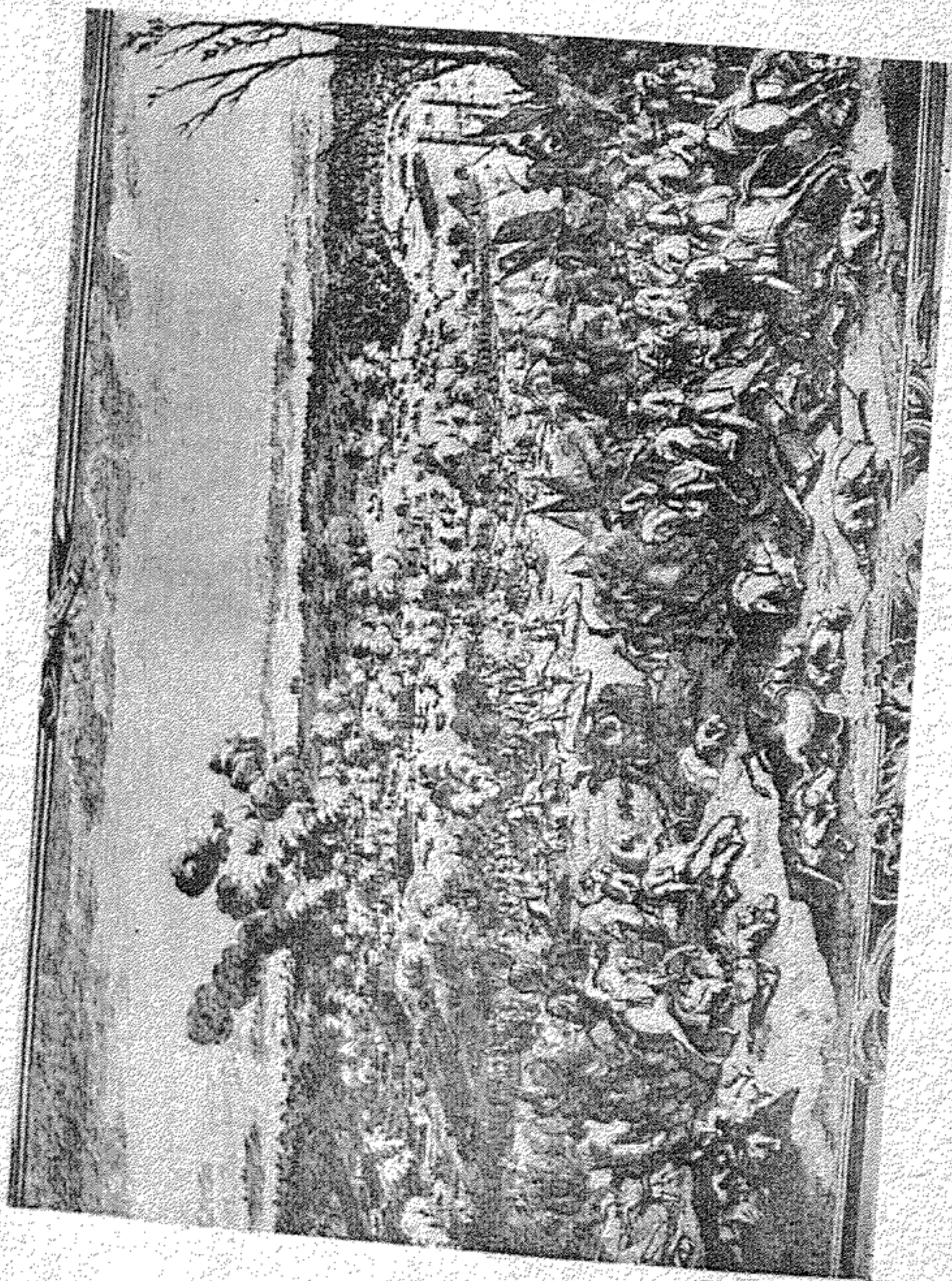




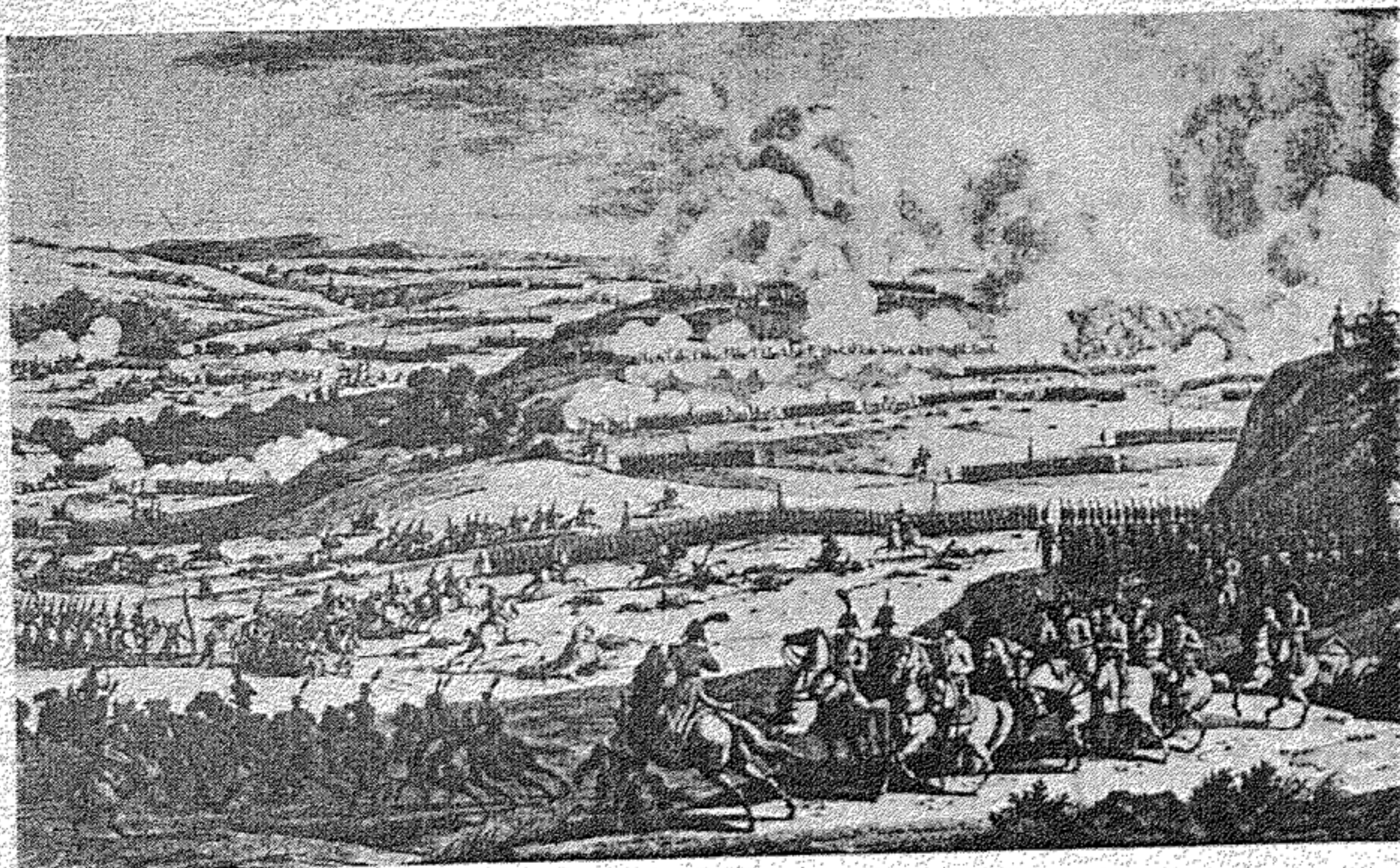
استيلاء الارشيدوق ألبرت على كاليه (١٥٩٦)



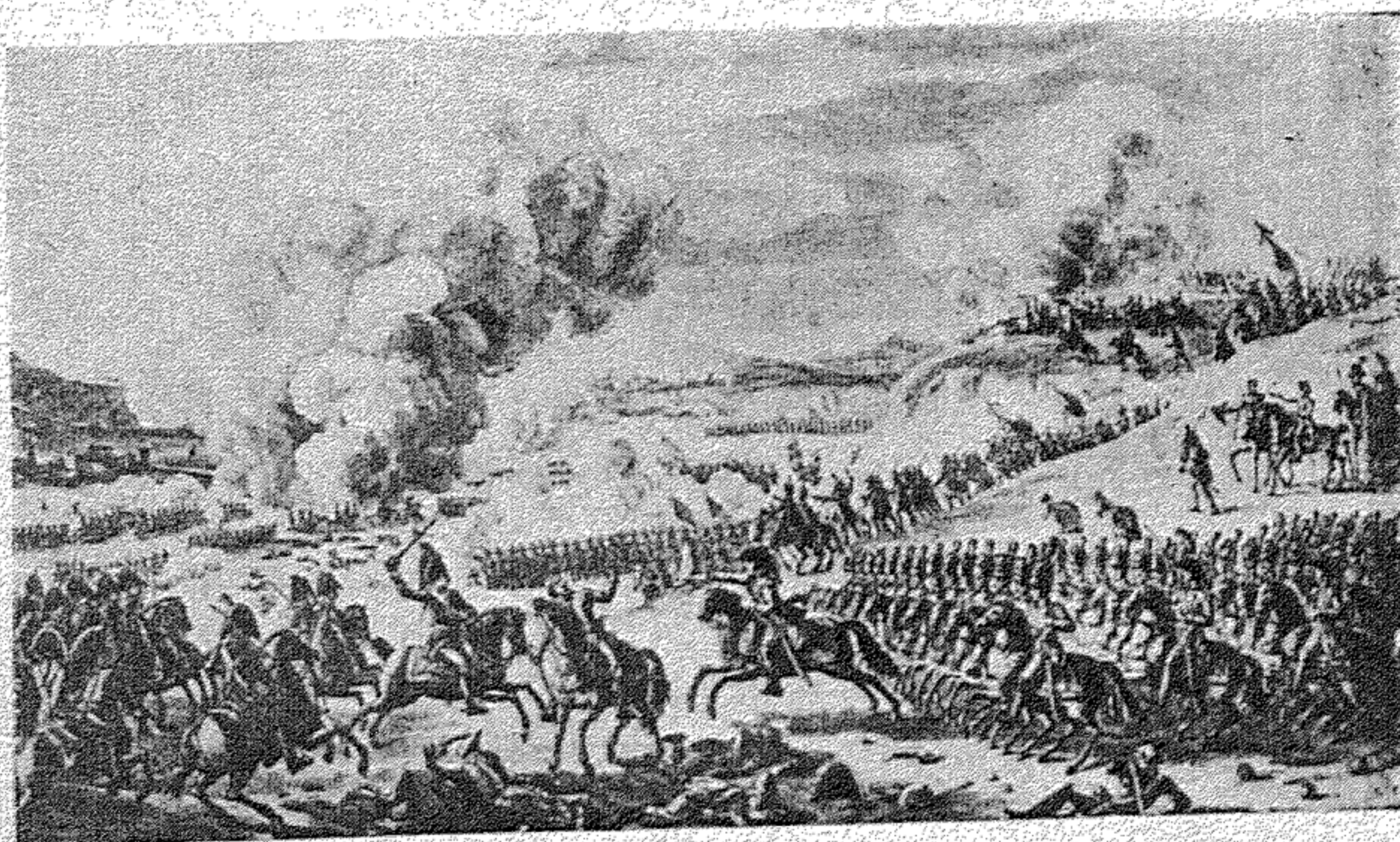
معركة فيلا فيكيوزيا (١٠ ديسمبر ١٧١٠)



معركة فو تنوي (١١ مايو ١٧٤٥) للرسام كوشان



معركة بينا (١٤ أكتوبر ١٨٠٦)



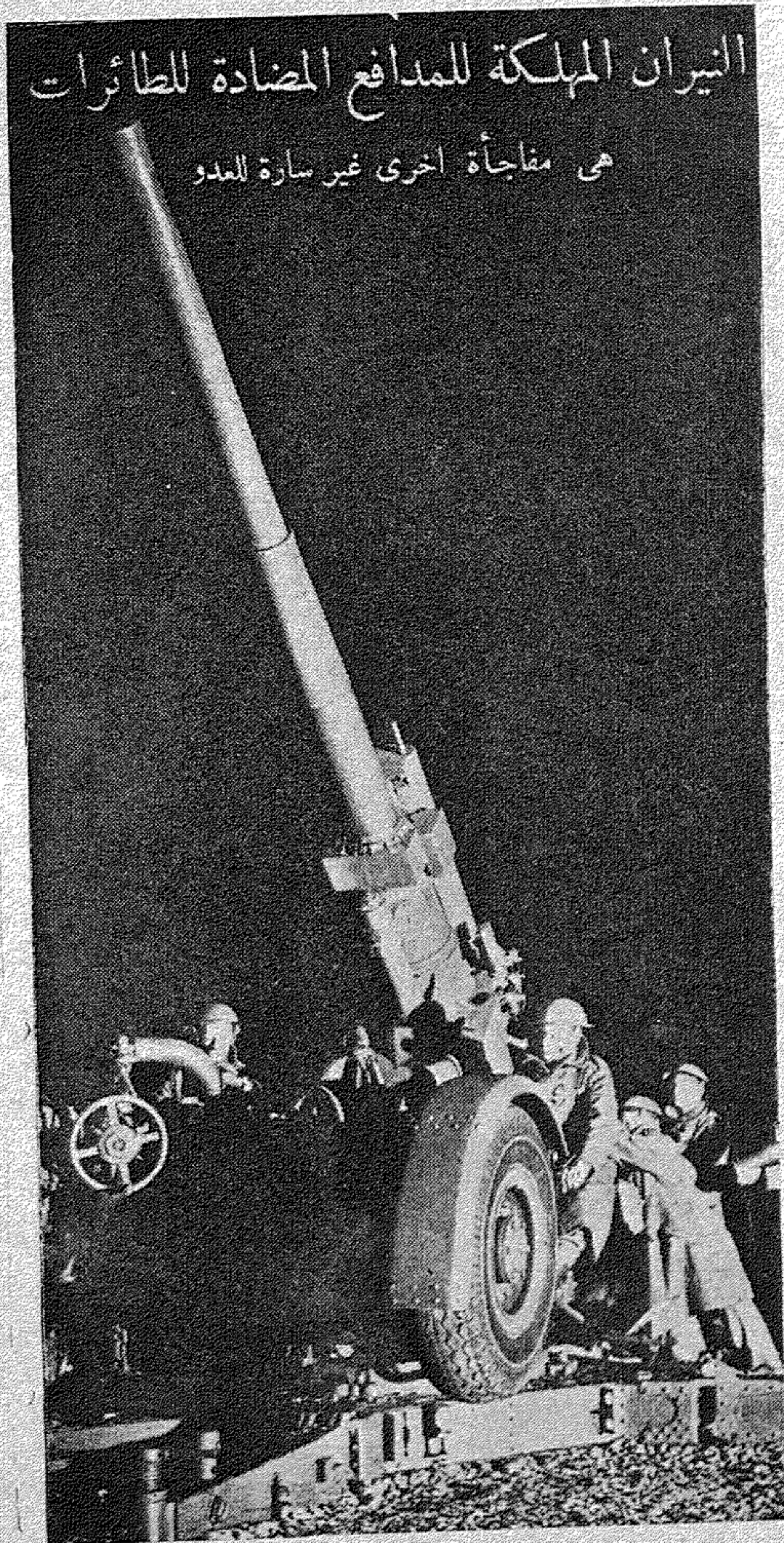
الدور الأخير في معركة بينا



اقتحام الفرسان المدرعين في معركة ريشوفن (٦ أغسطس ١٨٧٠)

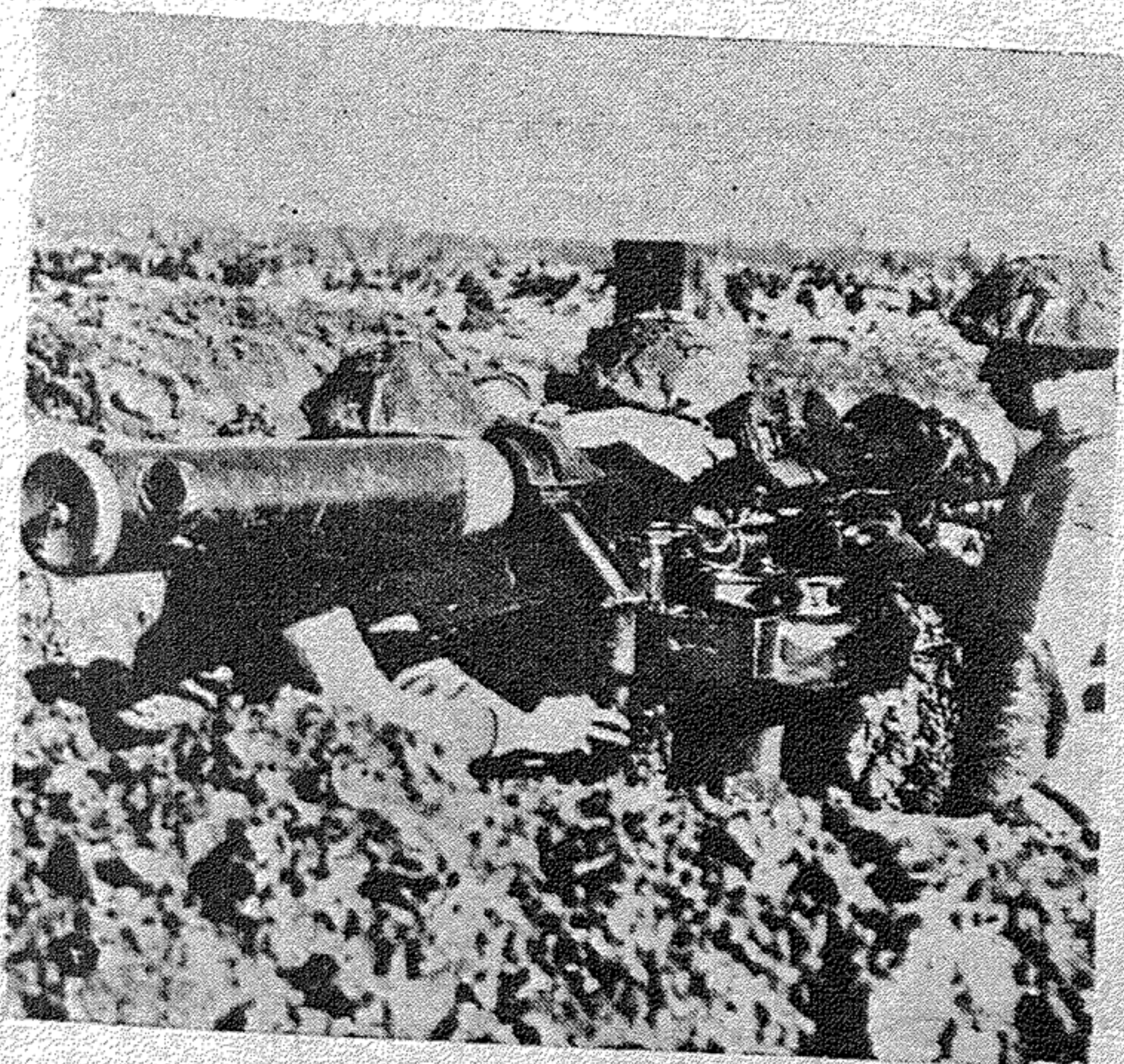
النيران المهلكة للمدافع المضادة للطائرات

هي مفاجأة أخرى غير سارة للعدو

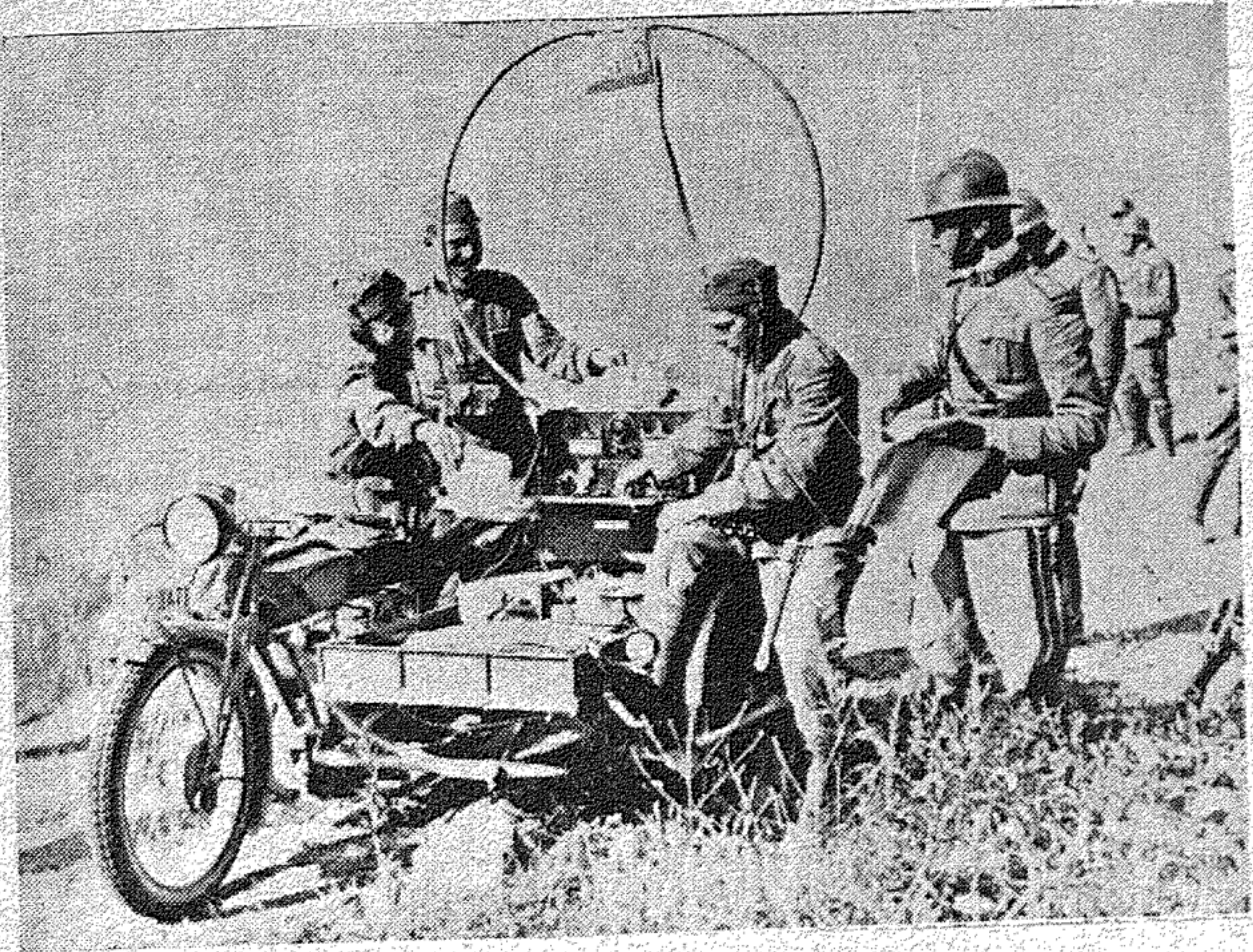




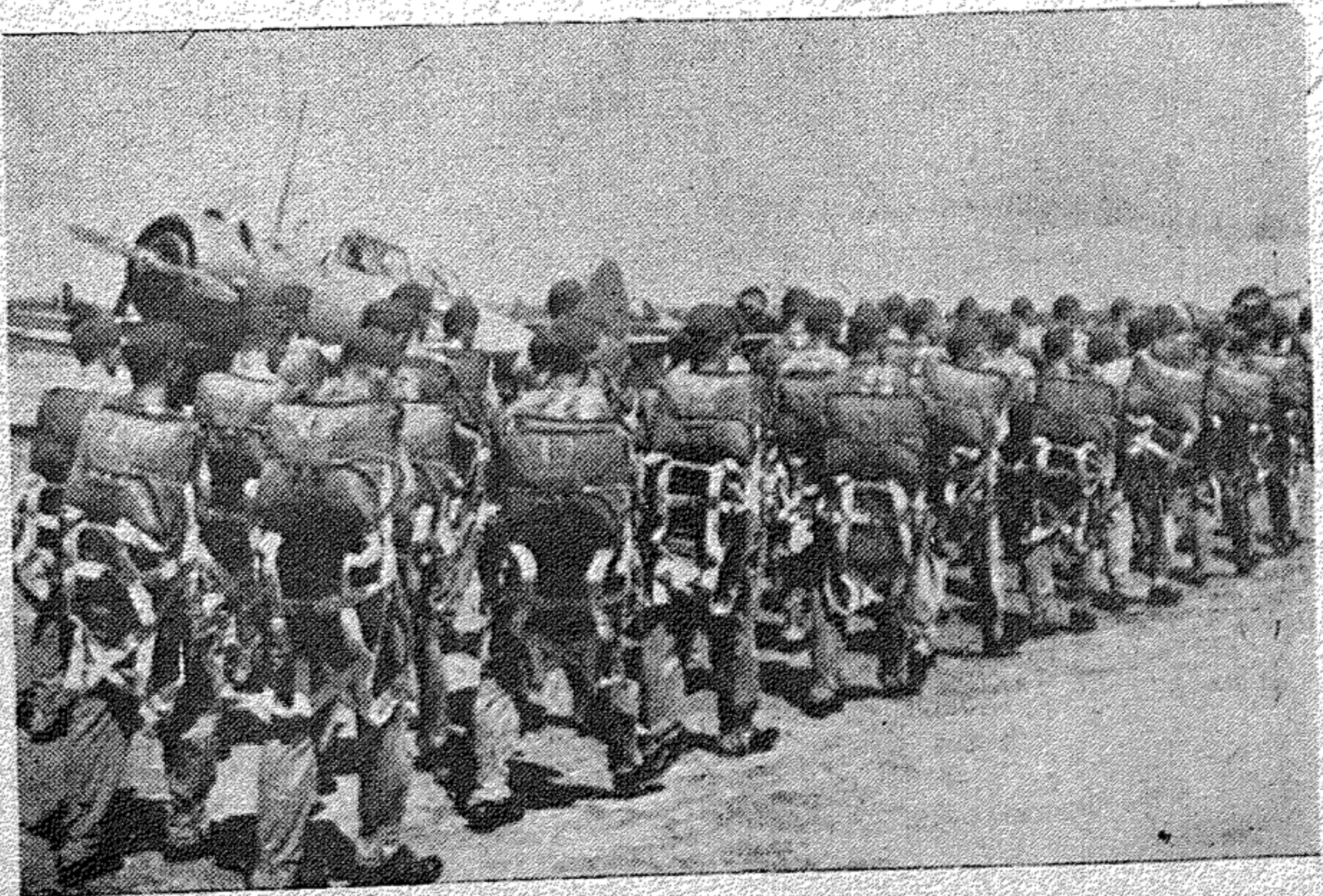
طاقم الأنوار الكاشفة



آلة دقيقة لتقدير مواقع الطائرات



جنود الاسلامي في الميدان



جند المظلات يستعدون لركوب الطائرات



جند المظلات أثناء الهبوط

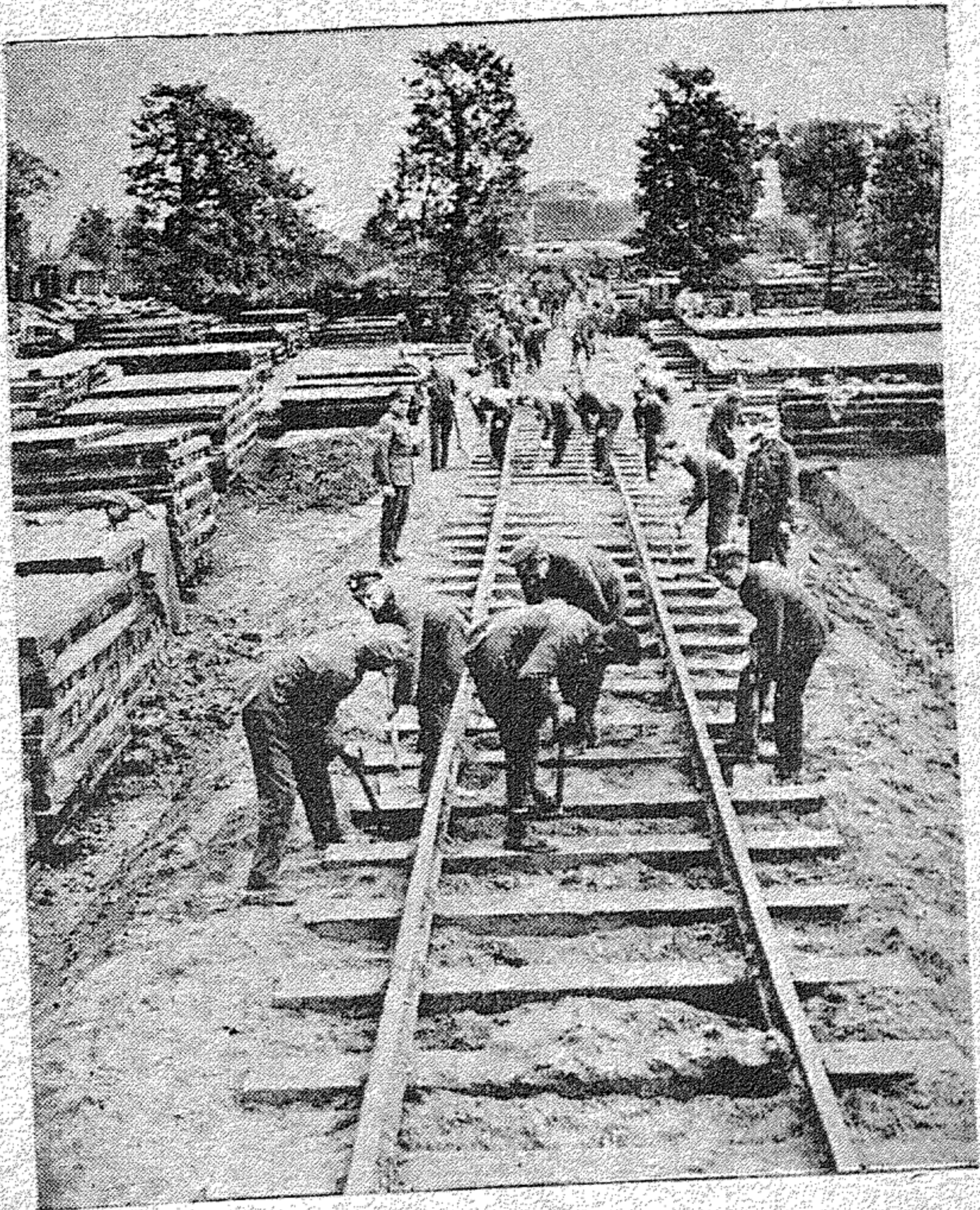


جماعة من راكبي الدراجات البخارية

— ١٧٣ —



تدريب الجنود على التغلب ضد الموانع

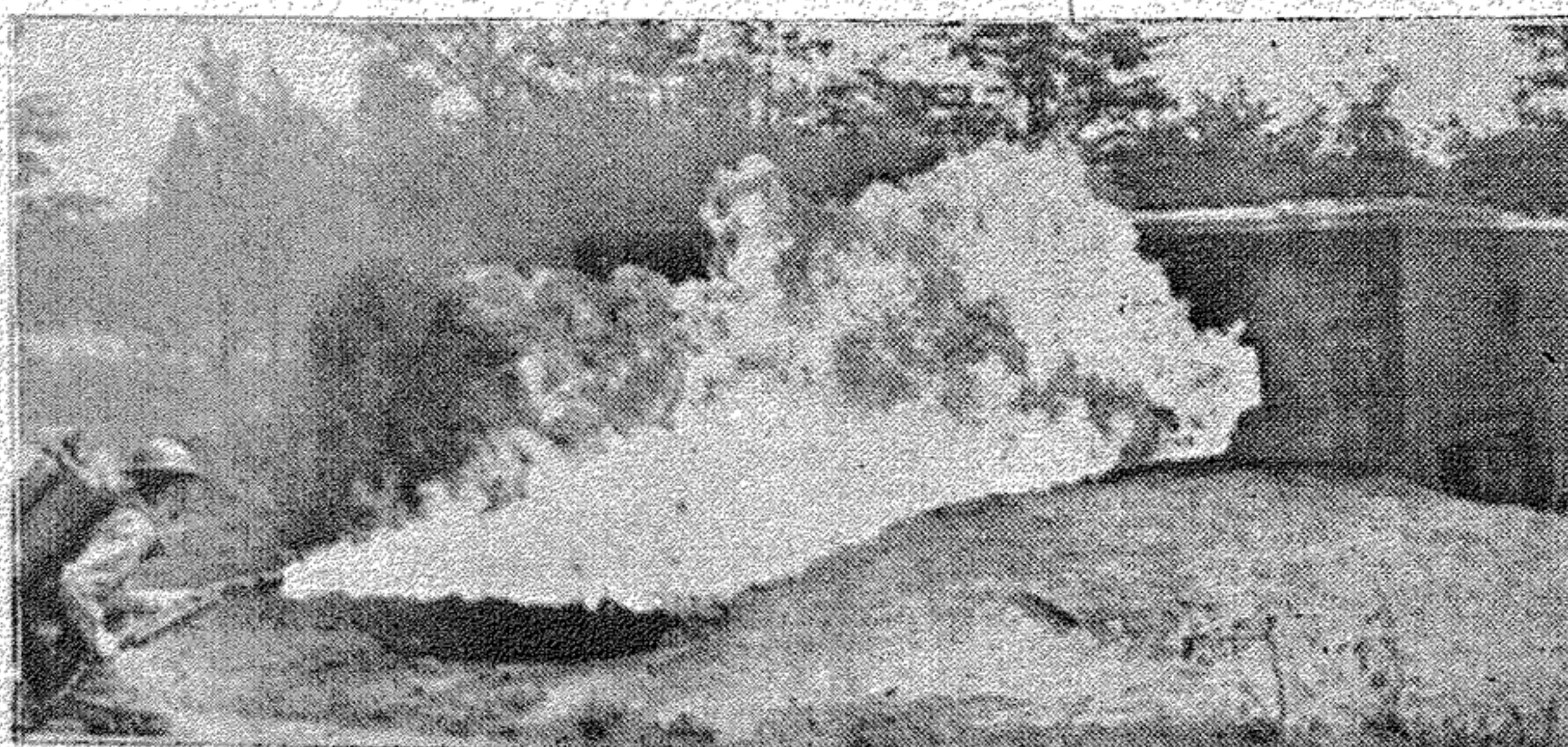


تدريب الجنود على مد خطوط الطرق الحديدية

—١٧٥—



مسيارة مدرعة تعبر كوبرى من صنع سلاح المهندسين



جندى يطهر وكرآ للعدو بقاذقة اللهب

أهداف هذه المجموعة

- * تكون مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارئ العربي فيها كل ما هو بحاجة إليه من المعلومات في شتى الموضوعات ، معروضة عرضاً سهلاً ، يتقبله القارئ العادي ، ويجد فيه التخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوبة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل إليه العلم في تلك الموضوعات .
- * نشر هذه المكتبة في أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الإمكان ، وإشراك أكبر عدد من الناشرين في نشرها .
- * النهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع .
- * تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
- * الإفادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء في شتى الأمم ، بإتاحة الفرصة أمام القارئ العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .
- * إفساح المجال أمام الشباب الطامح إلى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة إيجابية في النهضة العلمية والأدبية .
- * تشجيع الناشرين في مصر والدول الشقيقة على الإقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضاً مجزياً .
- * تجديد النشاط الفكري في العالم العربي عن طريق الكتب القيمة التي تحمل إليه العلم والمعرفة .

